A.U.B. LIBRARY

مكانة العلم في القرآن

297.15
D21mA
C.1
AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY

دعوة الإسلام إلى العلم والعمل لخير الجميع
وآثار ذلك في المدنية الغربية

تأليف
يحيى أحمد الدرديري
دكتور في الحقوق والسياسة في العلوم السياسية

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

عنوان المؤلف ١٢ شارع الملكة نازلي - مصر

٧٦

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

القاهرة

١٣٦٤

المطبعة السلفية

٢١ شارع الفتح * بجزيرة الروضة - القاهرة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كلمة عن الكتاب والمؤلف ﴾

(بقلم فضيلة الأستاذ الكبير والعالم الجليل)

الشيخ محمد صبرى عابدين

(١)

اللهم وفقنى لقول كلمة الحق واتباع الحق — وبعد فقد أطلعنى صديقى الدكتور يحيى أحمد الدرديرى على كتابه « مكانة العلم فى القرآن » وصارحنى برغبته أن أقدم لهذا الكتاب كلمة تناسب هذا البحث القيم فاعتذرت إليه واقترحت أن تكون المقدمة بقلم صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر أو بعض كبار علماء مصر المتضلعين فى العلوم الاسلامية فقال إن أشغالهم تحول دون ذلك فلم أر مناصاً من موافقته وتنفيذ رغبته .

(٢)

فى هذه الآونة التى تسيطر فيها الروح المادية على أكثر بنى الانسان الذين اندفعوا وراء شهواتهم واستجابوا لرغبات غرائزهم الحيوانية ونزواتهم

مستهينين بكل دين وفضيلة منطلقين من قيود الأخلاق والآداب العامة ا
يتوقف عليها سلام العالم وحسن التفاهم بين الأمم والشعوب فى انحاء المعمور

وفى هذه الآونة العصيبة يهب رجال من كبار الكتاب وحملة الأقلام
هذا الشرق إلى تعريف المسلمين وغيرهم بحقائق الاسلام وارشادهم إلى أسرا
كتاب الله القرآن وما تضمنه من المثل العليا والتعاليم السامية التى تخاط
النفس الانسانية وتنهض بها من حضيض المادية لتستأصل من أعماقها جذو
الرذائل والنقائص وتصقلها بمكارم الأخلاق ومحاسن الفضائل والصفات التى
تجعل من الانسان المستمسك بها « ملكا كريماً » لا انساناً عادياً وبها يستحق
المسلمون أن يوصفوا بقول ربهم ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ
تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾

فهذا محمد حسين هيكل باشا يؤلف كتاباً فى تاريخ حياة محمد صلى الله
عليه وسلم ، وحياة أبى بكر ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وقل مثل ذلك
عن كتب الأستاذ عباس محمود العقاد فى هذا الموضوع إلى غير ذلك من كتب
ورسائل ألفت فى السنين الأخيرة قبيل هذه الحرب وفى ابانها عن الاسلام
ورجاله الأولين فقد كشف مؤلفو تلك الكتب بأسلوب بديع عن نواحى
عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين رضوان الله عليهم
وأبانوا مكانتهم السامية فى العلم والسياسة والأخلاق التى هى دعائم المدنية
الصحيحة فجعلوا بكتبهم طريق دراسة تاريخ الاسلام معبدة سهلة السلوك
لجماعات الدارسين دراسة جامعية من مسلمين وغيرهم مما سيكون له أثر فعال فى
نشر الاسلام فى أوساط راقية تتذوقه عن دراسة علميـــة صحيحة فتؤمن

صلاحيته لهداية بنى الانسان وانقاذهم من التردى فى حمأة الرذائل والابتعاد عن كل شر وعدوان .

(٣)

الدكتور يحيى أحمد الدرديرى

ومن الذين وقفوا حيـــاتهم على خدمة الاسلام والعمل المستمر للنشر بهدايته وتعاليمه بين المسلمين وغيرهم منذ ربع قرن رجل مسلم زاهد فيما يتناحر عليه أكثر الناس من مناصب ورتب وعقارات ورغائب وشهوات هو الصديق الدكتور يحيى أحمد الدرديرى المراقب العام لجمعيات الشبان المسلمين .

تخرج هـذا الرجل من جامعة جنيف عام ١٩٢١ بعد أن مكث فى طلب العلم أوربا ما يزيد عن اثنتى عشرة سنة وحاز أكبر الاجازات العلمية التى تؤهله على المناصب وأكبرها جاهاً وأكثرها مرتباً فزهد فى ذلك كله زهد العالم العارف بحقائق الأمور . .

عرفت الدكتور الدرديرى فى عام ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩ م) حين قدمت مصر عضواً فى وفد فلسطين على أثر حوادث اضطرابات سنة ١٩٢٩ م . . وكان لحديثه فى نفسى أكبر الأثر لأنه صادر من قلب مؤمن صادق الايمان ويسير أن الأيام اليسيرة التى قضيتها بمصر حينئذ لم تكن كافيـة لمعرفة حقيقة نفس الدكتور الكبيرة وما ينطوى عليه ضميره الحى من اخلاص حميم للاسلام وكتاب القرآن . وقد شاء الله أن تحدث ثورة فلسطين فى عام ١٣٥٥ هـ وفق ١٩٣٦ م فاضطر بسببها فى سنة ١٣٥٧ الموافق سنة ١٩٣٨ إلى الهجرة من القدس ومن اللجوء إلى مصر وكانت دار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة هى مستقرى فقضيت

فى هذه الهجرة حوالى أربع سنين إلى عام ١٣٦١ فكنت أجتمع به كل يوم فى دار الجمعية التى لا ينقطع عن الحضور اليها بانتظام بكرة وعشيا فكأنه كوكب من كواكب السماء التى تسير طبقاً لنظام علوى لا تحيد عنه فكنت أقضى الوقت معه فى دراسة علمية وبحوث اسلامية وقفت خلالها على حقيقة اخلاصه وأيقنت بهبته حياته وماله وقلمه وكل ما يملك فى سبيل الله وفى سبيل اعلاء كلمة الاسلام وتعريف المسلمين وغير المسلمين من أمم العالم بحقائق الاسلام وتعاليمه التى فيها وحدها إذا طبقت عملياً تتحقق الاخوة الانسانية ، وبها وحدها تجتث أصول العدوان وعوامله ، ويسود الهناء والصفاء ، وتتمتع الأمم جمعاء بالهدوء والاطمئنان .

(٤)

أما كتاب « مكانة العلم فى القرآن » الذى هو موضوع هذه المقدمة فهو سفر قيم يحتوى على حقائق علمية تكشف عما تضمنه القرآن الكريم كتاب الله من دعوة صريحة إلى المدنية الفاضلة والاستزادة من العلم النافع (وقل رب زدنى علماً) كما أنه يبين بالبرهان القاطع والدليل الواضح أثر الاسلام فى المدنية الغربية التى لم تستطع أن تصل إلى ما وصلت اليه من تقدم وارتقاء إلا حين اطلع رجال الغرب وعلماؤه على كتب المسلمين ووقفوا على نتاج عقول علماء بغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة وغيرها من عواصم الاسلام التى كانت معاهدها « جامعاتها » زاخرة بأئمة العلم والفكر ومن المتضلعين فى الفقه والحديث وعلوم اللغة والطب والفلسفة والمنطق وعلوم الرياضيات وتقويم البلدان « الجغرافيا » والتاريخ إلى غير ذلك من علوم وفنون ساعدهم على اتقانها ما تمتع به علماء المسلمين حينئذ من حرية الفكر والرأى حين حرم

منهما غيرهم من أهل الأديان الأخرى.

فالدكتور الدرديرى فى كتابه هذا قد هيأ للمتعلمين من المسلمين وغيرهم من الراغبين فى فهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم على حقيقتها ولا سيما الشباب الجامعيين دراسة علمية للاسلام مدعمة بالأدلة القاطعة على أن فى القرآن وحده العلاج الشافى والدواء الوافى من كل ما يتخبط به العالم من تحاسد وتباغض وتناحر وتناخر وتكاثر بالأموال والقوى المادية فهو يدعو إلى تطهير النفوس الانسانية من شهواتها الفاتكة ونزواتها المردية ويبين للناس ما يمكن أن يتمتعوا به فى هدوء واطمئنان روحى إذا اتبعوا جادة الخير وأذعنوا للحق والعدل وفهموا أن الله تعالى استخلفهم فى هذه الارض ليكونوا عباداً له تسود بينهم روح التعارف والتآلف فيتنافسون فى الاستزادة من العلوم والمعارف النافعة ويكشفون عن خبايا الارض وما أودع فيها من خيرات وأرزاق ومعادن وآثار ويتسابقون إلى تهذيب نفوسهم والزامها بالفضائل والشمائل الحميدة التى وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته على نشرها حيث قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

(٥)

الذى تقدم هو خلاصة موجزة عما تضمنه كتاب «مكانة العلم فى القرآن» وللدكتور الدرديرى غير هذا الكتاب عدة كتب دينية واجتماعية كلها ترمى إلى توجيه جماعات المسلمين وأفرادهم إلى الاستمساك بمبادىء الشريعة الاسلامية المطهرة وتربية نفوسهم عن طريق العبادات وتطبيق قواعد الاسلام تطبيقاً عملياً. فمن تآليفه كتاب «كيف نعلم القرآن لأبناء المسلمين» فى أربعة أجزاء متسلسلة وقد طبعت وانتفع بها عدد غير قليل من المسلمين.

صغاراً كباراً . وله أيضاً كتاب « التعاون » الذى طبع للمرة الخامسة بالمطبعة السلفية سنة ١٣٤٨ هـ وفق سنة ١٩٢٩ م . وقررت وزارة المعارف تدريسه بمدارس المعلمين . وله سلسلة مقالات دينية واجتماعية وأخلاقية فى أجزاء مجلة الشبان المسلمين التى يرأس تحريرها من ستة عشر عاماً من سنة ١٣٤٧ هـ وفق سنة ١٩٣٨ وتتضمن هذه المقالات الحكم السامية فى تعاليم الاسلام وما يفيده بنو الانسان من اتباعها والزام أنفسهم بالعمل بها . هذا ما طبع من مؤلفات الدكتور الدرديرى وله كتابان مخطوطان وهما معدان للطبع أحدهما كتاب « الاسلام والمسلمون » أو « قواعد الاسلام الخمس » من ناحيتها الدينية والاجتماعية فى جزء واحد وكتاب « أين المسلمون من الاسلام » أو « دعوة الاسلام إلى أدب النفس وتربيتها » وهو جزآن . وقد اطلعت على هذين الكتابين فألفيتهما يحويان دراسة عميقة لقواعد الاسلام وآدابه بعبارات رصينة محكمة . وإنى على يقين بأن كتب الدكتور الدرديرى متى تم نشرها ستحدث أثراً فعالا فى الدعوة إلى الاسلام وآدابه فى الأوساط والبيئات المثقفة لصياغتها بأسلوب من يفهم عقلية تلك البيئات فيخاطبها بالطريقة العلمية المؤيدة بالدليل والأسلوب الذى فيه اقناعها . وليس معنى هذا أن غير الجامعيين وذوى الثقافة العليا سيقصر فهمهم عن إدراك ما فى هذه الكتب . كلا بل إن عامة المسلمين سيجدون فيها غذاء روحياً سائغاً سهل المأخذ قريب المنال مهما كانت ثقافة القارىء منهم ودرجة تعليمه .

(٦)

ما أسلفناه فى الفصول الخمسة ليس إلا نبذة موجزة عن كتب الدكتور الدرديرى وجهاده المستمر المتواصل فى سبيل اعلاء كلمة الله وتوجيه المسلمين

إلى ناحية التعاون على الخير .

وقد تنبه الباحثون من غير المسلمين إلى الأثر الايجابى الذى يفيده الاسلام والمسلمون من بحوث الدكتور الدرديرى وأطروا جهوده كل الاطراء . فقد ذكر المستشرق هـ . ا . جب استاذ اللغة العربية بجامعة لندن فى كتاب « وجهة الاسلام[1] » الذى نشر عام ١٩٣٣ عن جمعية الشبان المسلمين وأثر الدكتور الدرديرى فى النهضة الاسلامية الحديثة بقلم المستشرق ج . كامبفماير الأستاذ بجامعة برلين فى ص ٧٥ و٧٦ ما نصه « وان أعظم منبع نستق منه معلوماتنا عن نشاط الجمعية هو المجلة التى تنشرها وتدل المقالة الافتتاحية من العدد الأول اكتوبر سنة ١٩٢٩ على حركة الجمعية دلالة تامة فعنوانها (حاجتنا إلى الاصلاح) « مبدؤنا وخطتنا » يقول كاتب المقال وهو رئيس تحرير المجلة الدكتور يحيى الدرديرى : إن ما أصاب الأمم الاسلامية من الانحلال والضعف يدعو كل مفكر إلى تعرف الأسباب والبحث عن أنجع الوسائل للعلاج ويرى أن الفوضى الخلقية التى أصابت المجتمع الاسلامى ترجع إلى أسباب كثيرة أهمها الجهل المنتشر وتقليد المسلمين لسيئات المدنية الغربية واهمال المتعلمين واجباتهم نحو محاربة البدع والضلالات التى سرت فى جسم الأمة سريان الحمى فى جسم المريض . يقول ان للمسلمين دواء واحداً هو الرجوع إلى القرآن أساساً ونبراساً ومصدراً للنهضة الخلقية بين المسلمين هذه النهضة التى لا تصلح بدونها نهضة اجتماعية أو اقتصادية أخرى وأنه ليحسن أن نلاحظ ان الذى يترسم هذا البرنامج ليس شيخاً من قدماء المحافظين بل دكتور فى القوانين وحامل ليسانس فى العلوم السياسية من جامعة جنيف

---

(١) ترجم هذا الكتاب بالعربية الأستاذ أبو ريده

يبين عن أسباب دفاعه عن القرآن بقوله « إن أدب القرآن مؤسس على الدعوة إلى الاصلاح والعمل لخير المجتمع وعلى حرية العلم والفكر وهما أساس النهضة الصحيحة وانه يدعو إلى التسامح وإلى تضامن النوع الانسانى واستشهد على آرائه باقتباس نصوص كاملة من آيات القرآن وبشرحها . وفى مقال آخر عنوانه « داؤنا ودواؤنا » مايو سنة ١٩٣١ يصف الكاتب نفسه « يعنى الدكتور الدردیری » الفوضى الخلقية السائدة بين المسلمين اليوم ويرثى لها رثاء صادقاً فيرى أن الناس أصبحوا لا وجهة لهم فى حياتهم ولا قاعدة يسيرون عليها فيجب عليهم أن يجعلوا الله وجهتهم وأن يروضوا أنفسهم على اتباع أوامره واجتناب نواهيه ومن جعل الله غايته فقد فعل الخير وصار حب الانسانية والعمل على خيرها قاعدته الخلقية ويرى أن الناس اليوم استسلموا لشهواتهم وأطماعهم فيجب على الأفراد والجماعات أن يحاربوا هذه المساوىء أشد المحاربة ويستشهد من التاريخ على أن مثل هذه الحركات الاصلاحية لا بد أن تواجه عقبات ومصاعب كثيرة فيجب أن يتذرع زعماؤها بالشجاعة ورباطة الجأش وأن يوجهوا عقول محبى الاصلاح وكل من يقصرون جهودهم لخدمة البلاد ويعملون على بلوغ الحياة الصحيحة . اه

(٧)

خاتمة

أما بعد فانى أود أن أختم هذه المقدمة منوهاً بحقيقة ينبغى أن تعلم ، وهى أن الأثر الحقيقى فى تكوين الدكتور الدردیری العلمى والخلقى وتوجيهه هذه الوجهة الصحيحة التى دأب عليها إبان وجوده فى معاهد أوربا انما مرجعها إلى البيئة الدينية التى نشأ فيها وإلى التربية البيتية على الأساس الاسلامى

الصحيح . فقد تلقى تعاليم الاسلام وقرأ القرآن منذ كان طفلا ورأى والده وأهل بيته محافظين على اداء الصلوات وما يجب عليهم لله تعالى من عبادة وإخلاص فى السر والعلن ، فانطبع هذا الأثر فى نفسه واستكن فى طيات ضميره الحى ، ثم ما زاده طلب العلم والحصول على الاجازات والدرجات الجامعية إلا إيماناً ويقيناً .

فاذا أراد المصلحون أن تثمر جهودهم ثمرها وتؤتى أكلها المرجو فليعملوا على إيجاد البيئة الاسلامية والبيت الاسلامى الصحيح فيصلون إلى أهدافهم السامية فى الاصلاح من أقرب الطرق وأسهلها منالا بإذن الله .

القاهرة فى ٢٥ ربيع الأول سنة ١٣٦٤

١٠ مارس سنة ١٩٤٥

محمد صبرى عابدين

مراقب الشئون الدينية بالمجلس الاسلامى الأعلى بفلسطين

ومدرس بالمسجد الأقصى المبارك

وعضو جمعية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر المركزية

ومدير مكتبها . وعضو مؤتمر علماء فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على رسل الله أجمعين
وبعد فلا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه

القرآن

وأثره فى قادة الفكر الغربيين والتطورات العالمية

القرآن عقد اجتماعى (كونتراتو) بين الله والناس - هو النظام العام لهداية البشر - نظام للفرد والجماعة - نظام للروح والجسد - نظام للارض والسماء - نظام للغيب والشهادة - نظام الماضى والحاضر والمستقبل

جرت العادة أو العرف أن صاحب الدار إذا أراد أن يؤجرها لغيره خذ عليه شروطاً أو اتفق معه على القواعد التى يسكن بها : من تحديد لأجر والمدة وما يجب عليه من صيانة الدار وعدم العبث بها حتى تكون صالحة للسكنى .

فالله جل شأنه وهو المالك المتصرف المطلق للعالم كله بما فيه دنيانا الصغيرة ضع شروطاً لسكنى هذه الدار وما بعدها من دار أخرى تسمى دار القرار .

وتسمى هذه الشروط « هدى » ليهتدى بها فى الحياة . ولها كثير من الأسماء ستكون موضع الذكر فيما بعد . فمن اتبع هدى الله من الناس المنزل على رسله وهو الدين (أى النظام العام الشامل للبشر) وجبت سعادتهم ، وأصبحوا آمنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وهذا وعد يشمل الدنيا والآخرة لاطباقه ، وموجب لشقاء من أعرض عنه بعد بلوغ دعوته على وجهها ، قال تعالى لآدم ومن معه : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . سورة البقرة

يبين الله تعالى أن من اتبع هـــداه (أى النظام الذى قرره فى كتبه وجاءت به رسله) علماً وعملا بالاقدام على ما يلزم ، والاحجام عما يحرم ، فانه يصير إلى حال لا خوف فيها ولا حزن .

فمن وفى بعهد الله (وهو الدين) أى النظام الذى أمر به عاش عزيزاً سيداً فى هذه الدار منصوراً على عدوه ، وإلا فالشقاء والحرمان والخذلان . قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ سورة البقرة ، كما قال تعالى أيضاً ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال أيضاً ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾

وهداية الله التى بين فيها كيف تسكن الأرض ، وكيف يسود الانسان فيها ويحيا حياة طيبة هى القرآن الكريم وهو العقد أو الشرط أو بعبارة أخرى النظام العام الشامل الذى وضعه الله لخلافة الأرض .

وهذا القرآن له أسماء كثير دلالة على عظمته وعلو شأنه نذكر منها على سبيل المثال : ١) الكتاب — بمعنى المكتوب وهو اسم جنس لما يكتب ، والمراد بالكتاب هذه الرقوم والنقوش ذات المعانى. وليس المراد هنا نوعا من أنواع الكتب بل المراد كتاب معروف معهود للنبى صلى الله عليه وسلم بوصفه وذلك العهد مبنى على صدق الوعد من الله بأنه يؤيده بكتاب تام كامل كاف لطلاب الحق بالهداية والارشاد فى جميع شئون المعاش والمعاد .

واتفقوا على أن المراد من الكتاب القرآن قال تعالى ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾

واشتقاق الكتاب من كتبت الشىء إذا جمعته وسميت الكتيبة لاجتماعها فسمى الكتاب كتاباً لأنه كالكتيبة على عساكر الشبهات أو لأنه اجتمع فيه العلوم أو لأن الله تعالى ألزم فيه التكاليف على الخلق قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ سورة الانعام ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ سورة فصلت

ومن أسماء القرآن : القصص — قال تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ سمى به لأنه يجب اتباعه . والبيان ، والتبيان ، والمبين . أما البيان

فقوله ﴿ هٰذا بَيانٌ لِلنّاسِ ﴾ . والتبيان فهو قوله ﴿ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْيانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ . وأما المبين فقوله ﴿ تِلْكَ آياتُ الكِتابِ المُبِينِ ﴾

والبصائر — قال تعالى ﴿ هٰذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى أدلة يبصر بها الحق

النور — قال تعالى ﴿ اللهُ نُورُ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ﴾ وفى القرآن : ﴿ واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ ﴾ يعنى القرآن(١)

إن المتأمل فى هذه الأسماء والصفات التى ذكرناها وكثير غيرها لم تذكر والتى سمى الله تعالى بها القرآن يستدل دلالة واضحة على ما للقرآن من أهمية كبرى فى الحياتين الدنيا والأخرى ، فهو النظام المحكم الذى وضعه العليم الخبير ، خالق والسموات والأرض وما بينهما ؛ ومدبر الأمور ومجريها ، يعلم مثاقيل الجبال ومكاييل البحار وعدد ورق الأشجار ، وأحصى كل شىء عدداً وقدراً ، وأحاط بكل شىء علماً لا توارى منه سماء سماء ولا جبل ما فى وعره ولا بحر ما فى قعره ﴿ يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِى الصُّدُورُ ﴾ .

فما لا ريب فيه أن ما جاء به هو الحق لأنه عن صاحب الحق المطلق بجميع العوالم ظاهرها وخافيها وهو خالقها ومدبرها ، وليس وراء علم الله علم ، ولا فوق قدرة الله قدرة ، وإنه ما من شىء فى الوجود إلا وهو خالقه والمتصرف فيه .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ١٦١ وما بعدها

وقد قال وقوله الصدق : ﴿ وإنَّه لكتابٌ عزيزٌ لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ﴾ .

فهو كتاب علم وتعليم وهداية وإرشاد إلى ما يجب عمله فى هذه الحياة وما يترتب على صالح الأعمال وسيئها من الجزاء ، ففيه نظام لحياة الفرد وحياة الجماعة ، فيه نظام الأرض وكيف نستغلها ، وفيه نظام السماء وكيف ننتفع بما فيها .

قال الله تعالى : ﴿ إنَّ فى خَلْقِ السَّموات والأرْضِ واخْتلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولى الألْبابِ ﴾ سورة الاعراف ، وهذا إشارة لأهل الفهم والبحث والتفكير والعلم ، وقال أيضاً ﴿ ألَمْ تَرَوْا أنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فى السَّمواتِ وما فى الأرْضِ وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وباطِنَةً ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كِتابٍ مُنيرٍ ﴾ سورة لقمان . وقال تعالى : ﴿ كما أرْسَلْنا فيكُمْ رَسولًا مِنْكُمْ يَتْلو عَلَيْكُمْ آياتِنا ويُزَكِّيكُمْ ويُعَلِّمُكُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ ويُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونوا تَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة .

والله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الموت والحياة ليبلو ويختبر الناس أيهم أحسن عملا . اقرأ سورة الملك . فكيف تعيش ، وكيف تحيا ، وما هو

الموت ، وما بعد الموت من نعيم مقيم أو عذاب أليم نتيجة لعملك فى الحياة الدنيا إن كان صالحاً أو طالحاً كل ذلك مبين فى القرآن الكريم ، وهو الذى يهديك إلى الصراط المستقيم قال تعالى : ﴿ انَّ هٰذا القُرآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المؤْمنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كبيرا. وأنَّ الذينَ لا يُؤْمنون بالآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عذاباً أليما ﴾ سورة الاسراء

كتب الأستاذ مارسيل كابى فى جريدة لافلش التى تصدر فى باريس عن القرآن ما يأتى :

« القرآن » كتاب موحى به وهو يفوق ما عرف من هذا النوع كثيراً فان العقيدة الروحية التى يبثها تصلح أن ينعكس نورها على الحياة الاجتماعية ، وهذا سر قوة الاسلام وسماحته ووحدته .

« والقرآن » باسم الايمان الثابت على وجه الاطلاق يحمل إلى الناس بدون سفسطات بيانية ولا خيالات غير طبيعية أصول العدالة ، والنظام الاجتماعى الذى يخضع كل فرد لمراعاة أدب الاجتماع ، ويفرض على الجماعة حماية الافراد ، وهو بهذا الأسلوب يوافق فى جوهره أحدث القواعد الاجتماعية العصرية .

ليس فى الاسلام قسوس ولا رهبانية ، ولكن فيه شراحاً ومفسرين لكتابه ، وكتابه قد نظم حدود وحياة كل فرد وحياة المجموع .

فهو يتناول الانسان من يوم ميلاده ، ويتتبعه إلى يوم وفاته مراعياً كل صغيرة وكبيرة من حياته . غذائه وطهره وصلواته المصحوبة بحركات متناسقة ،

وصومه السنوى المطهر فى شهر رمضان ، وزواجه وطلاقه وواجباته البيتية والاجتماعية أى ما يجب على كل فرد للجماعة وما يجب على الجماعة لكل فرد .

القرآن لا يعنى كثيراً بالدعوة إلى التحاب . لأن الحب عاطفة متقلبة قد تكون شديدة فى تلهبها ولكنها قد تنطفىء جذوتها بسهولة إذا هبت عليها ريح باردة من قبل المنافع الذاتية .

ولكن القرآن يدعو إلى الحق والواجب ويحتفظ بالحب لله وحده . أما الانسان فيكل أمره للضرورة ، وهو لأجل أن يحل مسألة هـذه الضرورة يفرض على كل جماعة بشرية روحاً اجتماعية ونظاماً سليما من العلل . ولا يوجد نظام اجتماعى سليم إلا بقدر ما تتعادل فيه حقوق الفرد على الجماعة وحقوق الجماعة على الفرد . وفى نظر القرآن أن وجود طائفة موضوعة فوق الواجبات فى المجتمع وأخرى ملفوظة خارج دائرة الحقوق يعتبر إنكاراً صريحاً للعقد الاجتماعى المقرر . وقد قدس القرآن هـذا العقد الاسلامى ، وهذا سر بقائه ونفاذه إلى اليوم رغماً عما اعترى جماعات المسلمين من تقلبات التاريخ .

فلننظر الآن فى الروح الاجتماعية التى فرضها القرآن على أهله :

تأمل هذا فى مائتين وأربعين مليوناً من الأنفس تدعى خمس مرات فى اليوم لأداء الصلاة فيجيبون داعيها ، ويتوجهون جميعاً صوب مكة ، ويقرأون جميعاً عبارات واحدة ، ويركعون ويسجدون جميعاً على نحو واحد ، ويدينون جميعاً بقضية واحدة وشريعة واحدة ، معترفين طرا بالعقد الاجتماعى الذى يربطهم ، وفى وسط هـذه الوحدة اليومية الهائلة يشعر كل واحد بأنه تحت نظر الجميع ، لأن حارس العقيدة والشريعة والعقد الاجتماعى هو الرأى العام فى الاسلام .

فالمسلم على استقلاله المطلق فى حياته الخاصة وتفرده بالسلطان فى بيته فلا يستطيع أحد أن يرى فيه الوجه العزيز عنده ، هذا المسلم نفسه فى حياته الاجتماعية مكشوف الحال أمام أعين اخوانه أجمعين . ولإنكار الرأى العام لشىء من الأشياء قوة لا حد لها فى جماعة المسلمين . فكل من يناقض هذا الرأى العام ويتعدى حدوده يعتبر ملعوناً بأشد معانى هذه الكلمة .

لا يوجد فى العالم رأى عام له مثل هذا السلطان على الناس ، وهذا السلطان يسرى على المجال الأدبى والمجال الاجتماعى على حد سواء .

الاسلام ليس بمملكة بالمعنى السياسى لهذه الكلمة ولم يكنها قط حتى فى عهد عظمته الأولى ، ولكنه عقيدة وشريعة ووحدة اجتماعية .

قلنا ليس فى الاسلام طائفة ممتازة أو طائفة مهملة فان مبدأ التعاون الاجتماعى مفروض على الجميع . فكل مؤمن مكلف بدفع زكاة عن أمواله للفقراء لا بوصف أنها صدقة ولكن باعتبار أنها واجب اجتماعى لا محيص عن أدائه . فكل من يملك ما فوق حاجته من المال يجب عليه أن يدفع منه حصة للجماعة لتسد بها حاجة المحتاجين . فقد حتم القرآن على كل مؤمن أن يدفع عشر دخله [1] للفقراء وعابرى السبيل وفى الرقاب الخ

ومن عادات المسلمين أن للسائل حقاً فى طلب المعونة من الذين اعتادوا أن يعطوهم ما يأكلون أو ما يحصلون به عليه فاذا أحجم مسلم عن اعطاء سائليه ما اعتاد اعطاءه لهم رفعوا أمره إلى القاضى فلا يسعه إلا أن يحكم على الغنى بالاستمرار فى عطياته وبدفع ما تأخر منه عنده . وقد دهش

---

(١) يقصد الكاتب الزكاة وهى ربع العشر أى ٢٫٥ فى المائة فى المال ، والعشر ونصف العشر فى الحبوب . ويرجع فى ذلك إلى كتب الفقه .

الفرنسيون من علمهم لهذه العادة عند احتلالهم للجزائر من بلاد الغرب ، وكان الأولى لهم أن يتعلموا منه درساً إنسانياً واجتماعيا (١)

هذا القرآن الكريم الذى جاء بالمبادىء الصحيحة السليمة لكافة البشر والذى أخرج العرب من ظلمات الجهل إلى نور العلم والعرفان ، ومن الوحشية القاسية إلى الرحمة والانسانية السامية ، ومن الشقاق والفرقة إلى الاتحاد والالفة ، ومن البطش والظلم الى الرأفة والعدل ، لا تزال الانسانية تنشد فيه الخلاص من أزماتها وورطاتها . ولا يزال نوره الوضاء يشع فى مجاهل الارض فينقذ الانسان من جهله وشقائه .

لا تزال المبادىء التى ينشدها العالم المضطرب لخلاصه مما هو فيه من البلاء من العدل والرحمة مبينة تبيانا واضحا فى القرآن الكريم فهو يدعو اليها فى صراحة وقوة . كما يدعو الى العلم والتعليم لانارة ذهن الانسان وشق طريقه عن معرفة ونور وبرهان فى الحياة الدنيا وما بعدها من حياة أبدية ، وقد كان من دعوات رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام « اللهم انفعنى بما علمتنى وزدنى علما » استجابة لقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ سورة طه .

قال المسيو (بارتلمى سنتلير) : « ان القرآن قد بقى أجمل أثر للغة التى أنزل بها ، ولم أر ما يشبه ذلك فى جميع أدوار التاريخ الدينى للعالم الانسانى .

---

(١) نقل عن العدد الصادر فى ١٧ ابريل سنة ١٩٣٧ من جريدة لافليش التى تصدر فى باريس بتوقيع مارسيل كابى مترجمة عن مجلة الأزهر مجلد ٥ صحيفة ٢٧٩ .

وهذا الأمر يفسر التأثير العظيم الذى أحدثه هذا الكتاب على العرب الذين اعتقدوا بأن محمداً فى معارفه الساذجة لا يستطيع أن يؤلف بنفسه هذا الكتاب ، وانه لا بد من أن يكون قد أملاه عليه الملك جبريل .

وقد كان محمد يؤكد بأنه يتلقى معارفه عن الملأ الأعلى ، وقد أجمع معاصروه على الاعتراف بأن معارفه الخاصة أصغر من أن تجعله يدرك ويكتب مثل هذه التعاليم العالية الحكيمة المشحون بها هذا القرآن .

تلك التعاليم هى التى رقت عقول الملايين من الناس ، ولا تزال ترقى كل يوم شعوباً متأخرة باشرابها الحقائق الكبرى الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية والاجتماعية والخلقية والبيتية . ولن تمضى سنوات قليلة حتى تصبح افريقا كلها دائنة للاسلام . والمائة والعشرون مليوناً من المسلمين فى آسيا الذين يزدادون كل يوم عدداً لأدلة على حيوية وعظمة ديانة الله (يريد الاسلام)

لم يأت محمد لمكافحة التوراة والانجيل ، فانه يقول بأن هذين الكتابين قد أنزلا من السماء مثل القرآن لهداية الناس إلى الحق . وإن تعاليم القرآن جاءت مصدقة لهما ولكنه لم يأخذ منهما .

وقد رفض جميع الرموز والأساطير ، ودعا إلى عبادة إله واحد قادر رحمن رحيم كما يصفه بذلك فى رأس كل سورة من سوره .

وقد أمر بخمس صلوات فى اليوم ليضطر الانسان للتخلى عن اشتغالاته المادية لحيظات فى اليوم ، ليرتفع فى خلالها إلى مولاه . وأمر أن لا تجعل العبادة موجهة لأغراض ذاتية ، فان الله أعلم بما هو أصلح لنا . وقد أوجب على المسلم أن يتصدق بحصة من إيراده ، وتلك غير الصدقة الاختيارية .

وأوجب حماية المرأة بالاعتراف لها بحقوقها البيتية التى كانت غير معترف بها إلى عهده بمنعه أو بتهذيبه مبـــدأ تعدد الزوجات . وحمى الأطفال بتحريم قتلهم تخلصاً من إعالتهم ، وهى تلك العادة القديمة التى كانت منتشرة . ورعى حق الرقيق فأمر بمعاملته كعضو من الأسرة . وقد كان أول من قرر مبدأ المساواة أمام العدالة بين جميع المسلمين : من أغنى الناس وأقواهم إلى أفقرهم وأضعفهم . وحرم السرقة والقتل والاكراه . ومنع شرب الخمر والميسر .

وقد أعلن محمد (صلى الله عليه وسلم) بأن للانسان حياة مستقبلة فيها عقاب وثواب أبديان ولكن رحمة الله تدع أملا للمذنبين فى أن لا تكون عقوباتهم أبدية .

لقد استهزأ المستهزئون بجنة محمد ، وقالوا عنها أسوأ ما يمكن قوله ، ولكن كل هذه الأحكام الضالة تتلاشى متى قرأ الانسان القرآن .

« ومما هو جدير بالذكر أن المرأة المسلمة تظهر فى تلك الآيات ذات مكانة ، فقد صرح بأنها تشارك زوجها فى دار النعيم »

الى أن قال :

ان الدين الاسلامى قد أحدث رقيا عظيما جداً فى تدرج العاطفة الدينية فقد أطلق العقل الانسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد بين أيدى الكهنة من ذوى الأديان المختلفة ، فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة يجازى فيها على أعماله ، وبإله واحد يمكنه أن يعبـــده ، ويرتفع بروحه اليه دون أن يضطر لتوسيط وسيط .

ثم ان محمداً بتحريمه للصور فى المساجد وكل ما يمثـــل الله ، قد خلص الفكر الانسانى من وثنية القرون الأولى الخشنة ، واضطر العالم بهذه الصورة

أن يرجع إلى نفسه ، وأن يبحث عن الله خالقه فى صميم روحه ، وأن يرتفع اليه عقب ذلك بالعبادة القلبية المملوءة بالاحترام ، والشكر والحب .

إن الناس لم يلتفتوا للترقى العظيم الذى أوجـــده الاسلام من الوجهة الأدبية ، فان ذلك الرقى تحقق بعيداً عنا فى أمم اعتدنا أن نصفهم بالبرابرة ، لأنهم ليس لديهم مثل أفكارنا ولا عقـائدنا ، ولأنهم متأخرون عنـا من الوجهة العلمية والعقلية . ولكن مع هذا كله يجب الاعتراف بأن هذه الحركة الدينية قد ساعدت وتساعد كل يوم لإنارة عقول أمم .

والاسلام الخالص من كل التعاليم الخاصة بالشعوب الطفلة ، ومن كل الشروح الضالة لأقوال النبى ، يظهر لنـــا أنه أعظم ما يدركه الانسان عن العلاقات التى يجب أن توجد بين الانسان وخالقه ، وأكثرها انطباقاً بين الطبيعة والمنطق (١) .

* * *

النظم الاسلامية لرقى الفرد والجماعة وضعت على أسس علمية صحيحة ، فالبحث والتفكير والبرهان والدليل قد نادى بها القرآن ليرقى بالفكر الانسانى ويخلصه من ظلمة التقليد الأعمى ويزكى نفسه عن اقتناع وعقيدة سليمة لا يشوبها شك وترى ذلك فى اثبات وحدانية الله تعالى وصحة الرسالة وما جاءت به وقد دعا القرآن إلى العلم والاستشهاد به ومعنى ذلك قيام الحجة والبرهان من أصحاب المعرفة المطلقة من قيود الهوى والتقليد ، يقول تعالى :

---

(١) منقولة عن مجلة الأزهر المجلد الرابع صحيفة ٣٦٤ وما بعدها .

﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ والملائكةُ وأُولوا العلمِ قائماً بالقسطِ لا إِلٰهَ إلا هُوَ ﴾ ويقول : ﴿ ومَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فإنَّما حسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ ويقول تعالى رداً على المشركين الذين قالوا ﴿ لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ ﴾ فيقول تعالى : ﴿ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ . سورة الانعام .

ولقد كان لدعوة القرآن للعلم فى نفوس المسلمين الأول أثر بالغ شحذ منهم الهمم ، ودفعهم إلى البحث والتنقيب مما جعلهم أئمة يهتدى بهديهم لا فى الناحية الدينية والأدبية فحسب بل فى مجالات العلم الأخرى مما جعلهم أساتذة لا لمن سبقوهم من الفرس والروم فحسب بل وأساتذة لأوروبا .

قال العلامة « سديو » فى كتابه « تاريخ العرب » : « كان المسلمون فى القرون الوسطى منفردين فى العلم والفلسفة والفنون والصنائع وقد نشروها أينما حلت أقدامهم وتسربت عنهم إلى أوروبا فكانوا سبباً لنهضتها وارتقائها »

خطب الأستاذ فارس بك الخورى الوزير الأسبق ورئيس مجلس النواب السورى ومن كبار أساتذة كلية الحقوق وكان مما قاله فى خطبته : « . . . ان الدين الذى جاء به محمد أوفى الأديان وأكملها ، وان محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون الا الاعتراف بفضل الشريعة التى دعا الناس اليها باسم الله

وبأنها متفقة مع العلم ، مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية . . .

« إن محمداً الذى تحتفلون به وتكرمون ذكراه أعظم عظماء الارض سابقهم ولاحقهم فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم ، وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها [١] »

وقال الكاتب الانجليزى الذائع الصيت برنارد شو :

« لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامى لسبب حيويته المدهشة ، فهو حائز لأهليـــة وهضم الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل جيل »

« وإنى أعتقد أنه لو تولى رجل مثل محمد ديكتاتورية الدنيا الحديثة لنجح فى حل مشاكلها بأسلوب يجلب لها السلام والسعادة اللذين يعوزانها كثيراً » .

وقال أحد المفكرين الفرنسيين المنصفين المسيو دينيه :

« إن الاسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس . فهو صالح لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات »

فما بال المسلمين اليوم قد جمدوا ، والقرآن هو القرآن لم يطرأ عليـــه تبديل ولا تغيير . ومبادئه حية لم تبل بعد . تنشد الانسانية فيه القيام من كبوتها وإقالتها من عثرتها . ولن يكون للمسلمين عز ولا سلطان إلا بالرجوع الى

---

(١) مجلة الفتح العدد ٧٨٣ فى ٩ ربيع الأول سنة ١٣٦١ (٢٦ مارس سنة ١٩٤٢) .

قرآنهم ، والاخلاص فى العلم والعمل بما جاء به مع الاعتماد على ربهم وعلى أنفسهم .

وسنبين فى هذه العجالة أن دعوة القرآن للاصلاح قائمة على أصلين ثابتين

(١) علم صحيح .

(٢) عمل منتج لخير الجميع .

والعلم يتناول كل وجوه الصواب والحق فى كل شىء فى الأقوال والأفعال

والعمل يتنـــاول كل ضروب الخير والبر لبنى الانسان على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم .

والعلم والعمل لا يؤديان رسالتهما على الوجه الأكمل الا اذا كان عليهما حارس من الدين القويم والخلق المستقيم . وهـذه هى مهمة القرآن ورسالة الاسلام . والله نسأل أن يهدينا بهدايته ويتولانا برعايته ويسـدد خطانا الى طريقـه المستقيم طريق الذين أنعم عليهم من النبيين والصـديقين والشـهداء والصالحين .

الاسلام والاصلاح

١ ـ أسباب ضعف المسلمين:

ا ـ دعوة الاسلام إلى الاصلاح والعمل لخير الجميع

ب ـ دعوة الاسلام إلى حرية الفكر والعلم

حـ ـ دعوة الاسلام إلى التسامح وارتباط الانسانية بعضها ببعض.

١ ـ أسباب ضعف المسلمين :

إن ما أصاب الأمم الاسلامية فى حياتها الاجتماعية من الخلل والانحلال وما طرأ عليها من الضعف والوهن ، يدعو كل مفكر إلى تعرف الأسباب والبحث عن أنجع الوسائل لعلاج هذه الحالة قبل استفحال الأمر وفوات الفرص .

يرجع ما نحن عليه معشر المسلمين من فوضى الاخلاق إلى أسباب عـدة ، أهمها :

ا ـ الجهل المنتشر

ب ـ تقليدنا لسيئات المدنية الغربية

حـ ـ إهمال الفئة المتعلمة منا لواجباتها نحو محاربة البدع والضلالات التى سرت فى جسم الأمة سريان الحمى فى جسم المريض دون أن تجد أدنى مقاومة .

وتدهورنا الخلقي له مظهر بارز من اسم التجديد الذى أصبح سلاحاً فى يد الضعفاء والاغرار يدرأون به الشبهة عما يأتونه من منكرات ، وما يذيعونه من سموم الالحاد ، متنكرين للفضيلة التى هى قوام الأمة وأساس تقدمها الاجتماعى والاقتصادى . فباسم التجديد أعلن الحرب على العائلة فتفككت أواصرها فضعف سلطان الآباء على الأبناء وكل تخذ إلهه هواه فضل سعيه : فالولد اباحى ، والبنت خلعت برقع الحياء ، وكلاهما يتعثر فى مخزيات اثر مخزيات يندى منها جبين الفضيلة . فلا هؤلاء المجددون لحقوا بمصاف من قلدوهم من الغربيين ، ولا هم أبقوا على شخصيتهم وكرامتهم القومية .

إذا انهدمت الأسرة فقد انهارت أركان الأمة من أساسها ، وأصبحت مستباحة الذمار . وقد قالت الحكماء : « إذا تداعت أخلاق الأمة عاجلها الفناء » وأجمع الباحثون فى نهضات الأمة وتقدمها على أنه « لا بقاء للحضارة من دون أخلاق »

فاذا كنا نريد حقا أن نكون فى مصاف الشعوب الراقية ، فعلينا أن نسلك الطريق القويم الذى دلت عليه تجارب الماضى ومشاهدات الحاضر . قال الاستاذ الدكتور غستاف لوبون « تعلو حضارة الأمة بقدر تمكنها من ضبط نفسها ، أعنى بقدر ثبات أخلاقها ورسوخها » . « وليست نواميس الاخلاق أموراً فرضية ولكنها ضروريات لازمة »

« يتكون الخلق من اجتماع بعض العناصر المخصوصة وامتزاج بعضها ببعض تلك العناصر هى التى جرى علماء النفس فى هذا العصر على تسميتها بالمشاعر ، وأهم المشاعر فى تكوين الخلق المثابرة وقوة العزيمة والقدرة على حكم النفس ، وكلها ملكات راجعة إلى الارادة . ونذكر أيضا من تلك العوامل الاساسية الأدب إن كان هو فينا خلاصة مشاعر مختلفة ، ونريد

بالأدب ذلك الاحترام الوراثى للنواميس التى تقوم عليها حياة الأمة ، فمعنى أن الأمة ذات أدب أن لها قواعد تسير عليها . . . والأدب ابن الخلق فهو لا يثبت إلا إذا صار وراثيا ، أعنى غير تنبهى . وعظمة الأمة تابعة على وجه العموم لدرجة ارتقاء الآداب فيها »

وعندنا أنه ليس هناك دواء ناجع لبرئنا مما نحن فيه من علل وأمراض إلا التمسك بمبادىء الاسلام والرجوع إلى (القرآن الكريم) وهو خير كتاب يدعو إلى جماع الفضائل فى أعلى مراتبها فهو جدير بحق أن يكون أساسا ومرشداً ومرجعا لنهضتنا الخلقية التى بدونها لا تصلح أى نهضة أخرى : اجتماعية كانت أو اقتصادية أو غيرها .

وإذا كنا ندعو إلى التخلق بأخلاق الله وآدابه فى كتابه العزيز فذلك لاسباب أهمها :

ا — أن أدب القرآن مؤسس على الدعوة إلى الاصلاح والعمل لخير الجميع .

ب — أدب القرآن قائم على حرية العلم والفكر وهما أساس النهضة الصحيحة .

حـ — أدب القرآن يدعو إلى التسامح وارتباط الانسانية بعضها ببعض فهو ليس دين أمة وإنما هو دين عالمى إنسانى يسعى لتعميم الخير ونشر الأمن والسلام فى العالم .

ا — إن المتصفح للقرآن الكريم لا يرى آية من آيات الله عز وجل تدعو إلى الايمان به إلا ومعها دعوة إلى ما يجب أن يكون عليه الايمان من الصفات والاخلاق أو دعوة إلى الاصلاح ، فهو من هذه الناحية لم يقتصر

على سعادة الآخرة بل هو دين جد وعمل فى هذه الحياة أيضا : لتتدبر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذِى القُرْبَى ويَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ ﴾ (سورة النحل) . وما وصف به المؤمنين وما يجب أن يكونوا عليه ﴿ وعِبادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وإذا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً . والَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقِياماً . والذين إذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَواماً . والذين لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التى حَرَّمَ اللهُ إلَّا بالحَقِّ ولا يَزْنُونَ ومَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثاماً يُضاعَفْ له العذابُ يَوْمَ القيامةِ ويَخْلُدْ فيه مُهاناً . إلَّا مَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّآتِهِمْ حَسَناتٍ وكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً . ومَنْ تابَ وعَمِلَ صالِحاً فإنَّهُ يَتُوبُ إلَى اللهِ مَتاباً . والذينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وإذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً . والذين إذا ذُكِّرُوا بآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمّاً وعُمْياناً ﴾ (سورة الفرقان)

فالمؤمن حسب هذه الآية هو الرجل المتواضع فى غير ذلة والمعرض عن السفاسف والترهات ، المجاهد نفسه فى سبيل رقيها بعبادة الله ومراقبته ،

المقتصد فى عمله وماله ، المحترم لحقوق غيره ، غير قاتل ولا زان . وإذا أخطأ تاب وشرط التوبة عدم الرجوع إلى ما فعل وسلوك سبيل الاصلاح كما لا يشهد الزور . وأن يكون من صفاته أيضا البحث والتفكير فى صنع الله .

وقد حث الله تعالى فى مواضع كثيرة على العمل للاصلاح والدعوة اليه ومنه قوله تعالى : ﴿ ومَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وقال إِنَّنِي مِنَ المسلمين ﴾ (سورة فصلت) . ﴿ وما أَمْوَالُكُمْ ولا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ (سورة سبأ)

إن الوسيلة الناجعة لسعادة الانسان وسيادته فى الدنيا والآخرة هى السعى للعمل الصالح والنافع أينما وجد وأينما حل قال تعالى ﴿ إِنَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ (سورة القيمة) . ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف) . فالله سبحانه وتعالى يريد أن يكون الانسان محبا لخير الناس وعاملا لما فيه نفعهم وصلاحهم . وإذا ذكرنا الاصلاح ذكرنا التجديد المشروع القائم على الحاجة لأن لكل زمان ومكان شروطا خاصة ولذلك فان باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه لمن بلغ مرتبته .

وقد أجمع فقهاء الاسلام على أن ما يلزم للأمة من الحاجيات التى لا يقوم

كيانها ولا يرتفع شأنها إلا بها هى من فروض الكفاية التى تلزم الأمة بأسرها ما لم يقم بها بعض أفرادها. لأن طبيعة الدين الاسلامى تأمر بالأخذ بأسباب أهله بالقوة والعزة كما يأبى على معتنقيه الذلة والمسكنة والتأخر. ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة المنافقين). ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ (سورة لقمان). ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (سورة الشورى)

أمر القرآن فى مواضع كثيرة بالأخذ بالعفو طلبا لسلام النفوس وطمأنينتها فقال تعالى: ﴿ وَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (سورة البقرة). ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (سورة الشورى). ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (سورة البقرة)

ب — قلنا ان أساس معتقدات القرآن الكريم سواء من ناحية الايمان أو من ناحية الاصلاح قائمة على حرية الفكر والعلم وقد جرى فيهما شوطا لا يلحق فيه غباره فقال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ (سورة العنكبوت). ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة آل عمران).

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذا القُرآنَ على جَبَلٍ لَرَأَيْتَه خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ الله وتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون ﴾ (سورة الحشر) كما وردت أيضا الأحاديث الكثيرة حاثة على طلب العلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم « طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِم » « أُطْلُبُ العِلْمَ وَلَو بالصين » وقال « يُوزَنُ يَومَ القيامة مِدادُ العُلَماء بِدَمِ الشُّهداء » ، « فَضْلُ العلم خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ العبادة »

وقد أنصف العلامة المسيو « كازانوفا » أحد كبار أساتذة كوليج دو فرانس بباريس حيث يقول « يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا وهضم أفكارنا ، يعتقدون ذلك وينسون أن نبي الاسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة . فأي رئيس ديني كبير وأي قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول الفاصل المتين . هذا القول هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة .

نعم إن هذا مبدؤنا اليوم ولكن أليس العهد بقريب يوم كانت الكافة عندنا من أهل العقول تنظر إلى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار ومجلبة الشنار

كما أنه سوف يقال إن أوضح مبادىء الحرية الفكرية قد كسفت أمثال « لوثير » و « كالفين » وعاد الفضل فيها إلى رجل عربي من رجال القرن السابع ، ذلك هو صاحب شريعة الاسلام .

وقد ألف الأستاذ الدكتور هورتن وهو من علماء الألمان عدة كتب دافع فيها عن الاسلام ومنها كتاب « استعداد الاسلام لقبول الثقافة

الروحية ، جاء فيه « تجد بالاسلام اتحاد الدين والعلم . وهو الدين الوحيد الذى يوحد بين هذين وتجد كيف ان الدين موضوع بدائرة العلم وترى وجهة الفيلسوف ووجهة الفقيه متماشيتين معا وهما واحدة . وواقفتان كتفا لكتف دون نزاع .

حـ — حرية الفكرة وحرية العلم تستلزمان بطبيعتهما حرية البحث والمناقشة وقد سلك القرآن فى هذا السبيل أقوم الطرق وأجداها . ودعا إلى الحق بالحسنى فى هوادة ورفق وأدب جم ولين فى غير ضعف فقال تعالى : ﴿ أُدْعُ إلىٰ سبيل رَبِّكَ بالحكمة والمَوْعظَة الحسنَة وجادلْهُم بالّتى هىَ أحْسَن ﴾ (سورة النحل) ﴿ ولا تَسْتوى الحسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ادْفَع بالّتى هىَ أحْسَن فاذا الذى بَيْنَكَ وبَيْنَه عداوَةٌ كأَنَّه وَلِىٌّ حَمِيم ﴾ (سورة فصلت) ﴿ وقُلْ الحقُّ مِنْ رَبِّكم فَمَن شاءَ فَلْيُؤْمِنْ ومَنْ شاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ (سورة الكهف) ﴿ فَذَكِّر إنَّما أنْتَ مُذَكِّر ، لَسْتَ عَليهم بمُسَيْطِر ﴾ (سورة الغاشية) ﴿ فانَّما عَليكَ البَلاغُ وعَلَيْنا الحسابُ ﴾ (سورة الرعد) .

بمثل هذه الوسائل التى بلغت ذروة الرقى أراد الاسلام أن يحل بين المسلمين وغير المسلمين الوئام والسلام وأن يتبادلوا المنافع عن طريق الحرية الصحيحة والعدل والرحمة ﴿ يا أَيُّها الناسُ إنَّا خَلَقْناكم مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثىٰ

وجَعَلْناكم شُعوبا وقبائلَ لتعارَفُوا إنَّ أكْرَمكم عندَ اللهِ أتْقاكم ﴾ (سورة الحجرات) ﴿ لا يَنْهاكمُ اللهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقاتلوكمْ فى الدِّين ولَمْ يُخرجوكم مِنْ دياركمْ أنْ تَبرُّوهم وتُقْسطوا إليْهم إنَّ اللهَ يُحبُّ المُقْسطين ﴾ (سورة الممتحنة) ﴿ وتَعاونوا علَى البرِّ والتقْوَى ولا تَعاوَنوا علَى الإثْم والعُدْوان ﴾ (سورة المائدة - ٢)

خطب سعيد بن سويد بحمص قال : « يا أيها الناس إن الاسلام حائط منيع وباب وثيق ، فحائط الاسلام الحق وبابه العدل ، ولا يزال الاسلام ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط ولكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل »

بعد هذا نسأل المتمردين على الدين فى هوادة ورفق : ما الذى حدا بكم إلى نبذ هذا الدين والخروج عليه ورميه بكل المثالب والمطاعن ؟ إن كنتم تتخذون حالة المسلمين اليوم من وهن وضعف وجمود حجة على الدين فوالله ما أنصفتم فى الحكم ! ! كان يجب عليكم أن تعرضوا حال المسلمين على كتاب الله وتطبقوا ما وضعه من القواعد والقوانين عليهم ليظهر لكم الفارق الكبير وإن الكثير من المسلمين لا يحملون من الدين إلا اسمه ، فهم كما يقول بعض الناس مسلمون جغرافيون . لأن طبيعة الاسلام كما قدمنا التفكير والعمل الصالح والتخلق بأخلاق الله فهل المسلمون ملتزمون هذه الصفات ؟ ؟ إذن ليس جمود المسلمين إلا من عدم اتباعهم للدين الصحيح وتمسكهم بالخزعبلات

والضلالات التى ليست من الدين فى شىء والتى قضت عليهم بالذل والا
والتأخر . وها هو القرآن الكريم بين أيدينا وهو الكتاب الذى لا يا
الباطل حجة على ما نقول.

لم يحل الاسلام بين المسلمين ورقيهم واعزازهم ، وفى ماضيه منذ
الخلفاء الراشدين أكبر شاهد ، وإنما الذى وقف فى سبيل المسلمين هو جه
بكتاب الله وسنة رسوله . لأن الاسلام سهل مرن صالح لكل زمان ومك
لا يتمرد على الطبيعة ولا يقف حجر عثرة فى سبيل التقدم والحضارة الح
بل على النقيض من ذلك يدفع بمعتنقيه إلى أن يتبوأوا ذروة المجد ليكونو
مصاف أرقى الأمم حضارة ومدنية .

قال أحد المفكرين الفرنسيين المنصفين المسيو دينيه يصف طبيعة الا
« لا يتمرد الاسلام على الطبيعة التى لا تغلب ، وإنما هو يساير قوا
ويزامل أزمانها »

على أن الاسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة وأن لا يتمرد عليها ، و
هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولا وأسهل تطبيقاً فى إصلاح ون
ورضاء ميسور مشكور حتى لقد سمى القرآن (بالهدى) لأنه المرشد إلى أق
مسالك الحياة ولأنه الدال على حسن مقاصد الخير .

وقال الدكتور هورتن الألمانى « لا تجد بالاسلام سداً يمنع نفوذ الثقا
الغربية اليه ، بل نرى أن له استعداداً غير محدود لقبول الثقافة »

أساس الاصلاح الذى ندعو اليه جميع المسلمين فى مشارق الأرض
ومغاربها هو أن يكون القرآن الكريم قبلتهم للتخلق بأخلاقه ، وأن يأخذ
ما يصلح لهم من وسائل المدنية الغربية الحديثة وغيرها فى الصناعة والتجا

الزراعة والعلوم والمعارف ما يرقى شأنهم ويعلى قدرهم ويحفظ مجدهم ويبقى
قهم على استقلالهم وحريتهم .

وسنبين فيما بعد كيف أن القرآن الكريم قد دعا لتعلم العلوم وهدى إلى
ريقها وللحرية الفكرية فى أوسع مناطقها وللعمل للخير العام والمنافع العامة
كانت دعوة الاسلام فى ذلك قوية متينة حتى أتت بأكبر النتائج وأحسن
يار بما شهد به التاريخ ورجاله من العلماء المبرزين غربيين وغير غربيين
أن الدين الاسلامى أصبح ضرورة للأخذ بتعاليم قرآنه وسنة رسوله عليه
سلام وأقوال أئمتـــه والمصلحين رضى الله عنهم حتى يأمن المسلمون
شرات الأدبية والروحية ويخطون نحو التقدم والرقى بخطوات متأدة ثابتة
رتفع شأنهم ويعود اليهم عزهم ويؤدوا ما عليهم من واجبات نحو الانسانية
امة يعملون لخيرها ويحمون أنفسهم من شرها هدانا الله إلى ما فيه الصواب

آيات العلم

لنبي الاسلام محمد عليه السلام

— ١ —

محمد النبي الأمي هو أول من حارب الأمية :

فتوحات الإسلام لمغاليق العلوم وأثر ذلك فى تقدم الإنسانية

إن الآيات الأولى التى نزلت على نبى الاسلام محمد عليه السلام قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْأِنسانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْأِنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (سورة العلق)

قالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : أول ما بدىء به صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث (وهو التعبد) الليالى ذات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارىء قال فأخذنى فغطنى (أى ضمنى وعصرنى) حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال إقرأ فقلت ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ﴾ فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال زملونى زملونى (أى لففونى) فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسى. فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الانجيل ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخاً كبيراً قد عمى. فقالت خديجة: يا ابن عم إسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة بن نوفل: يا ابن أخى ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزل الله على موسى يا ليتنى فيها جذعاً (فتى قوياً) ليتنى فيها حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجى هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة ان توفى وفتر الوحى (رواه البخارى)

قال بعض المفسرين إن المراد من (اقرأ) أى اقرأ القرآن إذ القراءة لا تستعمل إلا فيه قال تعالى «فاذا قرأناه فاتبع قرآنه». وقال «وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستوراً» و(باسم ربك) المعنى اقرأ القرآن مستعيناً باسم ربك. وتحقيقه أنه لما قال له اقرأ

قال لست بقارىء فقال (اقرأ باسم ربك) أى استعن باسم ربك واتخذه عوناً فى تحصيل هذا الذى عسر عليك (الذى خلق) أى الذى خلق كل شىء ثم بعد التعميم أخذ يخص الانسان بالذكر لشرفه وللدلالة على وجوب العبادة شكراً على نعمة الخلق فقال (خلق الانسان من علق) جمع علقة : أى دم عبيط كما نقل ابن عباس رضى الله عنهما (اقرأ وربك الأكرم) وكيف لا يكون أكرم وهو قد علم عباده ما لم يعلموه . ونقلهم من ظلمة الجهالة إلى نور العلم فقال (الذى علم) الكتابة (بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم) فهذا هو وجه كونه أكرم فى حق العبد . فهو إذ خلقه كريم وإذ علمه فهو أكرم ، لأنه أعطاه فضلا على فضل ، ونوراً على نور . فهـذه زيادة فى الكرم . ولعمرك لو لا القلم ما حفظت العلوم .

إن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه أولا بأنه خلق الإنسان من علق ، وثانياً بأنه الذى علم بالقلم ولا مناسبة فى الظاهر بين الأمرين ، ولكن التحقيق ان أول أحوال الإنسان كونه علقة وهى أخس الأشياء وآخر صيرورته عالماً بحقائق الأشياء وهو أشرف مراتب المخلوقات ، فكأنه يقول انتقلت من أخس المراتب إلى أعلى المراتب ، فلا بد من مدبر مقدر ينقلك من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة الشريفة . ثم فيه تنبيه على أن العلم أشرف الصفات الإنسانية كأنه تعالى يقول : الايجاد والأحياء والأقدار والرزق كرم وربوبية ، أما الأكرم فهو الذى أعطاك العلم ، لأن العلم هو النهاية فى الشرف .

والمراد من القلم أى علم الانسان الكتابة بالقلم وهذا تنبيه على فضيلة الكتابة وأنها وسيلة العلم وحصره ونشره ودعوة إلى الاهتمام بأمرها لأنها

رسول التعارف بين الأفراد والأمم .

يروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتاً عن الكلام ؟ فقال ريح لا يبقى . قال فما قيده ؟ قال الكتابة . فالقلم صياد يصيد العلوم يبكى ويضحك بركوعه تسجد الأنام وبحركته تبقى العلوم على مر الليالى والأيام (١)

وإذا كانت الكتابة وسيلة لقيد العلوم ، وانتشار المعارف بين الناس فى مشارق الأرض ومغاربها فهى أيضاً برهان صدق لحفظ الحقوق والمعاملات بين الناس وقد أمر بها القرآن الكريم فقال تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا إذا تَداينْتُم بِدَيْنٍ إلى أجَلٍ مُسمًّى فاكْتبوه وليكْتُب بَيْنَكُم كاتبٌ بالعَدْل ولا يأبَ كاتبٌ أنْ يكْتُبَ كما عَلَّمه الله فليكْتب وليُمْلل الذى عليه الحقُّ وَلْيتَّق الله رَبَّه ولا يبْخَسْ منْهُ شَيْئاً فانْ كان الذى عَلَيْه الحقُّ سَفيهاً اوْ ضَعيفاً أو لا يَسْتطيعُ أنْ يُمِلَّ هو فَلْيُمْلل وَلِيُّه بالعَدْل واسْتَشْهدوا شَهيدَيْن منْ رجالكم فانْ لمْ يكونا رَجُلَيْن فرَجُلٌ وامْرأتان ممَّنْ تَرْضَوْن منْ الشُّهداء انْ تَضلَّ إحْداهُما فتُذكِّر إحْداهُما الأخْرى ولا يأبَ الشُّهداء إذا ما دُعوا ولا تَسْئموا أنْ تكْتُبوه صَغيراً أوْ كبيراً إلى أجَله ذلكُم اقْسطُ عنْدَ الله وأقْومُ للشَّهادة وأدْنى ألَّا ترْتابوا إلا أن تكونَ تجارةً حاضرةً تُديرُونها بَيْنكُم

(١) تفسير الفخر الرازى الجزء الثامن ص ٤٦٣

فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا . وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (سورة البقرة)

ذهب بعض الناس إلى أن كتب الديون واجب على أربابها فرض بهذه الآية بيعاً كان أو قرضاً لئلا يقع فيه نسيان أو جحود وهو اختيار الطبرى . وقال ابن جريج : من أدان فليكتب ومن باع فليشهد . وقال الجمهور : الأمر بالكتب ندب إلى حفظ الأموال وإزالة الريب . وإذا كان الغريم تقياً فما يضره الكتاب وإن كان غير ذلك فالكتاب ثقاف فى دينه وحاجة صاحب الحق . قال بعضهم : إن أشهدت فحزم ، وإن ائتمنت فقى حل وسعة ، ابن عطية : وهذا هو القول الصحيح ولا يترتب نسخ فى هذا لأن الله تعالى ندب إلى الكتابة فيما للمرء أن يهبه أو يتركه باجماع . فندبه إنما على جهة الحيطة للناس (١)

فالقرآن الكريم وضع أكبر دعائم الاصلاح فى الآيات الأولى التى أنزلت على صاحب الدعوة ، والتى بها يكون نشر الثقافة الاسلامية ألا وهى القراءة والكتابة . وفى هذا بيان وتذكير لكافة المسلمين رجالا ونساء فى مشارق الأرض ومغاربها أن يتعلموا القراءة والكتابة ليستطيعوا أن يتعلموا ويدرسوا القرآن وهو مشتق من القراءة ، وأن يعملوا بما جاء به من أوامر

---

(١) الجامع لأحكام القرآن لأبى محمد عبد الله بن أحمد الأنصارى القرطبى جزء ثالث ص ٣٨٣

ونواه . قال تعالى : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاه . لتقرأه على مُكْث وَنَزَّلْنَاه تَنْزِيلا ﴾ (سورة الاسراء) . والمعنى أن هذا القرآن (فرقناه) نزلناه مفرقاً فى عشرين أو ثلاث وعشرين سنة (لتقرأه) على الناس (على مكث) مهل وتؤدة ليفهموه (ونزلناه تنزيلا) شيئاً بعد شيء على حسب المصالح .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ (يسافرون) يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ (يطلبون من رزقه بالتجارة وغيرها) وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ (سورة المزمل)

إن الآيات الأولى التى نزلت على نبى الاسلام عليه السلام تخبرنا فى عبارة واضحة على أن رسالة القرآن هى الهداية القائمة على أساس العلم والنظر الصحيح لأن فيها دعوة صريحة إلى ما يأتى :

(١) تعلم القراءة والكتابة وهما مفتاحا العلم وأداته .

(٢) إن الله العالم القدير قد خلق الانسان وأعده للعلم ورسالته وبين

أنه خلق الانسان من علقة لا ترى بالعين المجردة ثم سواه إنساناً كاملا على أن يخلف الله فى أرضه ويسخر ما فى الكون لنفسه ، ولكن بأى يتعلم ؟

داة العلم فى الانسان هى السمع والبصر والفؤاد وقد ذكرها القرآن فى ـ من موضع فى معرض المنة فقال تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون تكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم ون ﴾ (سورة النحل) . وكأنه يقول تعالى لنا إذا كنتم خرجتم نيا جهلاء لا تعرفون شيئاً فيها فانى سلحتكم بأدوات المعرفة وهى فى م وأجسامكم من السمع الذى به تتلقون العلم والمعرفة عمن هو أعلم ، والبصر الذى تشاهدون به وبه تميزون الأشياء ، والفؤاد الذى لون .

إذا عطل الانسان هذه الأداة واستعملها فى غير موضعها وأرسلها لقضاء ه وغفل عن العلم وهدايته كان فى مصاف البهائم وخسر الدنيا والآخرة الى : ﴿ ولقد ذرأنا (خلقنا) لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (سورة الاعراف)

ـ على رضى الله عنه : الناظر بالقلب العامل بالبصر يكون مبتدأ عمله

أن يعلم : أعمله عليه أم له ؟ فان كان له مضى فيه وإن كان عليه وقف عنه العامل بغير علم كسائر فى غير طريق فلا يزيده بعده عن الطريق إلا بعد حاجته . والعامل بالعلم كسائر على الطريق الواضح (١)

إذا كان آدم عليه السلام علمه الله تعالى الاسماء كلها فنبى الاسلام الصلاة والسلام أرشده تعالى إلى مفاتيح هـذه العلوم من النظر والـ والتفكير والتجربة ، وذلك عن طريق السمع والبصر والفؤاد ، يعينه ذلك القراءة والكتابة . وليس للعلم إلا طريقان : إما النقل عن الغير ، البحث والتجربة ، وطريقهما المشاهدة والتفكير. وهذا أول فتوحات الا لمغاليق العلوم . والاسلام هو الذى رفع طابع الأمية عن العرب وغيره يدينون به لطلب العلم دفعاً لا هوادة فيه . وقد بدأ النبى صلى الله عليه برفع هذا الطابع بعمل لم يسجل مثله لمصلح فى الأرض . وذلك أنه فداء الأسير الذى كان يعرف القراءة والكتابة فى وقعـة بدر وهى الوقائع الاسلامية ان يعلمها نفراً من المسلمين ففعل.

وكان من أثر ذلك أن نهض المسلمون باحثين ومنقبين عن واستخدامه لرقيهم . فترجموا الكتب النافعة لمن سبقهم من العلماء واكتـ واخترعوا وكان لهم الأثر المحمود فى النهضة العلمية وذلك كله بفضل الاسلام ودعوة القرآن الصريحة الواضحة فى طلب العلم فى جميع آفاق الصالحة لخير بنى الانسان .

---

(١) نهج البلاغة ص ٢٩٨

قال العلامة درابر فى كتابه المنازعة بين العلم والدين : إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ ميلادية أى بعد موت محمد صلى الله عليه وسلم بست سنين ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى كانوا مستأنسين بجميع الكتب العلمية اليونانية ومقدريها قدرها الصحيح . . إلى أن قال ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج الحركة العلمية العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب فانهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً وأوجدوا علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم (١)

---

(١) عن مجلة الأزهر . المجلد الرابع ص ٣٥٥

— ٢ —

القراءة والكتابة

وأثرهما فى النهضة العلمية

قال الله تعالى : ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾

هـذه وما بعدها نزلت بعد آيات العلق . و ن تطلق على الدواة قال الشاعر :

إذا ما الشوق برح بى إليهم ألقت النون بالدمع السجام

و ن يطلق على الحوت . وفى بعض الحيتـان مادة تصلح للكتابة . (والقلم) وهو كل ما يخط به (وما يسطرون) وما يكتبون . أقسم الله بالدواة وبالقلم وبكل ما يكتب فتحاً لباب التعليم العام بالقلم والكتابة .

قال ابن عباس : أول ما خلق الله القلم ثم قال له اكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة . فجرى بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة من الآجال والأعمال . والمراد من هذا أنه تعالى أجراه بكل ما يكون وهو كقوله : ﴿ إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون ﴾ فانه ليس هناك أمر ولا تكليف بل مجرد نفاذ القدرة فى المقدور من غير منازعة ولا مدافعة (١)

---

(١) الفخر الرازى ج ٨ ص ١٩٤

إن العلم الصحيح لا يقوم إلا على الاحصاء الدقيق من التجربة والمشاهدة التى لا يعتريها شك . وقد وضعت الكتابة لتكون البرهان لصحة تدوين الحوادث ، وأن الله سبحانه وتعالى يذكر الانسان بأنه سيحصى عليه أعماله وأقواله ليجزيه عليها الجزاء الأوفى فى الدنيا والآخرة وأنه سيوكل به رقباء سريين يدونون ما يقول وما يعمل . قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَاماً كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (سوره الانفطار)

والمعنى أن ملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (حاضر) . وقوله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾

إن الله تعالى أجرى أموره مع عباده على ما يتعاملون به فيما بينهم لأن ذلك أبلغ فى تقرير المعنى عندهم . ولما كان الأبلغ عندهم فى المحاسبة اخراج كتاب بشهود خوطبوا بمثل هذا فيما يحاسبون به يوم القيامة ، فيخرج لهم كتب منشورة ، ويحضر هناك ملائكة يشهدون عليهم كما يشهد عدول السلطان على من يعصيه ويخالف أمره . فيقولون له أعطاك الملك كذا وكذا ، فعل بك كذا وكذا ، ثم قد خالفته وفعلت كذا وكذا .

وصف الله الملائكة بصفات (أولها) كونهم حافظين (وثانيها) كونهم كراماً (وثالثها) كونهم كاتبين (ورابعها) كونهم يعلمون ما تفعلون . وفيه وجهان : (أحدهما) أنهم يعلمون تلك الأفعال حتى يمكنهم أن يكتبوها

وهذا تنبيه على أن الانسان لا يجوز له الشهادة إلا بعد العلم . (والثانى) أنهم يكتبونها حتى يكونوا عالمين بها عند أداء الشهادة ، وإن وصف الله تعالى إياهم بهذه الصفات الخمس يدل على أنه تعالى أثنى عليهم وعظم شأنهم ، وفى تعظيمهم تعظيم لأمر الجزاء (١)

إن هذه الآيات الأولى التى نزلت وما تلاها من القسم بالقلم والكتابة تشريف لشأنهما وعلو منزلتهما وتنبيه وتذكير على أن واجب كل مسلم أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه ربه ، وأن الأمر جد خطير ، وأن الانسان لا يحاسب على أعماله فحسب ، وإنما يحاسب أيضاً على نتائج أعماله وآثارها بعد موته وأن الله تعالى يحصيها عليه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ (سورة يس) . فمن ترك بعد موته من المؤلفات العلمية المفيدة ، والصدقات الجارية كبناء المدارس والمستشفيات والملاجىء والمعاهد العلمية لرقى الأمة كل ذلك يكتب فى صحيفة الانسان بعد رحيله من الدنيا ما بقيت هذه الآثار

وكذلك إذا ترك الانسان بعد موته مخلفات سيئة كناد للقمار أو كتاب زندقة والحاد أو فكرة ضالة غاوية روجها وحسنها واعتنقها بعض ضعاف العقول أو فاسدى الأخلاق فكل نتائج هذه الأعمال تكتب وترصد فى صحيفته بعد موته حتى تنتهى وتزول . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ومن سن فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من

---

(١) ص ٣٧٢ و ٣٧٣

عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » . رواه مسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » . رواه مسلم

فالقلم الذى أقسم به الله تعالى فيه انذار وتبشير لانه سيكون أداة لتسجيل الأعمال والأقوال ، ولذلك وجب على كل مكلف أن يحفظ سمعه وبصره وفؤاده من العبث واللهو وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (سورة الاسراء) . كما يجب أن يحفظ الانسان لسانه عن جميع الكلام إلا ما ظهرت فيه المصلحة ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة فالسنة الامساك عنه لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه وذلك كثير فى العادة والسلامة لا يعدلها شيء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » رواه البخارى ومسلم . وهذا صريح فى أنه ينبغى أن لا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً وهو الذى ظهرت مصلحته ، ومتى شك فى ظهور المصلحة فلا يتكلم . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » ومعنى يتبين يفكر أنها خير أم لا . رواه البخارى ومسلم . وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقى بها بالا يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى بها بالا يهوى بها فى جهنم » رواه البخارى .

وعن معاذ رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يارسول الله . فأخذ بلسانه قال : كف عليك هذا ، قلت يارسول الله : وانا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » رواه الترمذى

إذا كان الانسان محاسباً على كل صغيرة وكبيرة فواجب عليه أن يحيا حياة الحذر والجد ويزرع فى حياته ما يجب أن يحصد ثماره بعد وفاته وما يجب أيضاً أن يلقى الله تعالى به إذ أن أعماله وأقواله التى ترصد يومياً عليه ساعة بساعة بل لحظة بلحظة ستجمع له كتاباً يلقاه يوم القيامة منشوراً قال تعالى : ﴿ وكلَّ إنْسانٍ ألْزَمْناه طائرَهُ (عمله يحمله) فى عُنُقِه ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كتاباً (مكتوباً فيه عمله) يَلْقاهُ مَنْشوراً . اقرأْ كتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليوْمَ عليكَ حسيبا ﴾ (محاسباً) . (سورة الاسراء)

واذا استعرضنا الآيات الأولى التى نزلت على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وتتبعنا تطوراتها وترتيبها وجدنا أن الله تعالى وضع للانسان نظاماً محكماً يرفع من شأنه اذا أخذ به واتبعه ، هذا النظام يشمل القواعد الأولى فى خلق الانسان وتعليمه حتى يصير أهلا لخلافة الله فى أرضه ، وذلك عن طريق العلم الذى تستقيم به الأمور .

قال الله تعالى مخاطباً نبى الاسلام عليه صلوات الله : ﴿ وأنْزَلَ عَلَيْكَ

الكتابَ والحكمةَ وعلمكَ ما لم تكن تعلم وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً﴾ (سورة النساء).

قال القفال رحمه الله هذه الآية تحتمل وجهين:

أحدهما — أن يكون المراد ما يتعلق بالدين كما قال ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان، وعلى هذا الوجه تقدير الآية: «أنزل الله عليك الكتاب والحكمة وأطلعك على أسرارهما وأوقفك على حقائقهما مع انك ما كنت قبل ذلك عالماً بشيء منهما فكذلك يفعل بك فى مستأنف أيامك لا يقدر أحد من المنافقين على اضلالك وازلالك».

الوجه الثانى — وعلمك ما لم تكن تعلم من أخبار الأولين، فكذلك يعلمك من حيل المنافقين ووجوه كيدهم ما تقدر به على الاحتراز عن وجوه كيدهم ومكرهم: ثم قال: «وكان فضل الله عليك عظيما» وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب. وذلك لأن الله تعالى ما أعطى الخلق من العلم الا القليل كما قال: «وما أوتيتم من العلم الا قليلا» ونصيب الشخص الواحد من علوم جميع الخلق يكون قليلا، ثم أنه سمى ذلك عظيما حيث قال: «وما أوتيتم من العلم الا قليلا» وسمى جميع الدنيا قليلا حيث قال: «قل متاع الدنيا قليل». وذلك يدل على غاية شرف العلم (١)

فالعلم هو الوسيلة التى يتبين بها وجه الصواب من الخطأ كما يوضح الهدى من الضلال. فهو النور الذى يفرق بين الحق والباطل، ولذلك عبر الله تعالى عن القرآن بالكتاب كما عبر عنه بالنور الذى يكشف عن وجه الصواب

(١) الفخر الرازى. جزء ٣ ص ٣١٠

فيما اختلف فيه قال تعالى : ﴿ يا أهْلَ الكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كثيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفونَ مِنَ الكتاب ويَعْفُو عَنْ كثير قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وكِتابٌ (القرآنُ) مُبِينٌ ﴾ (سورة المائدة)

والقرآن كتاب تربية علمية وتعليم لا كتاب تعليم فقط ، فلا يكفى أن يذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهود فى متون الفنون وكتب القوانين وقد بين الله تعالى ذلك بقوله فى موضوع البعثة المحمدية فقال تعالى : ﴿ هوَ الَّذى بَعَثَ فى الأُمِّيينَ رَسولاً مِنْهُم يَتلُو عَلَيْهِم آياتِهِ ويُزَكِّيهِم ويُعَلِّمُهم الكِتابَ والحِكْمَةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لَفى ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ (سورة الجمعة)

فآياته المتلوة هى سور القرآن المرشدة إلى سننه فى الأكوان . والتزكية هى التربية بالعمل وحسن الاسوة والكتاب هو الكتابة التى تخرج العرب من أميتهم والحكمة هى العلوم النافعة الباعثة على الأعمال الصالحة وما يسمى فى عرف الشعوب الحضارة والفلسفة . فجميع مقاصد القرآن وبيان السنة له تدور على هذه الأقطاب الثلاثة (١)

كتابة وعلم وتعليم وهداية وارشاد . هذه هى دعوة القرآن فى آياته الأولى التى نزلت على نبى الاسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن التفرقة

---

(١) كتاب الوحى المحمدى للسيد محمد رشيد رضا ص ١٢٧

إلى الاتحاد ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الجهل إلى العلم .

وقد سرى هدى القرآن وتعاليم الاسلام فى نفوس العرب والمسلمين مما جعلهم يجدون ويدأبون فى سبيل العلم والاختراع مما جعلهم أساتذة لمن سبقوهم من الأمم حضارة وعلماً .

قال الأستاذ الكبير الدكتور « بروكلمان » فى مقال تحت عنوان مآثر العرب فى العلوم المدنية . فبفضل الاسلام استقامت الأمة العربية على نهج الأمم التى كتب لها بلوغ أقصى الغايات من النظام والتوسع واحتمال التبعات العالمية مما لا يوجد له نظير فى الأرض .

مآثر العرب فى العلوم المدنية (١)

لكتاب العرب وعلمائهم فى صدر الاسلام من المآثر العديدة الخالدة فى العلوم المدنية مثل الفلسفة والرياضة والعلوم الطبيعية ، بسبب تقدم الحضارة والثقافة الفكرية فى هذه العصور ، مما جعل لهذه العلوم أثراً يذكر فى تاريخ الأدب العربى على العموم ، وجعل من علماء العرب أساتذة للغرب يقتفى أثرهم ويهتدى بنور ابحاثهم ، ولو أن هذه العلوم كانت فى الأصل دخيلة على علوم العرب أخذوها من الأغريق وهذبوها بما يناسب الحضارة الاسلامية ، وبقيت شطراً من الزمن فى عداد الثمرات الغربية والتراث الأجنبى . وكان أول من اهتم بنقلها إلى العربية علماء الشام المسيحيون وشاركهم فى ذلك نفر قليل من العرب ، إلا أنها ما لبثت أن احتضنها أمراؤهم وتعهدوا رجالها برعايتهم وحسن تقديرهم حتى خصبت تربتها وأينعت أيما إيناع ، فأنتجت قرائحهم ثمرات طيبة لا يدانيها ما أنتجه غيرهم من الشعوب المتاخمة ذات الحضارات القديمة .

بدأ ظهور حضارة الأغريق فى الأدب السورى القديم منذ كانت بلادهم تقع تحت سيطرة الامبراطورية الشرقية ، وزاد تأثره بها بفضل العوامل السياسية التى ساعدت على اهتمام علمائهم بنقل المؤلفات الأغريقية إلى اللغة

---

(١) مترجمة لمجلة الازهر (المجلد السادس) من الالمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الأدب العربى » للمستشرق الالمانى الكبير الأستاذ الدكتور « بروكلمان » .

العربية . وكذلك نشط علماء الدولة الفارسية فى ترجمة كتب فلاسفة الأغريق بفضل رعاية ملوك الدولة الساسانيـــة وتعضيدهم لدراسة الفلسفة والطب ، فأسس خسرو أنوشروان فى عام ٣٥٠ م مدرسة فى « جنديسابور » بخوزستان لتعليم هذه العلوم ، وقد قامت هذه المدرسة بواجبها خير قيام . وبقيت مزدهرة حتى أيام العباسيين ، ومنها انتقلت القواعد الاساسية التى وضعها أرسطو للمنطق الى علماء المسلمين فى البصرة ، فكانت أساساً لقواعد النحو العربى .

وكانت حران مهداً لنشأة علوم الرياضة والفلك التى استعملت كباقى العلوم الأغريقيه سلاحاً فى يد الوثنيين لمحاربة رسل المسيحية فى الشام ، وبقى الحرانيون متمسكين بعقائد أسلافهم حتى بعد دخول الاسلام وحكم العرب بقرون عديدة ، ولقى الكثير من علمائهم الفلكيين والرياضيين رعاية كبيرة وتقديراً عظيما فى بلاط خلفاء المسلمين ببغداد .

وفى أول حكم العباسيين بدأ بعض علماء الشام المسيحيين بترجمة المؤلفات الطبية إلى اللغة العربية ، إلى أن جاء الخليفة المأمون فكان أكبر عضد وأشد ساعد فى هذه النهضة الأدبية الجديدة ، وكان المأمون يعرف الحكمة والفلسفة الاغريقية ويقدرها قدرها ، وكان مولعاً بها إلى أبعد حد ، فأسس لدراستها معهد ببغداد وشيد إلى جانبه دوراً كثيرة للكتب ومرصداً فلكياً .

وفى اثناء خلافته اشتغل كل من قوستا بن لوقه من بعلبك وحنين بن إسحق وابنه إسحق بالترجمة ، فظهر اسم أولهم بين مشهورى المترجمين حوالى عام ٢٢٠ هـ خصوصاً بترجمته لمؤلفات أرسطو وبلوثارخ وإقليدس وثيودورو وهرون الاسكندرى ، وكذلك عرف قوستا بن لوقه مؤلفاً نابه الذكر . فله

مؤلفات هامة فى الموسيقى والفلك والرياضة تزهو بها العلوم العربية. واشتهر حنين بن إسحق شهرة واسعة وذاع صيته، فنقلت مؤلفاته إلى اللغات العبرية واللاتينية فى العصور الوسطى، وولد حنين عام ١٩٤ هـ فى الحيرة وطلب العلم فى بغداد، ثم واصل دراسته فى آسيا الصغرى حيث تعلم اللغة الأغريقية. وعند عودته اتخذه الخليفة المتوكل طبيباً خاصاً به، واهتم فى حياته بترجمة مؤلفات أرسطو وافلاطون، ولكن أهم ما أخرجه للعالم العربى هو ما ترجمه عن جالينوس من الكتب الطبية، ووضع مقدمة فى الطب ورسائل عديدة فى أبواب مختلفة، وأكثر مؤلفاته انتشاراً هى رسالته فى التعاليم الفلسفية. وأما ابنه اسحق المتوفى سنة ٢٩٨ هـ فكان جل اهتمامه بمؤلفات أرسطو، ولم يهتم كثيراً بترجمة جالينوس بل ترك ابن أخيه حبيش يكمل ما بدأه منها، وكان كثيراً ما يعاونه فى اثناء حياته.

وبفضل ما نقل إلى العربية من المؤلفات الأجنبية كالتى أتينا على ذكرها نشأت عند مؤلفى العرب فلسفة بدأت بظاهرة خلقية خاصة، كما يتضح ذلك فى مؤلفات الجاحظ الذى جعل جل اهتمامه الناحية العلمية الأدبية، بينما اهتم معاصره يعقوب الكندى الملقب بحق فيلسوف العرب بالناحية الفلسفية العلمية البحته، وينحدر الكندى من أسرة عريقة فى جنوب بلاد العرب كانت قد آلت اليها إمارة المقاطعات الوسطى، وكان أبوه حاكماً فى الكوفة حيث ولد يعقوب الكندى، وطلب العلم فى البصرة وبغداد، وأقام بالاخيرة تحت حكم المأمون ومن خلفه من خلفاء المسلمين إلى أن حدث اضطهاد المعتزلة بواسطة الخليفة المتوكل، فأصابه ضرر كبير، وصودرت مكتبته، وتوفى على أثر ذلك. ولقد أتى الكندى بمحصول وافر وانتاج باهر فى عالم الأدب،

فبلغت مؤلفاته ما يقرب من ٢٠٠ كتاب ، وشملت مؤلفاته جميع نواحى الفلسفة وسائر العلوم المدنية الأخرى مثل الموسيقى والفلك والهندسة والطب والتنجيم وعلوم الأحوال الجوية . وكان يظهر على كتابات الكندى فى علوم الأخلاق وما وراء الطبيعة (العلل الأولية) ميل شديد نحو آراء الفيثاغورثيين والافلاطونيين الفلسفية الجديدة ، إلا أن ذلك لم يمنعه من التعمق فى دراسة فلسفة أرسطوطاليس ، حتى أطلق عليه بحق أنه أول أتباع أرسطو من علماء وفلاسفة الاسلام . وبالرغم من هذا وذاك فانه قد لوحظ فى بعض مؤلفاته محاولات جريئـــة وبجهودات موفقة لإيجاد صلة جامعة بين المشائين (البرياتيسيين) والافلاطونيين ، مستحياً بذلك نحو من سبقه من فلاسفة الأغريق . وكانت تربيته الفلسفية لم تكن لتبلغ به شأوا بعيداً ، ولكن أثره فى تلاميذه كان أكبر وأظهر فى ناحية العلوم البحتة ، واشتهر من طلبة العلم لديه أبو معشر أكبر علماء التنجيم فى عصره . واهتم الفارابى كذلك بدراسة الفلسفة ، وبلغ منها مبلغاً ظاهراً ، وهو ينحدر من أصل تركى ، وولد فى بلاد ما وراء النهرين ، وطلب العلم فى بغداد ، ووجد فى بلاط الأمير الحمـــدانى سيف الدولة ملجأ لإظهار مؤلفاته ونشر فلسفته ، وتوفى بدمشق عام ٣٣٩ هـ وشمل انتاجه الأدبى جميع مناحى فلسفة أرسطو التى أخرجها إلى العربيـة بتعليقات قيمة أو فى رسائل مستقلة ، ووضع مؤلفاً جليلا للموازنة بين تعاليم أرسطو وأفلاطون . وبالرغم من اهتمامه الزائد بالفلسفة فانه لم يغفل العلوم الأخرى ، وأظهر مؤلفاته ما كتبه فى الدفاع عن كيمياء الذهب ضد الكندى الذى لم يرض بها كفن من الفنون .

وكانت مدينة البصرة منذ قديم الزمن مركز الابحاث العلمية والنزعات

الحرة ، وفيها تكونت قديماً الأندية التى ظهر أثرها الفلسفى فى مؤلفات الجاحظ ونظم بشار ، وفى البصرة تكونت فى هذا العصر أيضاً جماعة من أنصار الفلسفة عرفت أسماؤهم جميعاً ، ولو أنه لم يظهر لأحدهم شخصية ممتازة اللهم إلا زيد بن رفاعة الذى أسس فرعاً لهذه الجمعية الفلسفية فى بغداد عام ٣٧٣ هـ وكان الغرض من تأسيس هذه الجمعية الفلسفية هو نشر التعاليم الفلسفية بين أفراد الشعب ، ورسم القائمون بأمرها خططاً تدريجية لتحقيق أغراض الجمعية التى أخفقت بسبب الأحوال السياسية ، وعلى الأخص بسبب التدهور الذى بدأ فى أفق الحضارة العامة . وأما الرسائل التى وضعوها فى مختلف أبواب العلوم والفلسفة فكانت ناجحة إلى أبعد حد فانتشرت انتشاراً واسعاً وذاعت ذيوعاً عظيما حتى عمت جميع أنحاء الشرق ، ووصلت إلى اسبانيا فى أواخر القرن الرابع ، وبقيت كذلك موضع اهتمام الباحثين طويلا ، واقتبس منها الشاعر التركى المجيد لمعى فى القرن السابع عشر كثيراً من منظوماته ، ونقلت بعد ذلك فى القرن التاسع عشر من الميلاد إلى اللغة الهندوستانية . وتقع هذه الرسائل فى ٥١ فصلا ، وتبحث فى جميع أبواب الفلسفة ومباحث العلوم الطبيعية ، وكان الغرض الأول من وضعها هو جعل هذه العلوم فى متناول أفراد الشعب . ولقد نجح أفراد الجمعية الفلسفية فى مهمتهم هذه إلى حد بعيد .

وأما فى العلوم الرياضية فقد كان أثر أقليدس ظاهراً فيما خلفه العرب من مؤلفات وابحاث رياضية ، وكذلك نشطت همتهم وأخصبت قرائحهم فى هذا المضمار بعد اتصالهم بمؤلفات الهنود الذين أخذوا عنهم طريقة الأرقام التى أخذها بعد ذلك الاوربيون عن العرب وسموها باسمهم ، وبفضل هذه الطريقة

تأسس علم الحساب وسهلت كل أنواع عمليات المحاسبة الابتدائية . ولقد انتفع العرب بهذه الطريقة فى ابحاثهم عن علاقات الأرقام الفردية والمزدوجة والأرقام البسيطة والمربعة والمكعبة ، وساعدتهم على كشف كثير من غوامض نظرية الأرقام ، كما أخذوا عن الهنود مبادىء حساب المثلثات ووضعوا لهذا العلم أسساً محكمة وقواعد دقيقة ، واستخلصوا منها نتائج ونظريات لم يتعدها العلم الحديث إلا فى السنوات الأخيرة .

وأقدم الرياضيين من علماء العرب المعروفين هو محمد الخوارزمى الذى اشتهر وذاع صيته فى عصر المأمون حوالى عام ٢٠٥ هـ حيث قام بنشر دراسة وافية لكتاب بطليموس فى الفلك والكتاب الهندى « سند هند » ولكن أهم مؤلفاته هو كتابه فى علم الجبر حيث لاقى انتشاراً عظيما وترجم إلى اللاتينية ، وكان المرجع الأخير لعلم الحساب فى أوروبا حتى عصر النهضة ، وبقى اسم الخوارزمى حتى اليوم بين أعلام العلوم الرياضية البارزين .

واهتم أولاد موسى بن شاكر المتوفى سنة ٢٥٩ هـ بعلوم الهندسة والفلك والصناعات الفنية وقياس السطوح ، ولهم فيها مؤلفات عديدة .

وامتاز الرياضى الكبير ثابت بن قرة بأبحاثه القيمة فى نظرية الأرقام حتى أطلق عليه بحق كبير رياضى هذا العصر ، وولد ثابت بن قرة فى حران عام ٢٢١ هـ وعاد اليها بعد أن أتم دراسته فى بغداد وتوفى سنة ٢٨٨ هـ وله مؤلفات ورسائل عديدة فى الرياضة وأخرى فى الطب والفلسفة .

وفى أواخر هذا العصر وضع محمد الكرخى مؤلفاً فى الحساب (الكافى فى الحساب) لخص فيه أهم ما وضعه المؤلفون السابقون فى هذا العلم ، وأهداه إلى وزير البويهيين بهاء الدولة فخر الملوك المتوفى سنة ٤٠٧ هـ .

نشطت قرائح العرب وشحذت همتهم باتصالهم الفكرى بالاغريق وبالهنود ، فأخذوا عنهم من العلوم الفلكية مثل ما نقلوا عنهم من العلوم الرياضية . ففى عام ١٥٢ هـ ظهر أحد الهنود فى بلاط الخليفة المنصور ومعه كتاب « سدهانتا » الذى وضعه « براهما جوبتا » سنة ٦٢٨ م فأمر الخليفة بنقله إلى العربية ، وقام بدراسته وتنقيحه بعد ذلك الخوارزمى تلبية لرغبة الخليفة المأمون ، وأمر المأمون كذلك بتصحيح خرائط بطليموس الفلكية بعد الأرصاد التى قام بها فى بغداد ودمشق ، كما وضع طريقة للقياس بالدرجات وتمكن العرب بعد ذلك من تحديد مواقع الأجرام السماوية ومداراتها بواسطة آلات القياس والرصد التى ابتكروها لذلك .

ووضع فى أوائل القرن الثالث من الهجرة أحمد الفرغانى كتاباً فى العلوم الفلكية نقل بعد ذلك إلى اللاتينية ، وكان يعتبر أهم المراجع فى العصور الوسطى فى أوروبا .

وأهم علماء العرب فى الفلك والتنجيم هو بلا شك أبو معشر تلميذ الكندى ولد أبو معشر سنة ٢٧٢ هـ فى واسط ، ووضع علاوة على رسائله الهامة فى الفلك كتاباً فى المجهود الأدنى للشعوب المتحضرة المعروفة فى ذلك الحين . وكانت تغلب عليه فلسفة فيثاغورس التى أخذها عن استاذه يعقوب الكندى

انتهت مجهودات هذا العصر فى العلوم الفلكية وأبحاث التنجيم بالسفر الضخم الذى وضعه على بن أبى الرجال بشمال افريقية فى أوائل القرن الخامس من الهجرة ، ونقله علماء أوروبا إلى اللغة اللاتينية سنة ١٥٥١ ميلادية .

وكذلك نرى فى علم الطب أن أثر كل من علوم الاغريق وعلوم الهنود يتلاقى فى بدء نشأته مع العلوم العربية ، ولقد سبق لنا الذكر بأن مؤلفات

كل من أبوقراط وجالينوس نقلت إلى اللغة العربية منذ بدء نهضة الترجمة ، كما رأينا أن العلوم الطبية ازدهرت فى مدينة « جنديسابور » بجانب فلسفة أرسطو ، وأن الخليفة المنصور استدعى رئيس مستشفاها ليجعله طبيباً خاصاً به ، كما ثبت أن أحد الأطباء الهنود (منكا) كان موجوداً فى بلاط هارون ومتمتعاً بثقة عالية وتقدير كبير ، وأن أهم مؤلفات الهنود فى الطب (Sucruta) نقل أيضاً فى هذا العصر إلى اللغة العربية ، ولو أن هذه الترجمة لم تصل إلى أيدينا .

وفى القرن الثالث من الهجرة اشتهر يحيى بن ماسويه بمؤلفاته الطبية العديدة ، ولد يحيى فى جنديسابور وكان أبوه صيدلياً ، وطلب العلم فى بغداد إلى أن صار طبيباً خاصاً للخليفة المأمون ومن خلفه حتى الخليفة الواثق ، ولد فى سنة ٢٤٣ هـ . وأهم مؤلفاته رسائله المهداة إلى حنين بن إسحق ، ونقلت معظم كتبه إلى اللغة العبرية واللاتينية .

ولم يفقه فى الشهرة وسعة المعارف إلا أبو بكر محمد بن زكريا الرازى الذى يعتبر بحق أكبر عبقرى ظهر فى العصور الوسطى فى فن العقاقير . ولد أبو بكر بالرى وطلب العلم فى بغداد إلى أن صار مديراً للمستشفى فى مسقط رأسه ، وأخيراً مديراً لمستشفى بغداد ، إلا أنه لما وجد مدينة الخلافة القديمة قد فقدت كثيراً من أبهتها وعظمتها آثر الانتقال إلى بلاط أمراء الفرس حيث تظهر مقدرته ونبوغه وينال حظه من الشهرة والصيت ، وأهدى إلى منصور بن اسحق آل سامان أمير كرمان وخراسان أهم مؤلفاته الذى يدافع فيه عن كيمياء الذهب ، ولكنه لم يجن من وراء ذلك إلا جحوداً كبيراً ، إذ ضربه الأمير بسوطه ضربة أودت بنظره على أثر إخفاقه فى نجاح بعض

التجارب أمامه ، وبقى ضريراً الى أن وافته المنية سنة ٣١١ هـ .

أما علوم كيمياء الذهب فازدهرت أبحاثها وكثر أنصارها فى غضون القرن الثانى من الهجرة الى حد بعيد ، وأشهر من رفع لواءها فى هذا العصر هو جابر بن حيان وهو تلميذ الأمير الأموى خالد ، ولا نعلم من أخباره الا أنه كان يقيم فى الكوفة وأن شهرته بلغت أوج عظمتها حوالى عام ١٦٠ هـ

وكانت تحيط بعلماء كيمياء الذهب فى هذا العصر أسرار غامضة ويعيشون فى عزلة تامة بالرغم من أنهم كانوا يعتقدون اعتقاداً تاماً بصحة ما يذهبون اليه من النظريات والابحاث . ولقد انتفعت العلوم الطبيعية انتفاعاً كبيراً بفضل ابحاثهم التى كانوا يحرونها فى طى الخفاء والكتمان سعياً وراء بعض الاغراض الخيالية .

دعوة الاسلام

لاصلاح المجتمع الانسانى

الأساس الأول ـ الايمان بالله ـ القائم على العلم

الإيمان — ذهب بعض المفسرين إلى أن الايمان عبارة عن فعل كل الطاعات سواء كانت واجبة أو مندوبة أو من باب الأقوال أو الأفعال أو الاعتقادات وهو قول واصل بن عطاء وأبى الهذيل . وقالت طائفة أخرى : إن الايمان اقرار باللسان ومعرفة بالقلب وهو قول أبى حنيفة وعامة الفقهاء.

إن أول ما يجب أن يعرفه كل إنسان فى هذه الدنيا هو صاحبها وخالقها والمتصرف فيها ومن هو ؟ وماهى صفاته ؟ وماهى أفعاله ؟ وما هى أوامره ؟

فالله سبحانه وتعالى هو الخالق لهذه الحياة وواهبها على اختلاف أنواعها سواء كانت للانسان وهو المنتفع بآثارها ونتائجها أو غيره من الحيوان والنبات وخلاف ذلك وهو المنتفع به.

فالمرتبة الأولى وهى التى تفيد المكنة من الانتفاع واليها الاشارة بقوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اعْبُدوا رَبَّكمْ الَّذى خلَقكمْ والذينَ منْ قَبْلكم لَعلَّكمْ تَتَّقونَ ﴾ (سورة البقرة) ، ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكمْ الَّذى

خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ واحدةٍ وخَلَقَ منها زَوجَها وبَثَّ منهما رِجالا كثيراً ونِساءً ﴾ (سورة النساء)

والمرتبة الثانية خلق المنتفع به واليها الاشارة بقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لكمْ ما فى الأرْض جَميعاً ﴾ ولما كانت المصالح الحاصلة فى هذا العالم السفلى إنما تنتظم بالحركات الفلكية على سبيل اجراء العادة لا جرم أتبعه بقوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَوى إلى السماءِ فسوّاهُنَّ سَبعَ سَمٰوات وهُوَ بكلِّ شىْءٍ عَليم ﴾ فثبت بما ذكرنا أن كل النعم حاصل بايجاد الله تعالى وعن قدرته وعلمه

وللانسان أحوال ثلاثة الماضى والحاضر والمستقبل، أما الماضى فقد كان معدوماً محضاً كما قال الله تعالى: ﴿ وقد خَلقْتُكَ من قَبلُ ولم تَكُ شَيْئاً ﴾ وكان ميتاً فأحياه الله تعالى كما قال: ﴿ كيف تَكفُرونَ بالله وكُنتمْ أمواتاً فأَحْياكم ﴾ وكان جاهلا فعلمه الله كما قال: ﴿ واللهُ أَخرَجَكمْ من بُطون أُمَّهاتكمْ لا تَعْلَمونَ شَيئاً وجَعلَ لكمُ السَّمعَ والأبصارَ والأفْئدةَ ﴾ والعبد إنما انتقل من العدم إلى الوجود ومن الموت إلى الحياة ومن العجز إلى القدرة ومن الجهل إلى العلم لأجل أن الله تعالى كان قديماً أزلياً فبقدرته الأزلية وعلمه الأزلى أحدثه ونقله من العدم إلى الوجود فهو إله لهـــذه

المعنى . وأما الحال الحاضرة للعبد فحاجته شديدة إلى الله تعالى لأنه لما كان معدوماً كان محتاجاً إلى الرب الرحمن الرحيم ، أما لما دخل فى الوجود فقد انفتحت عليه أبواب الحاجات وحصلت عنده أسباب الضرورات ، فقال الله تعالى : « انا إله لأجل انى اخرجتك من العدم إلى الوجود . اما بعد ان صرت موجوداً فقد كثرت حاجاتك إلى فأنا رب رحمن رحيم » واما الحال المستقبلة للعبد فهى حال ما بعد الموت .

قال تعالى : ﴿ اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ (نعاس) وَلا نَوْمٌ له ما فى السَّمٰوات وما فى الأَرْض مَن ذا الَّذى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِه يَعْلَمُ ما بينَ أَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطونَ بِشَيءٍ من عِلْمِه إِلَّا بِما شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّه السَّمٰوات والأَرْضَ وَلا يَؤُدُه (يثقله) حِفْظُهما (أى السموات والأرض) وهو العَلِيُّ (فوق خلقه بالقهر) العظيم ﴾ (الكبير) (سورة البقرة)

فسر الجلال الاله بالمعبود بحق والحى بالدائم البقاء والقيوم بالمبالغ بالقيام بتدبير خلقه . ومعنى « لا إله إلا هو » ليس فى الوجود صاحب سلطة حقيقية على النفوس يبعثها على تعظيمه والخضوع له قهراً منها معتقدة أن بيده منح الخير ورفع الضر بتسخير الأسباب أو بابطال السنن الكونية الا الله وحده .

عن ابن عباس رضى الله عنه أنه كان يقول أعظم أسماء الله الحى القيوم ، وقال الفخر الرازى الحى هو الدراك الفعال ، فبقوله الحى دل على كونه عالماً قادراً ، وبقوله القيوم دل على كونه قائماً بذاته ومقوماً لكل ماعداه . . ويلزم من كونه قيوماً كونه عالماً بجميع المعلومات ، ولما كان قيوما لكل ماسواه كان كل ما سواه محدثا .

وقال مجاهد القيوم القائم على كل شيء وتأويله أنه قائم بتدبير أمر الخلق فى إيجادهم وفى أرزاقهم ونظيره من الآيات قوله : ﴿ أَفَمَنْ هو قائمٌ على كلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ ﴾ وقال : ﴿ شَهِدَ اللهُ أنه لا إلٰهَ إلّا هوَ والملائكةُ وأولو العلمِ قائماً بالقِسْطِ ﴾ والقسط هنا هو العدل العام فى سننه الكونية وشرائعه . وقال : ﴿ إنَّ اللهَ يُمسكُ السمواتِ والأرضَ أنْ تزولا ولَئِنْ زالتا إنْ أمسكهما من أحدٍ من بعده ﴾ وهذا القول يرجع حاصله إلى كونه مقوما لغيره ، وقال الضحاك القيوم الدائم الوجود الذى يمتنع عليه التغير ، وهذا القول يرجع معناه إلى كونه قائما بنفسه فى ذاته وفى وجوده .

يجب أن يعرف الانسان أن الله سبحانه وتعالى هو المتفضل بالحياة ، وأن له الالزام والحكم فى الدنيا كيف شاء وأراد ، وأنه لا يجب لأحد على الله بسبب أعماله وافعاله شيء ، وأنه سبحانه فى الآخرة يغفر لمن يشاء بفضله ويعذب من يشاء بعدله ، وأنه لا يقبح منه شيء ولا يجب عليه شيء ، لأن الكل ملكه ، والمالك له التصرف المطلق فيما يملك وفى ملكه ، والله سبحانه وتعالى هو المالك الحقيقى للخلق ولكل موجود .

ومن الايمان بالله معرفة أسمائه ، قال فى سورة الاعراف ﴿ ولله الأسماءُ الحُسنىٰ ﴾ وقال فى بنى اسرائيل ﴿ أيًّا ما تَدْعو فلهُ الأسماءُ الحُسنىٰ ﴾ وقال فى سورة طه ﴿ اللهُ لا إلٰهَ إلا هوَ لهُ الأسماءُ الحُسنىٰ ﴾ وقال فى سورة الحشر ﴿ هوَ اللهُ الَّذى لا إلٰهَ إلا هوَ الملكُ القُدُّوسُ السلامُ المُؤْمنُ المُهَيْمنُ العزيزُ الجبّارُ المُتكبّر سبحانَ اللهِ عمّا يُشركون ، هوَ اللهُ الخالقُ البارىءُ المُصوّر لهُ الأسماءُ الحسنىٰ ﴾ والأسماء الحسنى الواردة فى كتب الله المنزلة على ألسنة أنبيائه المعصومين .

ومن الايمان بالله ، الايمان بوجود الملائكة وأنهم معصومون مطهرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون وانهم سفراء بين الله وبين البشر ، فكل قسم منهم متوكل على قسم من أقسام هذا العالم ، وأن الانسان موكل به ملائكة يحصون عليه أقواله وأفعاله قال تعالى : ﴿ إنَّ عليكمْ لَحافظينَ ، كراماً كاتبينَ ، يَعلمونَ ما تَفعلون ﴾ (سورة الانفطار)

ومن الايمان بالله الايمان بكتبه ورسله ، وأنها وصلت إلى الأنبياء بواسطة الملائكة ، قال الله تعالى ﴿ إنَّهُ لَقولُ رَسولٍ كريمٍ ذى قُوَّةٍ عندَ ذى العَرشِ مَكينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أمينٍ ﴾

قال المفسرون ليس المراد بالايمان بالملائكة الايمان بذواتهم ، بل الايمان بسفارتهم فى الوحى من حيث هم حملة الوحى إلى الرسل وأنهم من عالم الغيب. وأما البحث عن ذواتهم ما هى ؟ وعن صفاتهم وأعمالهم كيف هى ؟ فهو مما لم يأذن به الله فى دينـــه . والمراد بالايمان بالكتب والرسل جنسها ، أى يؤمن الانسان بذلك ايماناً اجمالياً فيما أجمله القرآن ، وتفصيلياً فيما فصله لا يزيد على ذلك (١)

روى عطاء عن ابن عباس ، قال : قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا صف لنـــا ربك أمن زبرجد أو ياقوت أو ذهب أو فضة ؟ فقال : إن ربى ليس من شىء ، لأنه خالق الأشياء ، فنزلت « قل هو الله أحد » . قالوا : هو واحد وأنت واحد ، فقال : ليس كمثله شىء ، قالوا زدنا من الصفة فقال « الله الصمد » فقالوا وما الصمد ، فقال الذى يصمد اليه الخلق فى الحوائج ، فقالوا زدنا فنزل « لم يلد » كما ولدت مريم ولم يولد كما ولد عيسى « ولم يكن له كفواً أحد » يريد نظير من خلقه

فالايمان بالله يرفع النفوس عن الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينيـة أو السلطة الدنيوية وهى سـلطة الملك فان العبودية لغير الله تعـالى تهبـط بالبشر إلى دركة الحيوان المسخر أو الزرع المستنبت . والايمان باليوم الآخر وبالملائـكة يعلم الانسان أن له حيـاة فى عالم غيبى أعلى من هـذا العالم فلا يرضى لنفسه أن يكون سـعيه وعمله لأجل خدمة هذا الجسد خاصة لأن ذلك يجعله لا يبالى إلا بالأمور البهيمية .

---

(١) تفسير المنار للسيد رشيد رضا الجزء الثالث ص ١٤٤

ثم ان الايمان بالملائكة أصل للايمان بالوحى لأن ملك الوحى روح عاقل يفيض العلم باذن الله على روح النبى بما هو موضوع الدين ولذلك قدم ذكر الملائكة على ذكر الكتاب والنبيين فهم الذين يؤتون النبيين الكتاب ، قال تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها بإذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ وقال أيضاً : ﴿ نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ على قلبكَ لتكونَ من المُنْذِرين بلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ .

فيلزم من إنكار الملائكة إنكار الوحى والنبوة وإنكار الأرواح ، وذلك يستلزم إنكار اليوم الآخر ، ومن أنكر اليوم الآخر يكون أكبر همه لذات الدنيا وشهواتها وحظوظها ، وذلك أصل لشقاء الدنيا قبل شقاء الآخرة .

والايمان بالكتاب يستلزم العمل به . والايمان بالنبيين يقتضى الاهتداء بهديهم ، والتخلق بأخلاقهم ، والتأدب بآدابهم ، ويتوقف هـذا على معرفة سيرتهم ، والعلم بسنتهم .

لن يحصل الايمان بالله إلا عند العلم بذاته المخصوصة والعلم بما يجب ويجوز ويستحيل عليه ، ولن يحصل العلم بهذه الأمور إلا عند العلم بالدلائل الدالة عليه ، فيدخل فيه العلم بحدوث العالم والعلم بالأصول التى عليها تفرع حدوث العالم . ويدخل فى العلم بما يجب له من الصفات العلم بوجوده وقدمه وبقائه وكونه عالماً بكل المعلومات ، قادراً على كل الممكنات ، حياً مريداً سميعاً

بصيراً متكلما . ويدخل فى العلم بما يستحيل عليه العلم بكونه منزها عن الحالية والمحلية والتحيز والعرضية. ويدخل فى العلم بما يجوز عليه اقتداره على الخلق والايجاد وبعثة الرسل .

ومن الأسماء الدالة على الصفات الحقيقية : القدرة ، وهى كثيرة قال تعالى : ﴿ وكان الله على كلّ شيء مُقتدرا ﴾ (سورة الملك)

والعلم وما يشتق منه وفيه وجوه :

الأول — إثبات العلم لله تعالى قال تعالى : « ولا يُحيطونَ بشيء من علْمه إلا بما شاء » . وقال : « ولا تضَعُ إلا بعلْمه » وقال : « قد أَحاطَ بكلّ شيء علْما » وقال تعالى : « إنَّ الله عنده علمُ الساعة »

الثانى — العالم . قال تعالى : « عالمُ الغيبِ والشّهادة »

الثالث — العليم . وهو كثير فى القرآن : « إنَّ الله واسعٌ عَليم » . « إنَّ الله سميعٌ عَليم » . « والله عَليمٌ بالمتّقين » « والله عليم حكيم »

الرابع — العلام . قال تعالى بلسان عيسى: « إنَّكَ أَنتَ علّامُ الغُيوب »

الخامس — الأعلم . قال تعالى : « الله أَعلَمُ حَيثُ يَجعلُ رسالتَه »

السادس — صيغة الماضى . قال تعالى: « عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كنتُمْ تَختانُونَ أَنفُسَكم » .

السابع — صيغة المستقبل . قال تعالى : « وما تفعلوا من خير فإن الله يعلمه » ، وقال : « والله يعلم ما تسرون وما تعلنون »

الثامن — لفظ علّم . من باب التفعيل قال تعالى : « وعلّم آدم الأسماء كلها » ، وقال فى حق الملائكة : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا » ، وقال: « وعلّمك ما لم تكن تعلم » ، وقال : « الرحمن علّم القرآن »

ومن ألفاظ هذا الباب لفظ الخبر والخبرة وهو كالمرادف للعلم حتى قال بعضهم فى حد العلم إنه الخبر. إذا عرفت هذا فنقول ورد لفظ الخبير فى حق الله تعالى كثيراً فى القرآن وذلك أيضاً يدل على العلم ، واللطيف وقد يراد به العلم بالدقائق وقد يراد به إيصال المنافع إلى العباد بطرق خفية عجيبة (١)

قال تعالى: ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (سورة لقمان)

نزلت هذه الآية فى واحد سأل النبى عليه السلام انك تقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وتقول : « ومن يؤت الحكمة فقد

---

(١) تفسير الفخر الرازى جزء ٦ وجزء ٨ ص ٥٥٧ وتفسير المنار ص ١٢٣ وما بعدها .

أوتى خيراً كثيراً » فنزلت الآية دالة على أنه خير كثير بالنسبة إلى العباد ، وبالنسبة إلى الله وعلومه قليل وإن الله كامل العلم وعلمه لانهاية له وأن البحر ولو كان مداداً لما نفد ما فى علم الله وقدرته لتدوينه وحصره ، ولذلك وجب على الانسان أن يتعلم ويدرس آيات الله فى الكون حتى يقف على ما يتيسر له من أسرار العلوم والمعارف التى وضعها الله فيما خلق وهو العليم الخبير

إن مبدأ التوحيد والايمان بأن الله واحد لاشريك له رفع النفس البشرية من ذل الاغيار وأعطى لها حقها فأصبحت لا تعبد إلا إلهاً واحـــداً قهاراً لا تعرف غيره ولا تذعن لمن سواه ، فانتعشت من خمودها وتحركت بعد سكونها ، ونشطت من عقالها بعد سجنها ، وكان لهذا المبدأ وما تبعه من نظم اسلامية أكبر الأثر فى نهضة المسلمين وغير المسلمين ممن دانو لهم عن طريق الفتح .

ذكر الكاتب الانجليزى الشهير ستانلى بول عن فتح العرب لاسبانيا ما يلى : ملك المسلمون ثلثى شبه الجزيرة وسموها بالاندلس . وأنشئوا بها مملكة قرطبة العظيمة التى كانت أعجوبة العصور الوسطى والتى حملت وحدها فى الغرب شعلة الثقافة والمدنية مؤتلقة وهاجة وقت ان كانت أوروبا غارقة فى الجهالة البربرية فريسة للشقاق والحرب .

ويجب ألا يجول ببال أحد أن العرب عاثوا فى البلاد أوخربوها بصنوف الارهاق والظلم كما فعل قطعان المتوحشين قبلهم . فان الأندلس لم تحكم فى عهد من عهودها بسماحة وعدل وحكمة كما حكمت فى عهد العرب الفاتحين ....

أما التسامح الدينى فلم يدع للاسبانيين سبباً للشكوى . فقد تركهم العرب يعبدون كما يشاءون من غير أن يضطهدوهم أو يلزموهم اعتناق عقيدة خاصة

كما كان يفعل القوط باليهود ... وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح أن رضى المسيحيون بالنظام الجديد واعترفوا فى صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الافرنج أو القوط ... أما فرح العبيد بما طرأ على نظام الحكم من التغيير فقد كان عظيما حقاً . بعد أن لاقوا من ضروب العسف والقسوة من القوط والرومان ما تقشعر له الأبدان . فان الرق فى رأى المسلمين الاخيار نظام انسانى رقيق حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما لم يجد بداً من الابقاء على هذا النظام العتيق الذى يعارض مبادىء الاسلام بذل كل جهد فى تخفيف ويلاته فى كثير من الوصايا والاحاديث فهو يقول فى الارقاء : « اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل . وليلبسه مما يلبس . ولا تكلفوهم مايغلبهم . فاذا كلفتموهم فأعينوهم » « سعد العبيد بدخول العرب . وأصبحوا فى رق المسلمين بمنزلة صغار الزراع فتركهم ساداتهم أحراراً يزرعون الأرض كما يشاءون على أن يؤدوا اليهم نصيبا من الغلة لأنهم كانوا مشتغلين بالحروب ولأنهم كانوا بطبيعتهم يأنفون من أعمال الفلاحة . أما عبيد المسيحيين الذين ظلوا يائسين من التخلص من الرق طول حياتهم فقد مهد أمامهم اليوم طريق إلى الحرية من أسهل الطرق وأهونها . فليس عليهم إلا أن يذهبوا إلى أقرب محتسب أو قاض وينطقوا أمامه بالشهادتين فيصبحوا فى التو أحراراً فان الحرية تتبع الاسلام (١) »

---

(١) العرب فى اسبانيا تأليف ستانلى لين بول تعريب على بك الجارم ص ٤٠ — ٤٣

الأساس الثانى

حرية التفكير والقول والعمل وآثار ذلك فى المدنية الغربية

إن مما امتاز به القرآن الكريم على سائر الكتب أنه جعل حرية الفكر والقول والعمل أساساً لاثبات دعوته للحق والاذعان له وأنه يبسط قضاياه ويستعرضها ثم يناقشها ويدلل بالحجة والبرهان ثم يطالب المعارض له بأن يدلى بحجته ويأتى ببرهانه إن كان صادقاً ثم بعد ذلك يفرغ إلى الغاية أو الحق الذى يدعو اليه ، ونجد هذا كله فى الدعوة إلى الله تعالى وإثبات وحدانيته والرسالة والدليل على صحتها والكتاب أى القرآن وأنه من عند الله واليوم الآخر فاذا أثبت صحة ما دعا اليه بالأدلة القاطعة ترك للانسان حرية العمل أى حرية الاختيار وأنه تعالى سيجازى الانسان بعمله ان خيراً فخير وان شراً فشر ، وهذه هى الأسس التى قام عليها العلم والديمقراطية والتقدم إذ بفقد هذه الحريات الثلاث لا يستطيع الانسان أن يؤمن عن يقين ، ولا يهتدى عن اقتناع ، ولا يعمل عملا منتجاً وهو أسير .

ومن القرآن يعلم الانسان كيف يناقش وكيف يقيم الحجة وكيف يرى المسائل الكونية فى وضعها السليم الصحيح ، وكيف يطالب بالدليل عما إذا كان هناك إله آخر يستطيع أن يغير فى أوضاع النظم التى وضعها الله سبحانه وبذلك يتبين الحق من الباطل . قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً

ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون . وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفاً محفوظا وهم عن آياتها معرضون . وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ (سورة الأنبياء)

وقال تعالى يطالب الجاحدين بوجوده باقامة البرهان : ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (سورة النمل)

وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار

لِتَسْكُنوا فيه ولِتَبْتغوا من فضله ولعلَّكم تشكرون ويوم يُناديهم فيقول أين شُركائي الذين كنتم تزعمون . ونَزَعْنا من كلِّ أُمَّة شهيداً ، فقلنا هاتوا بُرْهانكم ، فعلموا أنَّ الحقَّ لله وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ (سورة القصص)

ولما تحدت العرب القرآن وقالوا انه من عند محمد طالبهم الله بالدليل ولم يرغمهم على الاذعان له والتصديق به قال تعالى : ﴿ وما كان هذا القرآنُ أن يُفْترى من دون الله ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه وتفصيلَ الكتاب لا ريبَ فيه (لا شك فيه) من ربِّ العالمين . أم يقولونَ افتراهُ قلْ فأْتوا بسورةٍ مثله وادْعوا مَنِ استطعْتُم من دون الله إنْ كنتم صادقين ﴾ (سورة يونس)

ولما عجزت العرب عن الإتيان بسورة كالقرآن ترك الله لهم حرية العمل به أو غير العمل فقال تعالى : ﴿ وإنْ كذَّبوكَ فقُلْ لي عملي ولكم عملُكم أنتم بريئونَ مما أعملُ وأنا بريءٌ مما تعملون ﴾ (سورة يونس)

وقال تعالى : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين (على الدخول فيه) قد تبيَّنَ الرُّشْدُ من الغيِّ (أي ظهر بالآيات البينات أن الايمان رشد والكفر غي) فمنْ

يَكْفُرْ بالطاغوت (الشيطان والأصنام) ويُؤْمِنْ بالله فقد استمسك (تمسك) بالعُرْوَةِ الوُثْقَى (بالعقد المحكم) لا انْفِصامَ لها (انقطاع) والله سَمِيعٌ (لما يقال) عَلِيم (بما يفعل) ﴾ (سورة البقرة)

قال أبو مسلم والقفال معناه أنه ما بنى أمر الايمان على الاجبار والقسر وإنما بناه على التمكن والاختيار ثم احتج القفال على أن هذا هو المراد بأنه تعالى لما بين دلائل التوحيد بياناً شافياً قاطعاً للعذر ، قال بعد ذلك إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر فى الاقامة على الكفر إلا أن يقسر على الايمان ويجبر عليه ، وذلك مما لا يجوز فى دار الدنيا التى هى دار الابتلاء ، إذ فى القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان . ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ فمن شاءَ فليُؤمن ومن شاء فليكفُر ﴾ وقال فى سورة أخرى : ﴿ ولو شاءَ ربُّكَ لآمنَ مَنْ فى الأرض كلُّهم جَميعاً ، أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مُؤْمنين ﴾ وقال فى سورة الشعراء : ﴿ لَعَلَّكَ باخِعٌ (قاتل) نفسَكَ أنْ لا يكونوا مُؤْمنين ، إنْ نَشأْ نُنَزِّلْ عليهم مِنَ السماءِ آيةً فظلَّتْ أعناقُهم لها خاضعين ﴾ ومما يؤيد هذا القول أنه تعالى قال بعد هذه الآية ﴿ قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغيِّ ﴾ يعنى ظهرت الدلائل ووضحت البينات ولم يبق بعدها إلا طريق القسر والالجاء والاكراه ، وذلك غير جائز ، لأنه ينافى

التكليف ، فهذا تقرير هذا التأويل (١)

إن توحيد المسلمين الأولين لله القائم على حرية الفكر والبحث والدليل، كان سبباً لتمكين معرفتهم بالله وحبهم له وتوكلهم عليه ، وهذا هو الذى زكى أنفسهم وأعلى هممهم وكملهم بعزة النفس وشدة البأس وإقامة العدل ، ومكنهم من فتح البلاد وسياسة الأمم واعتاقها من رق الكهنة والاحبار والرهبان والبوذات والموبذانات العقلى والروحى وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم وإقامة دعائم الحضارة وإحياء العلوم ، وقد تم لهم ذلك فى زمن يسير لم يتيسر لغيرهم من الأمم التى سبقتهم .

وقد تجلت حرية الفكر والقول والعمل فى صدر الاسلام ، ولم تعم المسلمين فحسب ولكن غير المسلمين الذين كانوا تحت حكمهم ، ولا يزال قول عمر بن الخطاب باقياً حينما أنصف ابن القبطى من ابن عمرو بن العاص والى مصر حين ضرب ابنه ابن القبطى لما سبقه ، وقال : اسبق ابن الأكرمين، فلما رفع الأمر إلى عمر وهو أمير المؤمنين أمر بضرب ابن عمرو بن العاص ووضع درته على رأس الوالد وقال له «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»

قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن ﴾ ولا شك أن المراد بقوله الحكمة البرهان والحجة ، فكانت الدعوة بالحجة والبرهان إلى الله تعالى مأموراً بها ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، ليس المراد منه المجادلة فى فروع الشرع ، لأن من أنكر نبوته فلا فائدة فى الخوض معه فى تفاريع الشرع ، ومن أثبت نبوته فانه لا يخالفه ، فعلمنا أن هذا الجدل كان فى التوحيد والنبوة ، فكان الجدل وهو قائم على حرية

---

(١) تفسير الفخر الرازى جزء ٢ ص ٣١٩

الفكر والقول والعمل مأموراً به ، ثم انا مأمورون باتباعه عليه السلام لقوله تعالى على لسان نبيه « فاتبعونى يُحْبِبكُمُ الله » ولقوله : ﴿ لقد كانَ لكم فى رَسولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنة ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ومِنَ الناسِ مَنْ يُجادِلُ فى الله بغيرِ علْمٍ ﴾ وذلك يقتضى أن المجادل بالعلم القائم على حرية الفكر والقول والعمل المدعم بالحجة والبرهان لا يكون مذموماً بل يكون ممدوحاً .

ولما كانت حرية الفكر والقول والعمل هى وسيلة إلى الاقتناع بالحق واتباعه وأداتها النظر والبحث والاستقراء فقد دعا القرآن الكريم إلى النظر والاعتبار والاستبصار فى كثير من آياته فقال تعالى ﴿ أفلا يَتدَبَّرُونَ هذا القرآن — قلِ انْظُروا ماذا فى السمٰواتِ والأرض — أوَ لَمْ يَنْظروا فى مَلَكوتِ السمٰواتِ والأرض ﴾

وقد ذم الله تعالى التقليد فقال حكاية عن الكفار ﴿ إنّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنّا على آثارهم مُقْتَدُون ﴾ . وقال : ﴿ وإذا قيلَ لهم تعالَوْا إلى ما أنْزَلَ اللهُ وإلى الرسول قالوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عليه آباءَنا أَوَ لو كانَ آباؤُهم لا يَعْلَمون شيئاً ولا يَهْتَدون ﴾ (سورة المائدة) . وقال تعالى :

﴿ وإذا قيلَ لهُم اتَّبعوا ما أنزلَ اللهُ قالوا بل نَتَّبعُ ما ألْفَيْنا عليه آباءَنا أَوَ لو كان آباؤُهم لا يَعْقلون شيئاً ولا يَهْتَدون ﴾ (سورة البقرة)

فالله سبحانه وتعالى حينما يذكر آياته للانسان يدعوه إلى التفكير فيها والنظر اليها ويفهمه أنه ما خلق شيئاً إلا عن تقدير وعلم صحيح ، وأنه تعالى يطالب الانسان بالبرهان إن شك فى قوله أو فعله أما التكذيب المبنى على العاطفة أو الشعور أو التقليد فلا قيمة له ولا وزن .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ فالقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخرِجُ الحَيَّ من الميِّتِ ومُخرِجُ الميِّتِ من الحيِّ ذٰلكُمُ اللهُ فأنَّى تُؤْفكُون (تكذبون) . فالقُ الأَصْباح وجَعَل الليلَ سَكناً والشمسَ والقمرَ حُسباناً ذٰلك تقديرُ العزيزِ العَليم . وهوَ الذى جَعل لكُمُ النجومَ لِتَهْتَدُوا بِها فى ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ قد فَصَّلْنا الآياتِ لقَوْمٍ يعلمون . وهوَ الذى أنْشأكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ فَمُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ قد فَصَّلْنا الآيات لقوم يَفْقهون . وهوَ الذى انزلَ مِنَ السماءِ ماءً فأَخْرَجْنا به نَباتَ كلِّ شىءٍ فأَخْرَجْنا منه خَضِراً نُخْرِجُ منه حَبّاً مُتَراكِباً ومن النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانيةٌ وجَنّاتٌ من أَعنابٍ والزَّيتونَ

والرُّمَّان مُشتَبِهًا وغيرَ مُتَشابه انْظُروا إلى ثَمرِه إذا أَثْمَرَ وَيَنْعِه إنَّ فى ذٰلكم لآيات لِقَوْم يُؤْمنون﴾ (سورة الأنعام)

إذا نظرنا إلى تنسيق هذه الآيات نجد أن ذكر الآيات لم يأت إلا بعد البحث والتفكير وذكر العلم حتى تتوطد دعائمه وتثبت أركانه فى الصدور.

ولما احتج المشركون بالقدر على شركهم وأنه لو شاء الله ما أشركوا طالبهم الله بالحجة وإن كان عندهم علم بما قدره الله فليبرزوه.

قال تعالى: ﴿سَيقولُ الذين أشْرَكوا لو شاء اللهُ ماأشْرَكنا ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنا منْ شىء كذٰلك كذَّبَ الذين من قبلهم حتى ذاقوا بَأْسنا قُلْ هلْ عندَكم منْ علم فتُخْرجوه لنا إنْ تَتَّبعون إلاَّ الظنَّ وانْ أنتم إلا تَخْرُصون﴾ (تكذبون). (سورة الأنعام)

كل ذلك يدل على وجوب النظر والاستدلال والتفكر وذم التقليد، فمن دعا إلى النظر والاستدلال وإقامة الحجة والبرهان وهى دعائم حرية الفكر والقول والعمل كان على وفق القرآن ودين الأنبياء، ومن دعا إلى التقليد كان على خلاف القرآن وعلى وفاق دين الكفار.

ان الله سبحانه وتعالى دعا الى تحرير الفكر الانسانى وجعل حرية البحث القائمة على حرية التفكير والعمل أساسا للايمان به، وطريقته فى ذلك النظر والاستدلال واقامة الدليل والحجة الواضحة، وهذه كلها من أسس العلم الصحيح.

أثر هذه التعاليم فى الحضارة والتقدم

وبهذه التعاليم الصادقة انفتحت أذهان المسلمين فى الصدر الأول لطلب العلوم والمعارف ، وبلغوا فيها مبلغا كبيراً بزوا فيـــه معاصريهم من الأمم المتحضرة . ووجد العلم فى ملوك الاسلام وأمرائه أكبر حام وأقوى نصير فانبثق ضياؤه فى المشرق والمغرب كل ذلك بفضل دعوة القرآن الصريحة لفهم سنن الله الكونية حتى يعرف الانسان فضل الله العظيم وقدرته البالغة وعلمه الواسع . وبذلك أسسوا المدارس وأنشأوا الدوروالمجالس العلمية ، وترجموا الكتب الفلسفية الى العربية ودعوا العلماء غـــير المسلمين ليسمعوا منهم ، ويستفيدوا من معارفهم .

ولننقل للقارىء نبذة مما كتبه الأستاذ الأمريكى الشهير (درابر) فى كتابه (التنازع بين العلم والدين) :

قال جيبون (عند ذكر الحماية والرعاية التى بذلها المسلمون للعلوم) : كان أمراء المسلمين فى الأقاليم يناظرون الملوك فى حماية العلم والعلماء ، وكان من نتيجة تنشيطهم هذا للعلماء أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة التى بين سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتى ألف دينار لتأسيس كلية علمية فى بغداد وأوقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنويا . وكان عدد الطلبة فيها ستة آلاف لا فرق بين غنى وفقير . فكان فيها ابن السيد العظيم وابن الصانع الفقير على السواء وكانوا يكفون التلاميذ الفقراء مؤنة دفع أجر التعليم ويعطون الاساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة ، وكانت المؤلفات الجديدة الأدبية تنسخ وتجمع سداً لحاجة أهل

العلم وشهوة الأغنياء فى جمع الكتب . انتهى كلام جبون . ثم قال درابر : وكانت قيادة المدارس مودعة لذوى المدارك الواسعة فكانت اما بيد النسطوريين أواليهود لأن المسلمين لم يكونوا يتحرون عن جنسية العالم وديانته وما كانوا يزنون قدره الا من أعماله . ولقد فاه الخليفة الكبير المأمون بفكره على حقيقة العلماء فقال : أن صفوة خليقة الله ، وأفضل عباده وأنفعهم هم الذين يقفون حياتهم على تربية مواهبهم الطبيعية ، وان الذين يعلمون العلم والحكمة للناس هم مصابيح العالم ، ولولاهم لارتكس الخلق فى عماية الجهالة وغياهب البربرية . ثم قال دارير : « وقد اتبعت المدارس الطبية عموما مثال مدرسة الطب فى القاهرة : اختبار الطلبة قبل اخراجهم نهائيا ، بحيث لا يستطيع أحدهم أن يشتغل بمهنة التطبيب الا بهذا الشرط »

وأول مدرسة انشئت من هذا القبيل فى أوروبا هى المدرسة التى أسسها العرب فى (سالرن) من ايطاليا وأول مرصد أقيم فيها هو ما أقامه المسلمون فى اشبيلية باسبانيا . ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فانهم قد رقوا العلوم القديمة رقيا كبيراً جداً ، وأوجدوا علوما أخرى لم تكن معروفة من قبلهم »

ثم تكلم المؤلف على براعتهم فى العلوم الرياضية وعلى التسهيلات التى أدخلوها عليها وعلى فوقانهم فى حساب المثلثات والعلوم الفلكية وما ألفوه فيها من الكتب وما سطروه من الجداول والتقاويم ثم قال : « العلماء الفلكيون من العرب اهتموا أيضا بتحسين آلات الارصاد وتهذيبها ، وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة الأشكال ، والساعات المائية ، والسطوح المدرجة الشمسية ، وهم أول من استعمل البندول (الرقاص) لهذا الغرض »

أما فى عالم العلوم التجريبية فقد اكتشفوا الكيمياء وبعضا من محلاتها الشهيرة مثل حمض الكبريتيك وحمض النتريك والكحول (الاسبرتو) . استخدم العرب علم الكيمياء فى الطب لأنهم أول من نشر علم تحضير العلاجات والاقرباذينات واستخراج الجواهر المعدنية . أما فى علم الميكانيكا فانهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام وعرفوا تقريباً ناموس الجذب فى الأجسام وكانوا عارفين تمام المعرفة بعلم الحركة . أما فى الايدروستاتيك وهو علم موازنة السوائل وتقدير الضغط الواقع منها على أوانيها فقد كانوا أول من عمل الجداول المبينة لأنواع الأوزان النوعية وكتبوا أبحاثاً على الاجسام السابحة والغائصة تحت الماء . أما فى نظريات الضوء والأبصار فقد غيروا الفرض اليونانى الذى مقتضاه ان الابصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئى وقالوا بعكس ذلك أى ان الابصار يحصل بوصول الشعاع من المرئى إلى العين ، وكانوا يعرفون نظريات انعكاسات الأشعة وانكساراتها ، وقد اكتشف الحسن الشكل المنحنى الذى يأخذه الشعاع فى سيره فى الجو وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة فى الافق وكذلك فى الغروب نراهما قليلا بعد أن يغيبا »

إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جلياً بالتقدم الباهر الذى نالته الصنائع فى عصرهم . فقد استفادت منها فنون الزراعة فى أساليب الرى والتسميد وتربية الحيوانات وسن النظامات الزراعية الحكيمة وإدخال زراعة الأرز والسكر والبن ، وقد انتشرت المعامل والصنائع لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن وكانوا يذيبون المعادن وكانوا يجرون فى عملها على ما حسنوه وهذبوه من صنعها وسبكها .

وكان العرب من عشاق الموسيقى والشعر وقد وهبوهما وقتاً كبيراً وحبوهما مكانة من افئدتهم . وهم الذين علموا الأوربيين لعب الشطرنج وبثوا فيهم ذوق مطالعة الأقاصيص . وكان للعرب لذات روحية حتى فى المجلات الزاهرة للادبيات الفلسفية ، فكان لديهم مؤلفات عالية جداً فى تقلب الاحوال الانسانية وعلى نتائج عدم التدين وعلى زوال النعم وعلى أصل العالم وبقائه وآخرته ، وانا نندهش أحيانا حينما نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر . ومن ذلك ان مذهب النشوء والانتقال للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهبا حديثا كان يدرس فى مدارسهم وقد كانوا جروا به إلى مدى أبعد مما وصلنا اليه وذلك بتطبيقه على المواد الجامدة والمعدنية أيضا (١)

* * *

افبعد هذا توجه تهمة تأخر المسلمين الآن إلى الدين أم ان التهمة توجه إلى المسلمين بأن تأخرهم لم ينشأ إلا لأنهم لم يعملوا بأوامر دينهم وهجروا حرية التفكير والبحث إلى الجدل السقيم والتقليد الذميم .

---

(١) كتاب التنازع بين العلم والدين للاستاذ الامريكى العلامة درابر

المُثُل العليا للايمان بالله وحرية التفكير والعمل

لم يكن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليوم الآخر تصديقا بالقلب وذكراً باللسان فحسب بل يجب قيام الحجة على هذا التصديق، وذلك بالاذعان والعمل لما جاء به الله فى كتبه من الأوامر والنواهى. وأن يقف الانسان عند حدود الله تعالى ولا يتعداها، وهذا هو الايمان السليم. ذكر أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَ اليـه من والده وولده والناس أجمعين». رواه البخارى ومسلم.

ومعنى هذا الحديث: أنه لا يكمل إيمان شخص حتى يقدم ما يرضى الله ورسوله على مايرضى عشيرته والأقربين. وليس المراد بالمحبة هنا محبة الحنان والشفقة كمحبة الأولاد ولا محبة العشق كمحبة العاشق فان هاتين ليستا بالاختيار، وإنما المراد بالمحبة لازمها وهو امتثال أمر المحبوب فان من أحب إنساناً سارع فى هواه.

وصدق الايمان يقوم على دعامتين: بذل المال، وبذل النفس فى سبيل الله تعالى أى يجود الانسان بماله ونفسه فى تنفيذ أوامر الله تعالى كما قال:

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ولم يرتابوا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أولئك هم الصادقون ﴾

وثبت فى الصحيحين (البخارى ومسلم) من حديث أنس رضى الله عنه

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان : ١ — أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ٢ — وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ٣ — وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار »

وقد ضرب الله تعالى أمثلة كثيرة فى القرآن الكريم ، نذكر منها قصص ابراهيم عليه السلام الذى وفّى بعهد العبودية وضرب المثل العالى للتضحية فى أروع مظاهرها تضحية النفس والمال والولد فى سبيل مرضاة الله تعالى وتنفيذاً لأوامره غير مدخر وسعا فى ذلك ، والله تعالى شهد له بذلك على سبيل الاجمال تارة وعلى سبيل التفصيل أخرى . أما الاجمال ففى آيتين :

١ — إحداهما قوله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمّهنّ ﴾ (سورة البقرة) . وهذا شهادة من الله بأنه تمم عهد العبودية .

٢ — والثانية قوله تعالى : ﴿ إذ قال له ربُّه أسلمْ قال أسلمتُ لربِّ العالمين ﴾ (سورة البقرة)

وأما التفصيل فهو أنه عليه السلام ناظر فى إثبات التوحيد وإبطال القول بالشركاء والأنداد فى مقامات كثيرة :

فالمقام الأول فى هذا الباب : مناظرته مع أبيه حيث قال له : ﴿ يا أبت لمَ تعبُدُ ما لا يَسْمعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِي عنكَ شيئا ﴾ (سورة مريم)

والمقام الثانى : مناظرته مع قومه وهو قوله : ﴿ فلمَّا جَنَّ عليه الليلُ ﴾ (سورة الأنعام)

والمقام الثالث : مناظرته مع ملك زمانه فقال : ﴿ رَبِّيَ يُحْيِي ويُمِيت ﴾

والمقام الرابع : مناظرته مع الكفار بالفعل وهو قوله : ﴿ فجَعَلهم جُذاذاً إلاّ كبيراً لهم ﴾ ثم ان القوم قالوا : « حرِّقوه وانصُروا آلهَتكم » . ثم انه عليه السلام بعد هذه الواقعة بذل ولده فقال : « إنى أرى فى المنام أنى أذبحك » وقد هم بالفعل لو لا أن فدا الله ولده . فعند هـذه ثبت أن ابراهيم عليه السلام كان من الفتيان صادقى الايمان لأنه سلم قلبه للعرفان ، ولسانه للبرهان ، وبدنه للنيران ، وولده للقربان ، وماله للضيفان (١)

ولنشرح ما أجملنا غير مطولين ولا مسهبين :

إيمان ابراهيم عليه السلام

وكان إيمان ابراهيم عليه السلام قائماً على النظر والاستدلال ثم البرهان فاليقين . فانظر إلى قول الله تعالى كيف كان ابراهيم مؤمناً بوحدانيته وعظمته « وكذلكَ نُرِى إبراهيمَ ملكوتَ السمٰوات والأرضِ ليكونَ من المُوقنين » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جزء ٤ ص ٦٨

« فلمّا جنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً ، قال هذا ربِّى ، فلمّا أفل (غرب واختفى) قال لا أحبُّ الآفلين »

« فلمّا رأى القمر بازغاً ، قال هذا ربِّى ، فلما أفلَ قال لئن لم يَهْدنى ربِّى لأكونَنَّ من القوم الضّالين »

« فلمّا رأى الشمسَ بازغةً قال هٰذا ربِّى ، هٰذا أكبر ، فلمّا أفلتْ قال ياقوم إنّى برىء مما تشركون »

« إنّى وجّهتُ وجهىَ للذى فطرَ السموٰات والأرضَ حنيفاً وما أنا منَ المشركين »

« وحاجّه قومُه . قال أتحاجُّونّى فى الله وقد هدٰين ، ولاأخافُ ما تُشركونَ به إلّا أنْ يشاء ربّى شيئا وسِعَ ربى كلَّ شىء علما أفلا تتذكرون »

« وكيف أخافُ ما أشركتم ولا تخافون أنّكمْ أشركتم بالله ما لم يُنزِّلْ به عليكم سلطاناً ، فأىُ الفريقين أحقُّ بالأمْن إنْ كنتم تعلمون »

« الذينَ آمنوا ولم يُلْبسوا إيمانَهم بظُلْم أولٰئكَ لهمُ الأمْنُ وهم مُهْتدون »

« وتلكَ حُجّتُنا آتيناها ابراهيمَ على قومِه نَرفعُ درجاتٍ مَنْ نَشاءُ ، إنَّ

ربّك حكيم عليم . (سورة الأنعام)

ليس المقصود من اراءة الله تعالى ابراهيم ملكوت السموات والأرض هو أن يرى ابراهيم هذا الملكوت ، بل المقصود أن يراها فيتوسل بها إلى معرفة جلال الله تعالى وقدسه وعلوه وعظمته . لذلك لما تم الاستدلال بالنجم والقمر والشمس قال بعده انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض فحكم على السموات والارض بكونها مخلوقات لأجل الدليل الذى ذكره ، والمراد من اراءة الملكوت تعريف كيفية دلالتها بحسب تغيرها وإمكانها وحدوثها على وجود الاله العالم القادر — ولما كان اليقين هو العلم المستفاد من الدليل وجب أن تكون تلك الآراء عبارة عن الاستدلال. وان جميع مخلوقات الله تعالى دالة على وجود الصانع وقدرته باعتبار واحد وهو أنها محدثة ممكنة . وكل محدث ممكن فهو محتاج إلى الصانع ، وإذا عرف الانسان هذا الوجه الواحد فقد كفاه ذلك فى الاستدلال على الصانع .

وبعد هذا البيان وإقامة الدليل على وحدانية الله تعالى أبان سبحانه عن قانونه الخالد بأن الأمن فى الحياة الدنيا والآخرة لا يكون إلا للذين وحدوا الله ولم يشركوا به شيئاً من وسطاء وشفعاء ودليل الايمان بالله اتباع أوامره واجتناب نواهيه فهؤلاء هم المؤمنون المهتدون الذين كتب الله لهم السلامة والعافية فى الدنيا والآخرة .

كانت حجة ابراهيم عليه السلام فى ايمانه واضحة جلية وقد دعا إلى الايمان بالله تعالى ملك زمانه كما دعا قومه وكان صريحاً لا يخشى فى الحق لومة لائم . جريئا لا يهاب الباطل ولا يحفل بما يحيط به من مظاهر القوة والبطش والسلطان . انظر إلى ما ذكر الله تعالى عنه :

﴿ ألمْ تَرَ إلى الذى حاجَّ ابراهيمَ فى ربِّه أن آتاهُ اللهُ الملكَ إذْ قال ابراهيمُ ربِّى الذى يُحْيى ويُمِيتُ، قال أنا أُحْيى وأُمِيت . قال ابراهيمُ فإن اللهَ يأتى بالشمسِ من المَشْرِقِ فأْتِ بها منَ المغربِ ، فبُهِتَ الذى كفرَ واللهُ لا يَهْدى القومَ الظالمين ﴾ (سورة البقرة)

ومعنى هذا : هل انتهى الى علمك يامحمد خبر الذى خاصم ابراهيم فى ربه وجادله ؟ وهو نمروذ ، فقال أحيى بالعفو وأميت بالقتل . فقال له ابراهيم : فهل تقدر على تغيير الأفلاك وقلب نظام الشمس فى سيرها ؟ فصار الذى كفر مبهوتا وانتهى من المجادلة مقهوراً .

والقرآن هنا يبين لنا مدى حرية الفكر والمناقشة وأن الاقناع لا يقوم إلا على الدليل . وان الايمان الصادق قوامه اليقين القائم على الحجة الواضحة فآيات الله فى الكون من ابداع الخلق على أحسن نظام وأجمل تنسيق فيه الدلائل البينات والحجج الواضحة على وحدانيـــة الله تعالى وانفراده بالملك وذلك مما يدعو الى الاخلاص له فى العبودية والطاعة . وآيات الله تعالى لا نهاية لها ، منها الثابت ومنها ما يتكرر ، فالشمس والقمر والنجوم والارض فهى ثابتـــة الى حين والحياة والموت والنوم واليقظة والصحة والمرض والظلمات والنور تتكرر ويشهدها الانسان فى حياته وتشهد بأن الله قادر عليم . ومع كل هذه الدلائل طلب ابراهيم من الله تعالى أن يريه كيف يحيى الموتى زيادة فى التأكيد والاطمئنان قال تعالى : ﴿ وإذْ قال ابراهيمُ ربِّ أرِنى كيفَ تُحْيى الموتَى ، قال أوَ لمْ تُؤْمِنْ قال بَلَى ولكنْ ليَطْمَئِنَّ قلبى

قال فَخُذْ أربعةً من الطير فصرْهُنَّ اليكَ ثم اجعلْ على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءاً ثم ادْعُهنَّ يأتينَكَ سَعْياً واعلم أنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم ﴾ (سورة البقرة)

طلب ابراهيم من ربه هذا زيادة فى العلم ورغبة فى استكناه الحقائق وتشوقا إلى الوقوف على أسرار الخليقة مما فطر الله عليه الانسان . وأكمل الناس علماً وفهماً أشدهم للعلم طلبا والوقوف على المجهولات تشوقا ولن يصل أحد من الخلق إلى الاحاطة بكل شىء علما . وقليل كل موجود فقها وفهما

الايمان يزداد وينقص ويقوى ويضعف ويظهر ويختفى حسب الظروف والأحوال . وعلى مقدار العلم والفهم . فكلما اشتغل الانسان بربه وذلك عن طريق دراسة آياته فى الكون وسنن الوجود التى وضعها وفطرة الانسان التى فطر عليها ، كلما ازداد علما بقدرة الصانع الحكيم ، وازداد إيمانا بوجود الله تعالى وحكمته البالغة ، وعلمه الذى لا تحده الأفهام ولا تحيط به العقول مهما بلغت من الادراك .

وابراهيم عليه السلام هو المثل العالى للايمان الذى أقام البرهان على صحة إيمانه مع قومه وجاهد فى سبيل عقيدته بنفسه وماله وولده وعادى قومه فى سبيل نصرة دينه والاحتفاظ بايمانه بربه ، وآثر مرضاة الله على غيرها ، يشهد الله تعالى وكفى بالله شهيداً قال تعالى :

﴿ واتْلُ عليهم نَبأَ ابراهيمَ إذْ قال لأبيه وقومه ما تَعْبُدونَ
« قالوا نَعْبُدُ أصناما فَنَظَلُّ لها عاكفين

« قال هل يَسْمَعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون

« قالوا بل وَجَدْنا آباءنا كذلك يفعلون

« قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدوٌّ لى إلّا ربّ العالمين

« الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يُطعمنى ويسقين . وإذا مرضتُ فهو يشفين . والذى يُميتنى ثم يُحيين . والذى أطمع فى أن يغفر لى خطيئتى يومَ الدين

« ربِّ هَبْ لى حُكما وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسانَ صِدْقٍ فى الآخرين . واجعلنى من وَرَثة جنّة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضّالين . ولا تُخزنى يوم يُبعثون . يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليم » (سورة الشعراء)

لينظر القارىء كيف استدل ابراهيم عليه السلام بالبرهان المحسوس على الايمان بالله بما له من آثار ملموسة وآيات بينات ، فذكر ان الله الخالق ولا خالق غيره . وعمليـــة خلق الانسان تشمل علوما كثيرة فكلية الطب وما

حوت من دراسة علم التشريح ، وعلم الجنين ، وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم الصحة ، والأمراض على اختلافها كل ذلك أداة ليعرف الانسان قدرة الله عز وجل فى خلقه ، وكيف أبدعه على أحسن صورة وكيف سخر الشمس والقمر والأرض والكواكب لتغذيته ، وذلك بجريان الماء وانبات النبات والزروع المختلفـــة الأشكال والألوان ثم بعد ذلك يموت الانسان ويبعث لحياة أرقى وأكمل من هذه الحياة إن كان من المجدين العاملين الصالحين . وبعد ذكر حياة الانسان وبعثه طلب ابراهيم عليه السلام من ربه أن يهبه حكما أى كمالا فى العلم والعمل ليستعد بذلك لخلافة الله ورياسة المخلوقين ، وذلك صفة الصالحين التى تلحق الانسان بهم ولذلك أعقبها بالثانية فقـال : (وألحقنى بالصالحين) أى وفقنى للكمال فى العمل لأنتظم به فى عداد الكاملين فى الصلاح وبذلك يكون سعيد الدارين . سعيداً فى دنياه بما زكى به نفسه من العلم والعرفان وصحة اليقين واتباع سنن الله وانسجامه فى الحيـاة مع حقائقها الخالدة فهانت عليه نفسه وولده وماله فى سـبيل نصرة الحق ، وان يكون عبداً خالصا لله مبرءاً من الهوى . وسعيداً فى أخراه بما اكتسب من معارف وأخلاق فاضلة وأعمال صالحة جعلته فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

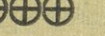

الاساس الثالث — العمل الصالح

ما ذكر القرآن الايمان إلا وقرنه بالعمل الصالح — وهذا العمل إما أن يكون أمراً بفعل خير أو نهيا عن شر . فعمل الطاعات وترك المعاصى هو محور الايمان الذى تدور حوله أوامر الله ونواهيه قال تعالى: ﴿ والذينَ آمَنُوا وعملوا الصالحات أُولٰئكَ أَصْحابُ الجنَّة هم فيها خالدون ﴾ (سورة البقرة) . وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ (سورة الأنفال)

والعمل الصالح ذكر مجملا لأنه يتكيف حسب الظروف والأحوال والأفراد القائمين به كما ذكر مفصلا قال تعالى : ﴿ ليسَ البِرّ أن تُولُّوا وُجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ولٰكنَّ البرَّ مَن آمنَ بالله واليوم الآخر والملائكةِ والكتابِ والنبيّين وآتى المالَ على حُبِّه ذَوى القُربٰى واليتامٰى والمساكين وابنِ السَّبيلِ والسائلينَ وفى الرِّقاب ، وأقامَ الصَّلاةَ وآتى الزكاةَ والموفُونَ بعهدهم إذا عاهَدُوا والصابرينَ فى البأْساءِ والضَّرّاءِ وحينَ البأْسِ أُولٰئكَ الذين صَدَقوا وأُولٰئكَ هم المتقُون ﴾ (سورة البقرة)

ذكر الله تعالى بعد بيان أصول الايمان أصول الأعمال الصالحة التى هى ثمرته وبدأ بأقواها دلالة عليه فقال « وآتى المال على حبه » أى وأعطى المال لأجل حبه تعالى أو على حبه إياه أى المال ، وهـــذا الايتاء غير إيتاء الزكاة الآتى وهو ركن من أركان البر ومندوب اليه كالزكاة وإن لم يكن فرضاً وذلك حيث تعرض الحاجة إلى البذل فى غير وقت اداء الزكاة بأن يرى الواجد مضطراً بعد اداء الزكاة أو قبل تمام الحول . وهو لا يشترط فيه نصاب معين بل هو على حسب الاستطاعة فاذا كان لا يملك إلا رغيفاً ورأى مضطراً اليه فى حال استغنائه عنه بأن لم يكن محتاجاً اليه بنفسه أو لمن تجب عليه نفقته وجب عليه بذله . وليس المضطر وحده هو الذى له الحق فى ذلك بل أمر الله تعالى المؤمن أن يعطى من غير الزكاة « ذوى القربى » وهم أحق الناس بالبر والصلة فان الانسان إذا احتاج وفى أقاربه غنى فان نفسه تتوجه اليه بعاطفة الرحم . ومن المغروز فى الفطرة ان الانسان يألم لفاقة ذوى رحمه وعدمهم أشد مما يألم لفاقة غيرهم فانه يهون بهوانهم ويعتز بعزتهم . فمن قطع الرحم ورضى بأن ينعم وذوو قرباه بائسون فهو برىء من الفطرة والدين ، وبعيد من الخير والبر . ومن كان أقرب رحماً كان حقه آكد وصلته أفضل

« واليتامى » فانهم لموت كافلهم تتعلق كفايتهم بأهل الوجد واليسار من المسلمين ، كيلا تسوء حالهم وتفسد تربيتهم ، فيكونوا مصاباً على أنفسهم ، وعلى الناس .

« والمساكين » فانهم لما قعد بهم العجز عن كسب ما يكفيهم ، وسكنت نفوسهم للرضى بالقليل عن مد كف الذليل ، وجبت مساعدتهم ومواساتهم على المستطيع .

« وابن السبيل » المنقطع فى السفر لا يتصل بأهل ولا قرابة .

« والسائلين » الذين تدفعهم الحاجة العارضة إلى تكفف الناس. والسؤال محرم شرعاً إلا لضرورة ، يجب على السائل أن لا يتعداها .

« وفى الرقاب » أى فى تحريرها وعتقها ، وهو يشمل ابتياع الأرقاء وعتقهم واعانة المكاتبين (وهو من يشترى نفسه من مولاه بثمن ويجعله مقسطاً) على أداء نجومهم ، ومساعدة الأسرى على الافتداء .

« واقام الصلاة » وهذا هو الركن الروحانى الركين للبر . واقام الصلاة التى يكرر القرآن المطالبة بها لا تتحقق بأداء أفعال الصلاة وأقوالها . وإنما البر والتقوى فى سر الصلاة وروحها التى تصدر عنه آثارها من النهى عن الفحشاء والمنكر وقلب الطباع السقيمة ، والاستعاضة عنها بالغرائز المستقيمة ، فقد قال تعالى : « إنّ الانسان خُلِقَ هلُوعا . إذا مَسَّه الشرُّ جزوعا . وإذا مسَّه الخيرُ مَنوعا . إلا المصلين » . فمن حافظ على الصلاة الحقيقية تطهرت نفسه من الهلع والجزع إذا مسه الشر ، ومن البخل والمنع إذا مسه الخير وكان شجاعاً كريماً قوى العزيمة ، شديد الشكيمة ، لا يرضى بالضيم ، ولا يخشى فى الحق العذل واللوم .

« وآتى الزكاة » قلما تذكر اقامة الصلاة فى القرآن إلا ويقرن بها ايتاء الزكاة . فالصلاة مهذبة للروح ، والمال كما يقولون قرين الروح فبذله فى سبيل الحق ركن عظيم من أركان البر وآية من أظهر آيات الايمان ، وقد بينت السنة بالهدى والعمل كيفية الأخذ وقدر المأخوذ وسائر الأحكام .

ثم قال تعالى : « والموفُونَ بعهْدهم اذا عاهدوا » والعهد عبارة عما يلتزم به المرء لآخر وهو بعمومه يشمل ما عاهد المؤمنون عليه الله بايمانهم من

السمع والطاعة والاذعان لكل ما جاء به دينه ، ويشترط فى وجوب الوفاء بالعهد ان لا يكون فى معصية . وفى معنى العهود العقود وقد أمرنا بالوفاء بها فيجب على المسلم أن يلتزم الوفاء بما يتعاقد عليه مع الناس ما لم يكن مخالفاً لأمر الله ورسوله الثابت عنده ولقواعد الدين العامة . وقد قال أهل القوانين الوضعية : ان كل التزام يخالف أصول القوانين فهو باطل . وقد قال الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده : الغدر والاخلاف من الذنوب الهادمة للنظام المفسدة للعمران المفنية للأمم ، وما فقدت أمة الوفاء الذى هو ركن الأمانة وقوام الصدق الا وحل بها العقاب الإلهى .

« والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس » قالوا ان البأساء اسم من البؤس وهو الشدة والفقر والضراء ما يضر الانسان من نحو مرض أو قرح أو فقد محبوب من مال وأهل . وفسروا البأس باشتداد الحرب ، والصبر يحمد فى هذه المواطن وفى غيرها ، وخص هذه الثلاث بالذكر لأن من صبر فيها كان فى غيرها أصبر . وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر ، وعبر عنه فى بعضها بالكفر . فلا غرو أن يجعل الصبر فى البأس أصلا من أصول الايمان ، وقد كان المسلمون بارشاد هذه النصوص أعظم أمة حربية فى العالم .

وانظر بعد هذا حكم الله تعالى على البررة المؤمنين الذين يقيمون ما تقدم ذكره من أركان البر والايمان قال : « أولئك الذين صدقوا » فى دعوى الايمان دون الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم « وأولئك هم المتقون » الذين تشهد لهم بالتقوى أعمالهم واحوالهم . والتقوى أن تجعل بينك وبين

سخط الله وقاية بأن تتحامى أسباب خذلانه فى الدنيا وعذابه فى الآخرة (١)

العمل الصالح برهان على صون العقيدة وثمرة من ثمارها وقد جعل الله سعادة المؤمن فيهما ولم يجعلها لصاحب العقيدة بدون عمل صالح. وهذه آيات القرآن الكريم تدلك على ذلك، وترشدك إلى أن العمل ضرورى للمؤمن، وأن السعادة فى الدنيا والجنة فى الآخرة لا تنال بغير العمل.

قال تعالى: ﴿ من عَمِلَ صالحاً من ذَكر أو أُنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنَجْزينّهم أجرَهم بأحسَنِ ما كانوا يَعْملون ﴾ (سورة النحل)

وقال تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحات كانتْ لهم جَنّاتُ الفِرْدَوْس نُزلا ﴾ « ما أعد للضيف لينزل فيه ». (سورة الكهف)

إن من يدعى الايمان بالله ويعصيه ويصر على ذلك العصيان لا يبالى الله تعالى بايمانه، ولا يقيم لعقيدته وزنا لأنها من الوهن والضعف بمكان.

قال تعالى: ﴿ يَتَساءلونَ عن المُجْرمين ما سلككم فى سَقَر (جهنم) قالوا لم نَكُ من المصلّين. ولم نَكُ نُطعم المسكين. وكنا نَخُوض مع الخائضين. وكنا نُكذّب بيوم الدين. حتى أتانا اليَقين. فما تَنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ (سورة المدثر)

---

(١) تفسير المنار جزء ٢ ص ١١٩ وما بعدها

والانسان لا يستطيع الولاية والخلافة فى الأرض إلا إذا كان عالماً بطرق الاصلاح ملماً بما يجب عمله لعمارتها واستغلالها عارفاً بوسائل الاستثمار فى شتى النواحى التى تتطلبها الحاجة والظروف المحيطة به وقد ذكر الله تعالى ذلك فى كثير من الآيات مفصلة كما قدمنا ومجملة قال تعالى : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ (سورة الأنبياء)

ذكر الاستاذ الفيلسوف المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى تقسيم الصلاح وكيف يكون قال :

اعلم أن الله عز وجل لا يضع شيئاً فى غير موضعه لأنه وزن كل شىء وقدره تقديراً . أنظر ألست ترى من أسكن الطيور أشجارها ، والحيات أوكارها ، والهوام ترابها ، والحشرات أوطانها ، والحيوانات البرية أقطارها ، والسمك بحارها ، والطيارات التى صنعها الانسان حلقت فى جوها . وضع الله كل مخلوق فى المكان الذى استعد له هكذا هنا يقول جل جلاله : كتبت فى كتابى الأول وأتبعته بكتابى الثانى كتبت فى لوحى المحفوظ وأتبعته بكتابى المنزل وقلت لكم لا أعطى القوس إلا باريها ، ولا أسكن الدار إلا بانيها ، ولا أعطى شنا إلا إلى طبقة (فتاة وفتى توافقا طبعا فتزوجا) ولا أعشق كثيراً إلا فى عزة ، ولا أعطى إلا بمقدار ، ولا أهب إلا على استعداد فأنا حكيم والحكمة هى التى بها قامت السموات والارض فهل ترون فى خلقى من تفاوت ، وهل رأيتم فى عملى عوجا ، أنظروا ياعبادى أنظروا فصلاح كل شىء بحسبه ولا أعطى الشىء الا لما يصلح له فالصلاح للملك فى الارض بأربعة شرائط وهى :

١ — أن يكون القادة فى الأمة علماء حكماء مفكرين فهم يكونون أشبه بالعقل فى الدماغ بالجسم الانسانى .

٢ — أن يكون للأمة جيش منظم يقوده ضباط على شريطة أن يخضع لأولئك العقلاء وهذا أشبه بالقوة الدموية فى جسم الانسان التى يقوم بتصريفها القلب فى تجويفى الأذنين وتجويفى البطنين والحركات المنظمة بطريق الآلة الماصة الكابسة أى الجاذبة والرافعة .

٣ — أن يكون الفلاحون والعمال والصناع قائمين بأعمالهم مطيعين للفريقين .

٤ — أن تنظم هذه الطوائف الثلاث بحيث تقسم جميع أعمال الدولة عليهم والصناعات التى يحتاج اليها العمران الانسانى . فلا يذرون علما ولا صناعة إلا قسمها أولئك الرؤساء على الشعب .

هذا هو الصلاح الذى ذكره الله للملك فى الأرض [١]

إن المدقق النظر فى القرآن الكريم يرى ذلك الانسجام المحكم فى القواعد التى وضعها الله عز وجل للخلافة فى الأرض فقد استخلف آدم بعد أن علمه الأسماء كلها أى أعده وعرفه القواعد التى يسير عليها لاستثمارها وحكمها وهذه الخلافة وعد من الله لذرية آدم لمن قام بشروطها وبجملها الاصلاح أى العمل المصلح المنتج المفيد ولا يكون ذلك إلا عن طريق العلم .

فالعمل الصالح - ولن يكون صالحاً إلا بالعلم - يكون الانسان به صاحب

---

(١) الجواهر فى تفسير القرآن الكريم للاستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى الجزء العاشر ص ٢٣٣

السلطان فى الأرض يذللها لمآربه ويستثمرها فى حاجاته ويحتكم فيها غير معارض ولا منازع . فكل من تقاعد عن العلم والعمل فقد عطل نعمة الله وأصبح من الخاسرين المستحبدين الذين عصوا الله وكفروا نعمته ، وقد قال الله فيهم ﴿ إنَّ الذين كفروا من أهْل الكتاب والمشركينَ فى نارجهنَّم خالدينَ فيها أولئك هم شرُّ البرية (الخلق) ﴾ وأما الذين علموا وعملوا ، واتخذوا العلم سراجهم والفكر قائدهم ، واهتدوا بهدى ربهم فقد قال الله تعالى ! ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خيرالبرية ﴾ (سورة البينة)

وكان من أثر هذه التعاليم السامية انتشار الاسلام وتحقيق مبادئه مما جعل النظام والعدل يسود كل أمة دخلها كما رفع شأنها اجتماعياً واقتصادياً وعملياً ولنسق الدليل مما كتبه علماء الغرب عن حالة اسبانيا حينما دخلها المسلمون ولنذكر ما كانت عليه حالة الاسبانيين قبل دخول المسلمين وبعد دخولهم لنبين صحة ما نقول :

ما كانت عليه اسبانيا قبل فتح المسلمين

قال المؤرخ الفرنسى الكبير (سديو) فى كتابه خلاصة تاريخ العرب ما تعريبه :

« غلب على شبه جزيرة اسبانيا قبل الهجرة المحمدية بمائتين واثنين وعشرين سنة قبيلة تعرف بالويزيغوط كان ملكهم يمتد إلى طنجة وسبته من مراكش وكانوا قد هزموا موسى بن نصير حين حاصر سبته سنة (٦٤) للهجرة كما هزمه ثانية فيها الملك وزيتا الوزيغوطى سنة (٩١) حين دهمها مرة أخرى ، وكانت مملكة اسبانيا كثيرة الرجال واسعة الأقاليم ولكن

الحكومة فيها كانت مختلة والأمة كانت تتألف من جماعات متعادية وكانوا واقعين جميعاً تحت سلطان القسوس فكانوا يتقاضون منهم أتاوات باهظة وكانت الشريعة التي يحكمون بها مزيجاً من القانون الروماني وعوائد القبائل الجرمانية فكانت الأمة في حالة من التأخر بحيث لا تستطيع امداد المملكة بمقوماتها وكان الرعايا مستعبدين لمهنتهم الزراعية وهي حالة تنتزع من قلوبهم الوطنية والشمم وكان اضطهاد اليهود بالغاً أشده مما ملأ قلوبهم بالاحقاد والسخائم على حكومة البلاد» الخ.

إلى أي حال آلت اسبانيا تحت حكم المسلمين

وقال الاستاذ سديو المذكور في كتابه خلاصة تاريخ العرب ما ملخصه:

كان عرب اسبانيا متفوقين على الفرنج في العلوم والصنائع والأخلاق الكريمة مما حبب لملوك قسطيلة ونواره أن يقدموا إلى قرطبة لاستشارة أطبائها الذين كانوا معروفين بتضلعهم في هذه الصناعة.

وكان هؤلاء العرب حيث وجدوا يبجلون الشيوخ ويتنافسون في إقامة معالم العدل ويغارون على مراعاة تطبيقه ويدينون بالمساواة العامة لا ميزة لغنيهم على فقيرهم. فلا يمنع فقر أحدهم أن يبلغ إلى أرقى المراتب ما دامت تؤهله لها صفاته الخاصة. ولا يعولون في انزال الناس منازلهم من الكرامة على أحسابهم وأنسابهم ولكن على مميزاتهم العقلية وفضائلهم النفسية لأنهم كانوا يترسمون خطوات القرآن الذي يحضهم على اكتساب الفضائل والتوسع في الأعمال الصالحة وكان خلفاؤهم يحثونهم على العمل المنتج وعدم العدوان على الناس

والذى ساعد هؤلاء العرب على بلوغهم أبعد شاو من العظمة اتساع دائرة العلوم والفنون لديهم وانتشار المعارف الفلاحية والصناعية فيهم . لهذا ذاق جميعهم لذة العلم وتنافسوا فى ابتكار ما يمتازون به من الأعمال النافعة .

وكان من شروط القيام بمهمة القضاء فيهم أن يكون القضاة حاصلين على معارف واسعة وكانوا يكتبون على كل بناء اسم المهندس الذى شيده واسم الآمر باقامته وقد عرف عنهم انهم بلغوا رقياً عظيما فى فنون العمارة وكانوا يجزلون الثناء على كل ماهر فى صناعته ويشيدون بذكره تنشيطاً لغيره وقد اقتفى الأفرنج أثرهم فى أساليب أبنيتهم وزخرفتها .

وقد علم العرب فى مدارسهم علوم الفلك والجغرافيا والمنطق والطب والنحو والهندسة والجبر والطبيعة والكيميا الطبية والتاريخ الطبيعى وهو علم المواليد الأرضية الثلاثة وحشروا إلى مكتباتهم كتباً نقلوها إلى لغتهم من علوم قدماء اليونانيين وفلاسفة الاسكندرية حتى أن (جوبرت) الذى تولى البابوية فى آخر القرن العاشر كان قد أخذ بعض العلوم عن العرب فأظهرها لمعاصريه فأخذهم منها العجب واتهموه بالسحر من أجلها (١) »

فبفضل الاسلام يسجل التاريخ للأمة العربيـــة أنها كانت محيية العلوم الدارسة والفنون الطامسة . وأنها كانت سبباً لايقاظ البشرية من سباتها العميق ودفعها فى سبيل الحياة والمدنية . وما زال القرآن ينادى فى جميع آياته بالتعلم والعلم والاستزادة منه حتى يبقى للأمة مجدها وعزها وعلو شأنها .

---

(١) من مجلة الأزهر المجلد سادس ص ١٢٣

وجوب التعلم

والاستزادة من العلم

دعا القرآن الكريم إلى الاستزادة من العلم فى عبارة صريحة واضحة فقال تعالى لنبيه : «وقل ربى زدنى علماً» لأنه وسيلة إلى معرفة أسرار ما فى الكون كما أنه وسيلة لتعرف قدرة خالقه ومدبره والطريق إلى القرب منه والاستزادة من فضله ورضوانه . وجاء القصص القرآنى مؤيداً لهذه القاعدة وإن الانسان لا يجب أن يقف عند علمه مهما بلغ من السعة والاطلاع . وليقرأ الانسان قصة موسى عليه السلام فى القرآن ليرى ما يجب عليه من البحث وراء الحقائق والكشف عنها والتزود منها وأن حدودها لا تقف عند حصر ولا عد .

موسى عليه السلام هو « فتوة » الأنبياء نشأ فى عصر العلم وتربى فى بيت العلم وحباه الله ورعاه بالعلم وجاهد وناضل حكومة العلم ليردها عن طغيانها وينقذ قومه مما كانوا فيه . وشهد له الملأ من قوم فرعون يوم أتاهم بالمعجزات وقالوا « إن هذا لساحر عليم » . (سورة الاعراف) . قال تعالى فى سورة القصص : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعونَ بالحقِّ لقوم يؤمنون . إنَّ فرعون علا فى الأرض وجعلَ أهلها شيعاً يستضعفُ طائفةً منهم يُذبِّحُ أبناءهم ويَستحيي نساءَهم انه كان من المفسدين . ونُريد أن نمنَّ على الذينَ استُضعفوا فى الأرضِ ونَجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين . ونُمكِّنَ لهم فى الأرضِ ونُرىَ

فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون . وأوحَيْنا إلى أمِّ موسى أنْ أرْضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليمِّ ولا تخافى ولا تحزنى إنّا رادُّوه اليك وجاعلُوه من المرسلين . فالتقطه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عَدُوّاً وحَزَناً إنَّ فرعون وهامان وجنودَهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعونَ قُرَّةُ عَينٍ لى ولكَ لا تقتلوه عسى أن ينْفَعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يَشْعرون . وأصبحَ فؤادُ أمِّ موسى فارغاً إنْ كادَتْ لتُبْدى به لو لا أن رَبَطْنا على قلبها لتكونَ من المؤمنين . وقالت لأخته قصِّيه فبصُرتْ به عن جَنْبٍ وهم لا يشْعُرون . وحَرَّمْنا عليه المراضعَ من قبلُ فقالت هلْ أدُلُّكم على أهلِ بيتٍ يكفلونَهُ لكم وهم له ناصحُون فرددْناه إلى أمِّه كى تَقَرَّ عينُها ولا تحزَنَ ولتعلمَ أنَّ وَعْدَ الله حقٌّ ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون . ولما بلغ أشدَّه واستوى آتيناه حُكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين »

وطبيعى أن تكون أم موسى بعد أن أتمت رضاعه قد أتت به إلى بيت فرعون وتولى القصر الفرعونى تربيته كما كانوا يربون ابناء الملوك فى ذلك العهد بواسطة الكهنة ورجال الدين بحسب التقاليد التى كانت لذلك البيت فى تلك الأيام وأن يكون موسى قد تعلم تعليما راقياً ولتقرأ هذه الآية : « ولما

بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكماً وعِلماً وكذلكَ نَجْزِى المُحْسِنِين » وقال فرعون لموسى يوم حمل اليه الرسالة من الله عز وجل « ألم نُرَبِّكَ فينا وَلِيداً ولبثتَ فينا من عمرك سنين . وفَعَلتَ فعلتك التى فعلت وأنت منَ الكافرين (يذكره بقتله للمصرى حينما استصرخه أحد شيعته فركزه موسى فقضى عليه ثم هرب إلى مدين ثم رجع بالرسالة ولذلك أجابه موسى عليه السلام : قال فعلتُها وأنا من الضالّين . ففررتُ منكم لمّا خفتُكم فوهبَ لى ربى حُكما وجعلنى من المرسلين » (سورة الشعراء)

وقد ورد فى صحيح البخارى عن أبى بن كعب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قام موسى النبى خطيباً فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال أنا أعلم . فعتب الله عليه إذ لم يَرد العلم إلى الله . فأوحى الله اليه : إن عبداً من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك . فقال يارب وكيف به ؟ ! فقيل له احمل حوتاً فى مكتل (شىء يشبه الزنبيل) فاذا فقدته فهو ثم . فانطلق وانطلق بفتاه يوشع بن نون وحملا حوتاً فى مكتل حتى إذا كانا عند الصخرة وضعا رؤسهما فناما فانسل الحوت من المكتل فاتخذ سبيله فى البحر سربا . وكان لموسى وفتاه عجبا . فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما فلما أصبحا قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . ولم يجد موسى مسا من النصب حتى جاوز المكان الذى أمر به . فقال له فتاه أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فانى نسيت الحوت . قال موسى ذلك ما كنا نبغى . فارتدا على آثارهما قصصاً . فلما انتهيا إلى الصخرة إذا رجل مسجى بثوب . أو قال تسجى بثوبه (غ ى) . فسلم موسى فقال الخضر وانى بارضك السلام

فقال أنا موسى. فقال : موسى نبي اسرائيل !! قال نعم . قال هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً ؟! قال إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى . إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه . وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه . قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمراً . فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينة . فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما فعرف الخضر فحملوهما بغير نول (أجر) فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين من البحر فقال الخضر يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر . فعمد الخضر إلى لوح من الواح السفينة فنزعه . فقال موسى قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها !! قال ألم أقل لك لن تستطيع معي صبراً ! قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً . فكانت الأولى من موسى نسياناً . فانطلقا فاذا بغلام يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده ! فقال موسى أقتلت نفساً زكية بغير نفس ! قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما . فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض قال الخضر بيده فاقامه . فقال موسى لو شئت لاتخذت عليه أجراً . قال هذا فراق بيني وبينك . قال النبي صلى الله عليه وسلم : يرحم الله موسى لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما .

وقد ذكر القرآن الكريم هذه القصة في سورة الكهف فقال تعالى : « وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا ... إلى أن قال تعالى: وجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا . قال إنك لن تستطيع

معى صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً . قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً . فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا . قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً . قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يُضيِّفوهما فوجدا فيه جداراً يريد أن ينقضَّ فأقامه قال لو شئتَ لاتخذتَ عليه أجراً . قال هذا فراقُ بينى وبينك سأنبِّئك بتأويل ما لم تستطعْ عليه صبراً . أما السفينةُ فكانت لمساكينَ يعملونَ فى البحر فأردتُ أن أعيبَها وكان وراءهم ملك يأخذ كلَّ سفينة غصباً . وأما الغلامُ فكان أبواه مؤمنَيْن فخشينا أن يُرْهقَهما طُغياناً وكفراً . فأردنا أن يبدِّلهما ربُّهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحْماً . وأما الجدارُ فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يَبلُغا أشدَّهما ويستخرجا كنزَهما رحمةً من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تَسْتطعْ عليه صبراً ،

إن هذه المسائل الثلاث مشتركة فى شىء واحد وهو أن أحكام الأنبياء صلوات الله عليهم مبنية على الظواهر كما فى الحديث « نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » وهذا العالم ما كانت أحكامه مبنية على ظواهر الأمور بل

كانت مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة فى نفس الأمر ، وذلك لأن الظاهر يحرم التصرف فى أموال الناس وفى أرواحهم فى المسألة الأولى وفى الثانية من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف لأن تخريق السفينة تنقيص لملك الانسان من غير سبب ظاهر ، وقتل الغلام تفويت لنفس معصومة من غير سبب ظاهر ، والاقدام على إقامة ذلك الجدار المائل فى المسألة الثالثة تحمل للتعب والمشقة من غير سبب ظاهر . وفى هذه المسائل الثلاث ليس حكم ذلك العالم فيها مبنياً على الأسباب الظاهرة المعلومة بل كان ذلك الحكم مبنياً على أسباب معتبرة فى نفس الأمر . وهذا يدل على أن ذلك العالم كان قد آتاه الله قوة عقلية إدراكية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور ، ويطلع بها على حقائق الأشياء . فكانت مرتبة موسى عليه السلام فى معرفة الشرائع والأحكام بناء الأمر على الظواهر ، وهذا العالم كانت مرتبته الوقوف على بواطن الأشياء وحقائق الأمور والاطلاع على أسرارها الكامنة فبهذا الطريق كانت مرتبته فى العلم فوق مرتبة موسى عليه السلام ، وإن المسائل الثلاث مبنية على قاعدة واحدة وهى أنه عند تعارض الضررين يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى .

وإن كمال الدرجة فى العلم أن ينتقل الانسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الاشراف على البواطن والتطلع إلى حقائق الأمور .

إن العلم بظواهر الأشياء يمكن تحصيله بناء على معرفة الشرائع الظاهرة وأما العلم ببواطن الأشياء فانما يمكن تحصيله بناء على تصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الجسدانية ، ولهذا المعنى قال تعالى فى

صفة ذلك العالم « وعلمناه من لدنا علماً » (الجزء الخامس من تفسير الفخر الرازى ص ٥٠١)

قال النبي صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس تعلموا ، العلم بالتعلم والفقه بالتفقه ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » (رواه ابن أبى عاصم والطبرى من حديث معاوية) وقال ابن عباس : كونوا ربانيين حلماء فقهاء علماء . ويقال الربانى الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره وصغاره ما وضح من مسائله وكباره ما دق منها . وقال عمر رضى الله عنه : تفقهوا قبل أن تسودوا وقد تعلم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى كبر سنهم .

والحديث دل على أن الغبطة لا تكون إلا بأحد أمرين العلم والجود ولا يكون الجود محموداً إلا إذا كان بعلم فكأنه يقول: تعلموا العلم قبل حصول الرياسة لتغبطوا إذا غبطتم بحق . وهناك وجه آخر ان تعجلتم الرياسة التى من عاداتها أن تمنع صاحبها من العلم فاتركوا تلك العادة وتعلموا العلم لتحصل لكم الغبطة الحقيقية . ومعنى الغبطة تمنى المرء أن يكون له نظير ما للآخر من غير أن يزول عنه .

***

وقصة موسى مع عبد الله العالم تدلنا على أشياء كثيرة نستخلص منها ما يأتى : —

أولا — إن العلوم لا حد لها . ويجب أن يتعلم الانسان طيلة حياته من المهد إلى اللحد .

ثانياً — إن على الانسان أن يتزود من العلم بقدر جهده وينمى معارفه فى كل وقت ما استطاع إلى ذلك سبيلا . قال عليه الصلاة والسلام : إذا أتى

على يوم لا أزداد فيه علماً يقربنى إلى الله عز وجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم (رواه الطبرانى فى الاوسط وأبو نعيم فى الحليـــة وابن عبد البر تعليقاً)

ثالثاً — إن خير ما فى هـــذه الدنيا العلم فهو مصدر الخيرات وسبيل البركات. قال صلى الله عليه وسلم : الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه أو معلماً أو متعلماً (رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة) .

رابعاً — أفضل العلوم ما وصلك إلى الخبير العليم وهداك إلى القرب من الله فأفاض عليـــك من بحر علمه . قال صلى الله عليه وسلم : « أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم عليـه السلام يا إبراهيم إنى عليم أحب كل عليم » (ذكره ابن عبد البر تعليقاً)

خامساً — احتمال المشقة والسفر فى طلب العلم قال صلى الله عليه وسلم : « أطلبوا العلم ولو بالصين » (رواه ابن عدى والبيهقى فى المدخل والشعب من حديث أنس)

سادساً — يجب على طالب العلم أن يتصف بحميـــد الأخلاق وجميل الصفات حتى يكون أهلا لقبول المعارف والعلوم .

وسنتكلم عن ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ما يجب

أن يتحلى به طالب العلم من صفات

إذا كان غواة السباق يربون جيادهم على طرق مخصوصة توصلهم إلى الفوز بسبق خيولهم فلا تعطى الخيل ما تشتهى من العلف والماء إلا بمقدار، ولا بد من تدريبها فى الفينة بعد الفينة حتى تصبح ضامرة ومعدة للسباق

فكذلك طالب العلم لا يستطيع أن يصل إلى بعض غايته من تحصيل العلم والوصول إلى المعرفة إلا إذا كبح جماح شهوته ووضع له نظاماً يكفل معه صحة جسمه وعافية روحه. ولن تنال صحة الجسم إلا بالبعد عن الأمراض واتقاء أسبابها. كما لا يحظى بسلامة الروح أو النفس إلا بالبعد عن الشهوات ومفاسدها، وذميم الأخلاق ومضارها قال تعالى: ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ﴾ (سورة البقرة). فالله تعالى اشترط فى منحه العلم للانسان أن يتقيه ومعنى هذا أن يكون طائعاً له متحلياً بما أمره من الفضائل متجنباً ما نهى عنه بعيداً عن الرذائل.

وقد أورد الامام الغزالى فى كتابه احياء علوم الدين (الجزء الأول) الصفات التى يجب أن يتحلى بها المتعلم أو طالب العلم حتى يفوز بقسط وافر. فلخصها فيما يأتى:

أولا — يجب على طالب العلم التحلى بمكارم الأخلاق والبعد عن مذموم الصفات إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى . وكما لا تصح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب إلا بعد طهارته من خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف قال صلى الله عليه وسلم : « بنى الدين على النظافة » وهو كذلك باطناً وظاهراً . والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب كل هذه ظلمات تحجب نور العلم . وليس العلم كثرة الرواية وما تعيه الحافظة وإنما هو نور البصيرة بها تميز بين الحق والباطل ، والضار والنافع ، والخير والشر ، والهدى والضلال كما قال ابن مسعود : ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف فى القلب وقال بعضهم : إنما العلم الخشية لقول الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم .

ثانياً — يجب أن يقلل طالب العلم من شواغله وما يصرفه عن التحصيل وتكريس الوقت إذ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . ومهما توزعت الفكرة قصرت عن إدراك الحقائق ولذلك قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فاذا أعطيته كلك فأنت من عطائه إياك بعضه على خطر . والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه ، واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع .

ثالثاً — أن لا يتكبر المتعلم على العلم ، ولا يتآمر على المعلم بل يلقى اليه زمام أمره بالكلية فى كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق . وينبغى أن يتواضع لمعلمه ويطلب ثواب الشرف

بخدمته قال الشعبي (وهو عالم الكوفة) : صلى زيد بن ثابت (عالم من علماء الصحابة) على جنازة فقربت إليه بغلة ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خل عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء . فقبل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم : ليس من أخلاق المؤمن التملق إلا فى طلب العلم . فلا ينبغى لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ، ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة فان العلم سبب النجاة والسعادة ، والحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها اليه كائناً من كان ولذلك قيل :

العلم حرب للفتى المتعالى كالسيل حرب للمكان العالى

ولا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع ، قال تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهما ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقى السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كل ما ألقى اليه بحسن الاصغاء والضراعة والشكر والفرح . وليدع رأيه فان خطأ مرشده أنفع له من صوابه فى نفسه إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها ، فكم من مريض محرور يعالجه الطبيب فى بعض أوقاته بالحرارة ليزيد فى قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج فيعجب منه من لا خبرة له به ، وقصة موسى مع العبد الصالح فيها أكبر عظة . وبالجملة كل متعلم استبق لنفسه رأياً واختياراً دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالاخفاق والخسران .

قال على رضى الله عنه : من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ، ولا تعنته فى الجواب ، ولا تلح عليه إذا كسل ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشى له سراً ، ولا تغتابن أحداً عنده ، ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معذرته ، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وإن كان له حاجة سبقت القوم إلى خدمته .

رابعاً — أن يحترز الخائض فى العلم فى مبدأ الأمر عن الاصغاء إلى اختلاف الناس سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو علوم الآخرة فان ذلك يدهش ذهنه ويحير عقله ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع بل ينبغى أن يتقن أولا الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أساتذته ثم بعد ذلك يصغى إلى المذاهب والشبه .

خامساً — أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعها إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ثم ان ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية ، فان العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه فى الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى : « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » . قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

سادساً — أن لا يخوض المتعلم فى فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ويبتدىء بالأهم فان العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شىء أحسنه ويكتفى منه بشمه ، ويصرف جمام قوته فى الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذى هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة .

أعنى قسمى المعاملة والمكاشفة فغاية المعاملة المكاشفة وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى ، ولست أعنى به الاعتقاد الذى يتلقفه العامى وراثة أو تلقفاً ، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة فى تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى فى قلب عبد طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهى إلى رتبة إيمان أبى بكر رضى الله عنه الذى لو وزن بإيمان العالمين لرجح كما شهد له به سيد البشر صلى الله عليه وسلم (من حديث ابن عمر ورواه البيهقى فى الشعب موقوفاً على عمر باسناد صحيح) فما عندى أن ما يعتقده العامى ويرتبه المتكلم الذى لا يزيد على العامى إلا فى صنعة الكلام ولأجله سميت صناعته كلاماً كان يعجز عنه عمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضى الله عنهم حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسر الذى وقر فى صدره والعجيب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه ثم يزدرى ما يصنعه على وفقه ويزعم أنه من ترهات الصوفية وأن ذلك غير معقول فينبغى أن نتئد فى هذا فعنده ضيعنا رأس المال ، فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ولا يرشدك اليه إلا حرصك فى الطلب . وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل وهو بحر لا يدرك منتهى غوره ، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الانبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم . وقد روى أنه رؤى صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين فى مسجد وفى يد أحدهما رقعة فيها : إن أحسنت كل شىء فلا تظن أنك أحسنت شيئاً حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء . وفى يد الآخر : كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب .

سابعاً — أن لا يخوض المتعلم فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله فان العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج قال الله تعالى « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته » أى لا يجاوزون فناً حتى يحكموه علماً وعملا . وليكن قصده فى كل علم يتحراه الترقى إلى ما هو فوقه. فينبغى أن لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ، ولا بمخالفتهم بموجب علمهم بالعمل ، فترى جماعة تركوا النظر فى العقليات والفقهيات متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها . وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب . وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد ، وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ وقع لآخر ، والكل خطأ بل ينبغى أن يعرف الشىء فى نفسه فلا كل علم يستقل بالاحاطة به كل شخص ولذلك قال على رضى الله عنه : لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله

ثامناً — أن يعرف المتعلم السبب الذى به يدرك أشرف العلوم وان ذلك يراد به شيئان أحدهما شرف الثمرة والثانى وثاقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فان ثمرة أحدهما الحياة الأدبية ، وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف . ومثل علم الحساب وعلم النجوم فان علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته والحساب أشرف باعتبار أدلته وملاحظة الثمرة أولى ولذلك كان الطب أشرف . وإن كان أكثره بالتخمين وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فإياك وان ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه .

تاسعاً — أن يكون قصد المتعلم فى الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفى المآل القرب من الله سبحانه والترقى إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ، ولا يقصد به الرياسة والمـــال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران . وإذا كان هذا مقصده طلب لا محالة الاقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة ، ومع هذا فلا ينبغى له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم أعنى علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة وغـــير ذلك من ضروب العلوم التى هى فرض كفاية . ولا تفهمن من غلونا فى الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم فالمتكلفون بالعلوم كالمتكافين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين فى سبيل الله . فمنهم المقاتل ومنهم الردء ومنهم الذى يسقيهم الماء ومنهم الذى يحفظ دوابهم ويتعهدهم ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم . فكذلك العلماء قال الله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » وقال تعالى : « هم درجات عند الله » والفضيلة نسبية واستحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر ، بل الرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراسخين فى العلم ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم . وبالجملة من عمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . ومن قصد الله تعالى بالعلم أى علم كان نفعه ورفعه لا محالة .

عاشراً — ان يعلم المتعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ومعنى المهم ما يهمك ولا يهمك إلا شأنك فى الدنيا والآخرة .

* * *

يؤخذ مما تقدم أن المسلمين فهموا معنى الحياة على وجهها الصحيح وانه لا بد من الاعتناء بالروح كما يعنى بالجسم . فاذا كانت المادة غذاء للجسم فالعلم غذاء الروح ، ويجب على طالب العلم أن يراعى صيانة جسمه بالغذاء الطيب والمسكن الصحى والهواء الطلق ويجب عليه أيضاً أن لا يقرأ من الكتب إلا ما يفيده فى دنياه أو آخرته ولا يصحب من الناس إلا خيارهم ولا يعاشر إلا فضلاءهم .

يجب أن يراعى الطالب استعداده وقبوله للعلم . وإن تعلم الصناعات والتوافر على دراستها واتقانها هو باب من أبواب العلم به يتيسر استخدام المادة فى صالح الناس والحصول على معايشهم من أسهل الطرق . فالاختراعات الصناعية من أكبر الأسباب فى تقدم الأمة ورفاهيتها وعزها ، فعلماء الكيمياء والميكانيكا والرى والصرف والفلك وطبقات الأرض والمعادن لهم من الاجلال والاحترام ورفيع المكانة ما لغيرهم من علماء الأدب والبيان والبلاغة والفقه ونظائرهم لأنهم يكشفون عن سنن الله فى المادة كما يبين غيرهم قوانين الله فى الأخلاق وطريق السعادة وما يلزم اتباعه وعن طريق الشقاء وما ينبغى تجنبه . وقد كان من أنبياء الله تعالى : الصانع ، نذكر منهم نوحاً وهو أبو الانبياء والرسل ، فقال تعالى : ﴿ وأوحى إلى نوح انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فانا نسخر

منكم كما تسخرون ﴾ . (سورة هود) . وقد مكث نوح عليه السلام فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً . ولما اصروا على باطلهم ولم تنفع معهم الدعوة الى الهداية والارشاد أمر نبيهم بصنع السفينة لتكون اداة النجاة له ولمن آمن معه وما آمن معه الا قليل وقد جاء فى الحديث : « الحرفة أمان من الفقر » و« ان الله يحب المؤمن المحترف »

وقال الشاعر :

وليس على عبد تقى نقيصة اذا صحح التقوى وان حاك أو حجم

وكان داود عليه السلام محترفاً صنعة الحدادة . فالصناعة واتقانها هى من علوم المادة وواجب تعلمها ما دامت ماسة بحاجة الأمة وتقدمها والدفاع عنها لأنه لا كرامة ولا دين لمستعبد يأتمر بأمر مستعبده فى الحق والباطل . وجلال العلم وكرامته يحتمان حريته واطلاقه حتى يؤتى أكله وينتفع بثمره .

وكان من أثر تعاليم الاسلام الصحيحة السليمة أن فتق العقول وأنار البصائر ، مما كان له الأثر الصالح فى عمارة البلاد وتقدم حضارتها التى دانت لحكمه .

ووصف الكاتب الانجليزى ستانلى بول فى كتابه قصة العرب فى اسبانيا آثار المسلمين فى نهضة التقدم والعلم والعمران فقال :

« ان قرطبة عروس الأندلس بها من الجمال والزينة ما يبهر العين ويسر النفس ، فأمراؤها المتعاقبون تاج مجدها . وقلادتها من درر استخرجها شعراؤها من بحر اللغة الخضم ، وحلتها أعلام الآداب والفنون وأهداب حلتها أصحاب الفنون والصناعات »

وهكذا يصور المؤرخ الشرقى مدينته المحبوبة بما شاء من خيال الشرق البعيد .

ولقد كانت قرطبة أيام الخليفة العظيم حاضرة جديرة بالفخر والاعجاب واذا استثنينا بيزنطة فلن نجد فى أوروبا مدينة تساميها فى جمال أبنيتها أو فى حياتها الرخية المترفة أو فيما تزخر به من أنواع العلوم وفنون الآداب .

ان الموجز الذى نحن بصدده نقله عن مؤرخى العرب فى وصف قرطبة وما كانت فيه من نهضة وازدهار ومجد انما يعود زمنه الى القرن العاشر واذا لحظنا ان أسلافنا السكسون فى هذا العهد كانوا يسكنون الاكواخ ويفترشون القصيل وان لغتنا لم تكن تكونت بعد وان القراءة والكتابة كانتا محصورتين فى عدد قليل من الرهبان ـ عرفنا ما كان للعرب من مدنية عجيبة وحضارة منقطعة النظير . وتظهر المقابلة جلية غريبة بين حاضرة الأندلس وغيرها من المدن اذا ذكرنا أن أوروبا كلها فى هذا العهد كانت غارقة فى حمأة الجهل وخشونة الأخلاق وانها لم يكن بها شىء من آثار المدنية الا ما بقى للامبراطورية الرومانية من أطياف فى القسطنطينية وبعض أجزاء ايطاليا .

ما يجب على المتعلم نحو المعلم

قال الامام الغزالى : ـ

ان للانسان فى علمه أربعة أحوال كحاله فى اقتناء الأموال اذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسباً ، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنياً عن السؤال ، وحال انفاق على نفسه فيكون منتفعاً ، وحال بذل لغيره فيكون سخياً متفضلا وهو أشرف أحواله . فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المال فله حال طلب واكتساب ، وحال تحصيل يغنى عن السؤال ، وحال استبصار وهو التفكر فى المحصل والتمتع به ، وحال تبصير وهو أشرف الأحوال ، فمن علم وعمل وعلم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السماوات فانه كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة فى نفسها وكالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب . والذى يعلم العلم ولا يعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم وكالمسن الذى يشحذ غيره ولا يقطع والابرة التى تكسو غيرها وهى عارية وذبالة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق كما قيل :

ما هو الا ذبالة وقدت تضىء للناس وهى تحترق

ووظيفة التعليم مهمة شاقة وخطرها جسيم . ولنذكر فى ايجاز ما ذكره لإمام الغزالى فيما يجب على المعلم نحو المتعلم :

أولا : الشفقة على المتعلمين وان يجريهم مجرى بنيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انما أنا لكم مثل الوالد لولده » رواه أبو داود والنسائى

وابن مالك وابن حبان من حديث أبي هريرة . وذلك بأن يقصد انقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من انقاذ الوالدين لولدهما من نار الدنيا ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين فان الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية ، ولو لا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب الى الهلاك الدائم ، وانما المعلم هو المفيد الحياة الأخروية الدائمة ، أعني معلم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا . وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا فان العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى وسالكون اليه الطريق عن الدنيا ، وسنوها وشهورها منازل الطريق ، والترافق فى الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التواد والتحاب فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى ، والترافق فى طريقه ، ولا ضيق فى سعادة الآخرة ، فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ، ولا سعة فى سعادات الدنيا ، فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم ، والعادلون إلى طالب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وداخلون فى مقتضى قوله تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين »

ثانياً : يجب على المعلم أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب اليه ولا يرى لنفسه منة عليهم وإن كانت المنة لازمة

عليهم ، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم بأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها كالذى يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض . فكيف تقلده منة وثوابك فى التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى . كما قال عز وجل « وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله » فان المال وما فى الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها والمخدوم هو العلم اذ به شرف النفس فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه فجعل المخدوم خادماً والخادم مخدوما ، وذلك هو الانتكاس على أم الرأس ، ومثله هو الذى يقوم فى العرض الأكبر مع المجرمين ناكسى رؤوسهم عند ربهم . وعلى الجملة فالفضل والمنة للمعلم فانظر كيف انتهى أمر الدين الى قوم يزعمون أن مقصودهم التقرب الى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيهما وفى غيرهما فانهم يبذلون المال والجاه ويتحملون أصناف الذل فى خدمة السلاطين لا ستطلاق الجرايات ولو تركوا ذلك لتركوا ولم يختلف اليهم ، ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له فى كل نائبة وينصر وليه ويعادى عدوه وينتهض جهاراً له فى حاجاته ومسخراً بين يديه فى أوطاره ، فان قصر فى حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه . فأخسس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحى من أن يقول غرضى من التدريس نشر العلم تقرباً الى الله تعالى ونصرة لدينه ، فانظر الى الامارات حتى ترى ضروب الاغترارات .

ثالثاً : أن لا يدع المعلم من نصح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدى

لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى، وليكن الهـــدى الذى يرمى اليه هو توقية نفس المتعلم وتهذيبها والسلوك بها إلى الله عز وجل.

رابعاً: وهى من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيء الحرص على الاصرار، وقد ورد فى الأثر: (لو منع الناس عن فت البعر لفتوه). وقالوا ما نهينا عنه الا وفيه شيء. وينبهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهيا عنه فما ذكرت القصة لك لتكون سمراً بل لتتنبه بها على سبيل العبرة، ولأن التعريض أيضاً يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة فى العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته.

خامساً: ان المتكفل ببعض العلوم ينبغى أن لا يقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه كمعلم اللغة اذ عادته تقبيح علم الفقه ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير، وان ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول ذلك فروع وهو كلام فى حيض النسوان. فأين ذلك من الكلام فى صفة الرحمن؟ فهـــذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تجتنب بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره، وان كان متكفلا بعلوم فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة.

سادسا : أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى اليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم » فليبث اليه الحقيقة اذا علم أنه يستقل بفهمها وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم » وقال على رضى الله عنه - وأشار إلى صدره - إن ها هنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة . وصدق رضى الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار فلا ينبغى أن يفشى العالم كل ما يعلم إلى كل أحد ، هذا اذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلا للانتفاع به ، فكيف فيما لا يفهمه ؟ وقال عيسى عليه السلام : لا تعلقوا الجواهر فى أعناق الخنازير فان الحكمة خير من الجوهر ، ومن كرهها فهو شر من الخنازير . ولذلك قيل : كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه ، حتى تسلم منه وينتفع بك والا وقع الانكار لتفاوت المعيار وسئل بعض العلماء عن شىء ، فلم يجب . فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار » ؟ فقال : اترك اللجام واذهب فان جاء من يفقه وكتمته فليلجمنى . فقد قال الله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » تنبيها على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى وليس الظلم فى اعطاء غير المستحق بأقل من الظلم فى منع المستحق .

سابعا : ان المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى اليه الجلى اللائق ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه ، فان ذلك يفتر رغبته فى الجلى ويشوش

عليه قلبه ويوهم اليه البخل به عنه ، اذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق، فما من أحد الا وهو راض عن الله سبحانه وتعالى فى كمال عقله، وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله. وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخ فى نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل وحسن مع ذلك سريرته ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغى أن يشوش عليه اعتقاده بل ينبغى أن يخلى وحرفته فانه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص فيرتفع عنه السد الذى بينه وبين المعاصى وينقلب شيطاناً مريداً يهلك نفسه وغيره بل لا ينبغى أن يخاض مع العوام فى حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة فى الصناعات التى هم بصددها ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة فى الجنة والنار كما نطق به القرآن ولا يحرك عليهم شبهة فانه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها فيشق ويهلك ، وبالجملة لا ينبغى أن يفتح للعوام باب البحث فانه يعطل عليهم صناعاتهم التى بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص.

ثامناً : أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر فاذا خالف العمل العلم منع الرشد وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فانه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به ، ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود ، فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه

ومتى استوى الظل والعود أعوج ولذلك قيل فى المعنى :

لا تنـــه عن خلق وتأتى مثله عار عليـــك إذا فعلت عظيم

قال الله تعالى : « أتأمرون الناسَ بالبرِّ وتنسَوْنَ أنفسكم » ولذلك كان وزر العالم فى معاصيه أكبر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، ولذلك قال على رضى الله عنه (قصم ظهرى رجلان : عالم متهتك ، وجاهل متنسك) فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه (١)

ان أثر المعلم خطير جداً فى بيئته وأمته فهو إمام وقدوة ان صلح صلح من حوله وان فسد فسد من حوله وقد قال صلى الله عليه وسلم : « صنفان من متى إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس الامراء والفقهاء » رواه ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس .

والأمة لا تقاس قوتها ولا توزن بما عنـــدها من أنفس ومال بل بما عندها من علماء ومجاهدين وعلى هؤلاء يكون تقدم الأمة وتأخرها ، فالأمة التى تملك عدداً كبيراً من العلماء الموزعين على مرافقها والساهرين على مصالحها فلا شك أنها يكون لها من السيادة والسلطان بما لعلمائها من أثر وانتاج . فعلماء الأخلاق وعلماء الشرع وعلماء الطب وعلماء الصناعة وعلماء التجارة

---

(١) كتاب احياء علوم الدين تأليف الامام العلامة المحقق المدقق حجة الاسلام أبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الجزء الأول ص ٤٩ وما بعدها .

وعلماء الزراعة وعلماء الكيمياء وعلماء الطبيعة فبمجهودات هؤلاء يكون رقى الأمة وبسط نفوذها .

والأمة الرشيدة هى التى ترزق أبناء بررة صالحين يعرفون كيف يوجهونها التوجيه الصالح حتى تكون عزيزة الجانب موفورة الكرامة . قال صلى الله عليه وسلم : « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل . وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل » رواه أبو نعيم فى فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس .

ووظيفة المعلم أسمى الوظائف وأرقاها إذا صلح ، فهو الذى يوجه تلاميذه إلى الخير ويعودهم لأن يكونوا دعاة اصلاح وارشاد ، ويوجههم التوجيه النافع لما يلزم أن يقوموا به نحو عقيدتهم وأمتهم والانسانية جميعاً . وقد فهم المسلمون فى الصدر الأول ذلك حتى أنهم سادوا العالم ورفعوا شأن الاسلام والمسلمين معاً . ذكر السيد (أمير على) الهندى فى كتابه تاريخ الاسلام أنه كان يكتب على مدخل كل مدرسة فى الأندلس هذه العبارة :

الدنيا تستند على أربعة أركان : (١) علم الافاضل (٢) عدل الأكابر (٣) دعاء الصالحين (٤) جلال الشجعان . وقد ورد فى الأثر : مثل العلماء فى الارض كمثل النجوم فى السماء يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر فاذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابعة فتهلك . وقيل علم علمك من يجهل ، وتعلم ممن يعلم ما تجهل ، فانك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما

علمت . وقال الحسن : لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجرى فى العمل مجرى السفهاء . وقال ابن المبارك : لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل . كل هذا يبين لنا ما للقرآن من أثر طيب فى نشر العلم والدعوة إلى ذلك من حض العلماء على تعليم الناس وهدايتهم حتى ينتشر السلام وتعم السعادة للناس كافة . وليحذر المعلم والعالم أن يخالف عمله علمه إذ عاب القرآن الكريم ذلك على العلماء فقال تعالى :

﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلوا التَّوْراةَ ثمَّ لم يَحْمِلوها كمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أسْفارا بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبوا بآيات الله واللهُ لا يَهْدى القومَ الظالمين ﴾ (سورة الجمعة) . وقد علم المسلمون وعلموا وتزودوا من العلم بقسط وفير وفكروا ونقبوا عن آراء علماء الأمم التى سبقتهم وترجموها إلى لغتهم وفتحوا المدارس وبنوا المصانع فكان سلطانهم قائماً على العلم والعمل .

أثر دعوة الاسلام

للعلم والتعليم فى المسلمين

كتب الاستاذ الامريكى الشهير (درابر) فى كتابه (التنازع بين العلم والدين) :

« بعد انتقال محمد صلى الله عليه وسلم إلى الدار الباقية ترجمت إلى اللغة العربية أهم المؤلفات اليونانية وترجمت القصائد اليونانية الشهيرة (كالالياذة) و (الاوديسية) إلى اللغة السريانية ليطلع عليها العلماء دون العامة لما رأوه فيها من الاقاصيص الخرافية عن آلهة اليونانيين مما يخشى منه على عقائدهم . ولما ولى الخلافة أبو جعفر المنصور (من سنة ٧٥٣ إلى ٧٧٥) فنقل تخت الملك إلى بغداد وجعلها عاصمة فخيمة . فلم يألُ جهداً من بذل الوسع فى درس العلوم الفلكية وتأسيس مدارس الطب والشريعة . ولما جلس حفيده هرون الرشيد على عرش الملك (سنة ٧٨٦) اتبع أثر جده فى هذه الفتوحات العلمية وأمر باضافة مدرسة إلى كل مسجد فى جميع ارجاء ملكه . ولكن عصر العلم الزاهر فى القارة الاسيوية لم يشرق إلا فى خلافة المأمون الذى تولى الخلافة من سنة (٨١٣ إلى ٨٣٢) فانه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى ، وجمع كتباً لا تحصى ، وقرب اليه العلماء ، وبالغ فى الحفاوة بهم » .

« هذا المركز الذى اكتسبه العرب ، وهذا الذوق السليم فى العلم ، استمر لديهم حتى بعد أن انقسمت المملكة إلى ثلاثة أقسام . حتى أن العباسيين فى آسيا والفاطميين فى مصر والامويين فى اسبانيا لم يكونوا متناظرين متغايرين على الحكومة فقط بل كانوا كذلك على الآداب والعلوم أيضاً .

« ذاق العرب فى الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحد القريحة ويصقل الذهن ، وقد افتخروا فيما بعد بأنهم انجبوا من الشعراء بقدرما انجبت الأمم كلها مجتمعة . أما فى العلوم فقد كان فوقانهم فيها ناشئاً من الأسلوب الذى توخوه فى المباحث . وهو اسلوب أخذوه عن فلاسفة اليونان الاسكندريين لا عن اليونان الأوربيين ، فانهم قد تحققوا إن الاسلوب العقلى النظرى لا يؤدى إلى التقدم ، وإن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم فى ابحاثهم الاسلوب التجريبى والدستور العملى الحسى . وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات ومعدات لعلم المنطق . وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا والايدروستاتيك (علم موازنة السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ونظريات الضوء والابصار ، بأنهم قد اهتدوا إلى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات . هذا هو الذى قاد العرب لأن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمكتشفين لجملة آلات للتقطير والتصعيد والاسالة (اسالة الجوامد) والتصفية الخ . وهذا بعينه أيضاً هو الذى جعلهم يستعملون فى ابحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والاسطرلابات (هى آلات لقياس أبعاد الكواكب) ، وهو أيضاً الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى

العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقـــة تامة من نظريته ، وهو أيضاً الذى أرشدهم لعمل الجداول عن الاوزان النوعية للاجسام ، والازياج الفلكية (هى جداول تعرف منها حركات الكواكب) مثل التى كانت فى بغـــداد وقرطبة وسمرقند ، وهو أيضاً الذى أوجب لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات ، وهو أيضاً الذى هم بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية . هذا هو ثمرة تفضيلهم لاسلوب أرسطو الاستدلالى على مقالات أفلاطون الاستنتاجية ولقـــد دأبوا على جمع الكتب بصفة منتظمة لاجل أن يتوصلوا إلى تكوين المكتبات التى تكلمت عنها وقد قيل أن المأمون نقل إلى بغداد مائة حمل بعير من الكتب وقد كان أحد شروط معاهدة الصلح بينه وبين الامبراطور ميشيل الثالث أن يعطيه إحدى مكاتب القسطنطينية التى كان فيها بين الذخائر العلمية الأخرى كتاب بطليموس على الرياضيات السماوية فأمر المأمون بترجمته للعربية وسماه المجسطى. وقد حضلت العناية بأمر هذه المكاتب حتى أن مكتبة القاهرة كان بها نحو مائة ألف كتاب معتنى بكتابتها وتجليـــدها غاية الاعتناء . وكان يوجد من بين هذه الكتب ستة آلاف وخمسمائة مجلد فى الطب والعلوم الفلكية فقط وكان من نظام هذه المكتبة كرتان أرضيتان احداهما من الفضة والأخرى من البرنز . قيل ان الأولى صنعها بطليموس الفلكى نفسه وأنها استدعت ثلاثة آلاف كورون (نقود يونانية) من الذهب .

وقد اشتملت مكتبة خلفاء الاندلس فيما بعد على ستمائة ألف مجلد وكان

جدول أسمائها وحده محوياً فى أربعة وأربعين جزءاً . وغير هذا فقد كان بالاندلس سبعون مكتبة عامة وكثير من المكاتب الخاصة . ومما يحكى أن أحد أطباء العرب رفض دعوة سلطان بخارى له محتجاً بان كتبه لا يمكن نقلها إلا على أربعمائة بعير »

« لقد كان يوجد فى كل مكتبة كبرى محل خاص للنسخ والترجمة . وقد كان لبعض الخاصة مثل ذلك . فان هونيان الطبيب النسطورى كان له محل من هذا القبيل ببغداد (سنة ٨٥٠) ترجم فيه كتباً لارسطو وأفلاطون وهيبوكرات وغاليان الخ . أما المؤلفات الحديثة فقد كان من عادة أساتذة هذه الجامعة أن يؤلفوا كتباً فى الفروع العلمية التى تطلب منهم . وكان لكل خليفة مؤرخ خاص يكتب تاريخه. ومن ينظر إلى تلك الأقاصيص والحكايات التى هى مثل ألف ليلة وليلة يعرف مقدار التصور الشعرى الذى كان لدى العرب . ولم يقف بحث العرب عند حد فقد كتبوا فى كل فن وفى كل علم كالتاريخ والشريعة والسياسة والفلسفة وتراجم الرجال وتراجم الخيول والابل وكل هذه المؤلفات تنتشر بدون رقابة ولا حجر وما يعلم من المراقبة على الكتب اللاهوتية فقد حدث فيما بعد هذا التاريخ . وقد كانت الكتب الزاخرة بالمعلومات التى تصلح لان تتخذ مادة فى المعلومات كثيرة جداً فى الجغرافية والاحصاءات والطب والتاريخ وقواميس اللغة . وكان لديهم دائرة معارف علمية ألفها محمد أبو عبد الله . وكان للعرب ذوق دقيق فى صنع الورق النظيف الناصع البياض وفى إعطاء الحبر الالوان المختلفة وفى زخرفة وجوه الكتب بتسييك تلك الالوان المختلفة من الحبر والابداع فى تنميقها

وتذهيبها على صفات شتى .

كان الملك الاسلامى العربى مملوءاً بالمدارس والكليات . وكانت بلاد المغول والتتار ومراكش والاندلس حاصلة على عدد عديد منها . وكان فى طرف من أطراف هذه المملكة الواسعة التى فاقت المملكة الرومانية بكثير مرصد فى سمرقند لرصد الكواكب وكان يقابله فى الطرف الآخر مرصد جيرالده فى الاندلس (١)

إلى أن قال الاستاذ درابر :

« إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جلياً فى التقدم الباهر الذى نالته الصنائع فى عصرهم » . وأفاض فى تفصيل ذلك ثم قال :

« ليست أوروبا العصرية بأعلى ذوقاً ولا أرقى مدنية ولا الطف رونقاً من عواصم الاندلس على عهد العرب فقد كانت شوارعهم مضاءة بالانوار ومبلطة أجمل تبليط . والبيوت مفروشة بالطنافس . وكانت تدفأ شتاء بالمواقد . وتهوى صيفاً بالنسمات المعطرة بوساطة امرار الهواء تحت الارض من خلال أوعية مملوءة زهراً . وكانت لهم حمامات ومكتبات ومحلات للغذاء وينابيع مياه عذبة الخ » انتهى كلام الاستاذ درابر وهذا برهان صادق لتحقيق قول الله تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة النمل)

---

(١) الاسلام فى عصر العلم تأليف الاستاذ محمد فريد وجدى الجزء الثانى ص ١٣٤

الحياة المادية ـ والعلوم الاقتصادية

النبى الاقتصادى الامين

— ١ —

دعامة التدبير والاقتصاد : الخلق القويم

إذا طالعت القرآن وأمعنت النظر فيه رأيته يتكلم على العلم بكافة أنواعه بارة مجملا وتارة مفصلا . وإن القاعدة التى وضعها من عهد آدم حتى الآن أن لاسيادة ولاخلافة فى الأرض إلا بالعلم، وتجد هذا مطرداً فى جميع قصص القرآن ثابتة لا تتغير . فلا نبوة إلا بالعلم ، ولا رسالة إلا بالعلم ، ولا سلطان إلا بالعلم ، ولا ولاية إلا بالعلم .

لنستعرض قصة يوسف عليه السلام ، ويصح أن نسميه النبى الاقتصادى ، لأن أبرز جوانبه تدبير الحالة الاقتصادية فى مصر وإنقاذها من المجاعة . . . فما هى الوسيلة التى سلكها يوسف حتى بلغ أعلى مراتب الدولة المصرية وأصبح وزيراً لماليتها قابضاً على زمام موارد ثروتها يوجهها حيث النفع العام ؟ هى العلم .

قال تعالى : ﴿ إذ قال يُوسُفُ لأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّى رأيتُ أحدَ عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لى ساجِدِين . قال يا بنى لا تقْصُصْ رُؤْياك على

إخوتكَ فيكيدوا لكَ كيدا ، إنَّ الشيطان للانسان عدوٌّ مبين . وكذلكَ يجتبيكَ ربُّكَ ويعلِّمكَ من تأويل الأحاديث ويتمُّ نعمته عليكَ وعلى آل يعقوب . . . ﴾

ولما تآمر إخوة يوسف على قتله وانتهى أمرهم على أن يلقوه فى غيابة الجب ، وأخذته السيارة ، وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ، واشتراه عزيز مصر وأوصى به امرأته بأن تكرم مثواه عسى أن ينفعهم أو يتخذوه ولداً . قال تعالى : ﴿ وكذلكَ مكَّنا ليوسفَ فى الأرض ولنُعلِّمَهُ من تأويل الأحاديث والله غالبٌ على أمره ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾ .

وقد علمه تعالى من علمه ليعده للرسالة التى تنتظره ، فقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ ولمَّا بلغَ أشُدَّه آتيناه حُكماً وعلماً وكذلكَ نَجْزى المحسنين ﴾

إذا قرأنا قصة يوسف عليه السلام نرى أن الطريق الذى سلكه ليتبوأ ادارة الشئون الاقتصادية للأمة المصرية قائم على دعامتين هامتين :

أولا — الخلق الكريم ، وأظهر ما فى هذا الخلق الأمانة والوفاء بالعهد، وهما دعامة الاقتصاد فى العالم ولا يقوم إلا بهما ، وهذا يتبين من أنه عفّ عن أن يجيب امرأة العزيز حينما راودته عن نفسه فقال: ﴿ مَعاذَ الله إنَّه ربِّى أحسنَ مَثْوايَ إنَّه لا يُفْلِحُ الظالمون ﴾ ومعنى هذا : إنى لا أستطيع أن أقابل

ما فعله ربى - أى سيدى - من إكرامى فى بيته بالاساءة اليه وهتك عرضه .

وهـذا هو الوفاء ، ومقابلة الاحسان بالاحسان هو المحور الذى تدور عليه أكبر مظاهر الاقتصاد من حركة التعامل ، لأنه يوجد الثقة .

ولنعلم أن هذا الخلق كان من أبرز نواحى يوسف لأنه آثر السجن على أن يأتى المنكر ويعيش فى رغد الرذيلة .

قالت امرأة العزيز : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾ .

فماذا أجاب يوسف ؟

﴿ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾

فمكث يوسف فى السجن بضع سنين محتملا الأذى فى سبيل نصر مبدئه ، مفضلا شظف العيش مع العزة والكرامة والوفاء على حياة الرذيلة مع ما فيها من نعيم جاثم على أحط الاخلاق من دناءة وغدر وخيانة .

ماذا كانت سلوة يوسف فى غيابة سجنه ؟ ! كانت الدعوة إلى الله ، وسلوك الطريق المستقيم ، هى شغله الشاغل . كقوله لمن كان معه ﴿ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا

لله أمرَ ألّا تعبُدوا إلا إيّاه ، ذٰلك الدِّين القَيِّمُ ولٰكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون ﴾

(سورة يوسف)

ثانياً — العلم . امتاز يوسف فى القصص القرآنى بعلم الرؤيا كما أنبأه والده ﴿ وكذٰلكَ يَجْتبيكَ ربُّكَ ويُعَلِّمُك من تأْويل الأحاديث ﴾ وظهر هذا العلم فى حادثتين :

ا ـ دخل مع يوسف السجن فتيان قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمراً . وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه . وطلبا منه أن ينبئهما بتأويله . فأجابهما : أما الأول فيسقى ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه . قضى الأمر الذى فيه تستفتيان .

ب ـ رأى الملك فى نومه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . فأولها يوسف وقال : تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون .

كان علم يوسف بتأويل الرؤيا سبباً لأن يتولى أكبر مناصب الدولة المصرية إذ قال الملك حين سمع بعلمه : ﴿ ائْتُونى به أَسْتَخْلِصْهُ لنَفْسى . فلمّا كلّمه قال إنّكَ اليومَ لَدَيْنا مَكينٌ أمينٌ ﴾

فماذا قدم يوسف نفسه للملك الذى كان فى حيرة من أمره لمواجهة الجدب والمجاعة التى أنذرته بها الرؤيا ؟

كانت مؤهلات يوسف لمواجهة الأزمات المقبلة الأمانة والعلم إذ قال للملك : ﴿ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

وقال الأحنف رحمه الله : كل عز لم يوطد بعلم فالى ذل مصيره . وقال الزبير بن أبى بكر : كتب إلى أبى بالعراق : عليك بالعلم ، فانك إن افتقرت كان لك مالا ، وإن استغنيت كان لك جمالا . وقال سالم بن أبى الجعد : اشترانى مولاى بثلاثمائة درهم وأعتقنى . فقلت : بأى شىء أحترف ؟ ! فاحترفت بالعلم ، فما تمت لى سنة حتى أتانى أمير المدينة زائراً فلم آذن له

قيل : يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فقال : العلم بالله عز وجل . فقيل : أى العلم تريد ؟ قال صلى الله عليه وسلم : العلم بالله سبحانه . فقيل له : نسأل عن العمل وتجيب عن العلم . فقال صلى الله عليه وسلم : إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل بالله (رواه ابن عبد البر من حديث أنس)

وإن مدار العلم أن تعرف سنن الله فى الكون وأن تتبع هدايته فيما أمر، سواء كانت هذه الهداية عن الأوامر الإلهية المنزلة على الرسل ، أوما وجدناه عن طريق البحث والتنقيب مما يتفق مع الفطرة السليمة ويهدى إلى نفع الانسان

والخلافة فى الأرض التى تولاها آدم وأصبحت وقفاً على الصلحاء من ذريته لا تكون إلا بالعلم .

وليس العلم وقفاً على معرفة العبادات فحسب بل هو أيضاً ما يمس كل

مصلحة لبنى الانسان ، ويدعو لتحقيق نفعهم ورفع الأذى عنهم . وقد يتبين من قصة يوسف أن علمه لم يكن قاصراً على ناحية التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد ، وإنما اشتمل أيضاً الناحية الاقتصادية . وكانت فى عهده من أمس الحاجات ، لأنه يتوقف عليها نجاة الأمة المصرية وما حولها من الأمم التى تتعامل معها . فالناحية الاقتصادية تلعب دوراً يجب أن يعنى بها ، لأن لها آثاراً فى الأخلاق وفى نظام الأمـــة . بل هى من أكبر العوامل فى رقيها أو انحطاطها .

قال على رضى الله عنه :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهـدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعـداء
ففز بعـــلم تعش حياً به أبدا ... الناس موتى وأهل العـلم أحياء

فأين المسلمون من القرآن الكريم ؟ وأين المسلمون من العلم ! ؟

مصادر القوة

— ٢ —

المال والجماعات التعاونية

المال

أصبحنا نعيش فى زمن يحتاج إلى كفاح شديد وعمل عنيف كلما كثرت حاجيات الانسان وتعددت رغباته ، وانه آن لكل فرد يرغب أن يعيش قوياً عزيزاً أن يفكر ويتأمل عن أى طريق يحظى بأمنيته ، وعن أى مسلك ينشد حاجته . وإنى أجيب الذين يريدون أن يعيشوا أقوياء أعزة ، رافعى رؤوسهم ، مالكى زمام أمورهم : أن غايتهم لا تتحقق إلا عن طريقين مهمين من طرق كثيرة ونواح متعددة . هما :

(١) طريقة كسب المال وانفاقه فى وجوه البر والخير .

(٢) تأليف الجماعات للتعاون والإصلاح .

ولنتكلم عن طريق المال وأنه وسيلة من أكبر الوسائل وأعظمها لعزة الانسان وقوته ، ومباهج الحياة وزينتها ، فقد قال تعالى : ﴿ المالُ والبَنُونَ زِينةُ الحياة الدُّنيا ، والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربِّكَ ثواباً وخيرٌ أملا ﴾ (سورة الكهف)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن كان لك مال فلك حسب ، وإن كان لك خلق فلك مروءة ، وإن كان لك دين فلك كرم »

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « حسب الرجل ماله وكرمه ودينه ومروءته »

فالمال أداة المنفعة . وعون على وجوه البر ، ووسيلة للمجد والسلطان والعز فى يد الحازم المجد الساعى لتحقيق الأهداف العليا فى الحياة . ولا مشاحة فى أن السعى لتحصيل المال وتثميره واجب من أقدس الواجبات ، وفرض من أوائل الفروض . وقد قيل : اعلم ان تثمير المال آلة للمكارم ، وعون على الدين ، وتأليف للاخوان . وأن من فقد المال قلت الرغبة إليه والرهبة منه . ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهان الناس به . فاجهد جهدك كله فى أن تكون القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة فى دين أو دنيا .

وقال حكيم لابنه : يابنى عليك بطلب المال ، فلو لم يكن فيه إلا أنه عز فى قلبك ، وذل فى قلب عدوك لكفى

وكان سعد بن عبادة يقول : اللهم ارزقنى جداً ومجداً ، فانه لا مجد إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال .

***

والمال له نواح متعددة ، وطرق كسبه كثيرة ، وخير الوجوه والطرق هما الخير والشرف . فالمال إن لم يكن له الخير غاية فهو وبال ، وإن لم يكن الاستقامة والشرف طريقاً له فهو ذل وعار .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « نعم العون على طاعة الله الغنى ، ونعم

السلم إلى طاعة الله الغنى ، وتلا : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أُنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ ، وقوله : ﴿ واستغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ﴾ .

وقالت الحكماء : لا خير فيمن لا يجمع المال يصون به عرضه ، ويحمى به مروءته ، ويصل به رحمه .

وقال عبد الرحمن بن عوف : يا حبذا المال أصون به عرضى ، وأتقرب به إلى ربى .

وقال سفيان الثورى : المال سلاح المؤمن فى هذا الزمان .

وقال خالد بن صفوان لابنه : يابنى أوصيك باثنتين لن تزال بخير ما تمسكت بهما : درهمك لمعاشك ، ودينك لمعادك

وقال عروة بن الورد :

ذريني للغنى أسعى فانى ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأحقرهم وأهونهم عليهم ... وان أمسى له حسب وخير
يباعده القريب وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ... ولكن للغنى رب غفور

***

لا يكفى أن يسعى الانسان للحصول على المال من خير الطرق وأشرفها، وكل طريق خير ما لم يكن فيه إثم أو مضرة . بل يجب أن يعرف كيفية استثمار المال وتدبيره ، وإلا أتعب نفسه وأجهدها فيما لا طائل تحته . وقد قال أحد الحكماء : إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة ولا يدركها إلا بأربعة . فأما الثلاثة التى تطلب :

(١) فالسعة فى المعيشة
(٢) والمنزلة فى الناس
(٣) والزاد إلى الآخرة

وأما الأربعة التى تدرك بها هذه الثلاثة :

(١) فاكتساب المال من أحسن وجوهه
(٢) وحسن القيام عليه
(٣) والتثمير له
(٤) وانفاقه فيما يصلح المعيشة ، ويرضى الأهل والإخوان ويعود فى الآخرة نفعه .

فان أضاع شيئاً من هذه الأربعة لم يدرك شيئاً من هذه الثلاثة . إن لم يكسب لم يكن له مال يعيش به ، وإن كان ذا مال واكتساب ولم يحسن القيام عليه يوشك أن يفنى ويبقى بلا مال ، وان هو أنفقه ولم يثمره لم تمنعه قلة الإنفاق من سرعة الفناء ، كالكحل الذى انما يؤخذ على الميل مثل الغبار ثم هو مع ذلك سريع نفاده ، وان هو اكتسب وأصلح وثمر ولم ينفق الأموال فى أبوابها كان بمنزلة الفقير الذى لامال له ، ثم لا يمتع ذلك ما له من أن يفارقه ويذهب حيث لا منفعة فيه كحابس الماء فى الموضع الذى تنصب فيه المياه . إن

لم يخرج منه بقدر ما يدخل فيه مصل وسال من نواحيه فيذهب الماء ضياء .

أشار القرآن الكريم إلى كل ذلك فى عبارة سهلة موجزة فقال تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ولم يقْتُروا وكان بين ذٰلك قواما ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ ولا تجعل يدك مغْلولة إلى عُنقك ولا تبْسُطْها كلَّ البسط فتقْعُدَ ملوما محسورا ﴾ (سورة الإسراء)

ونحن الآن فى عصر المادة عصر القوة والبطش والجبروت والمطامع التى لا حد لها ولا حصر فان لم يجد الانسان ويكد ويسعى لتحصين نفسه بالمال والجماعات فهو فريسة للقوة ، ضحية للطمع ، مأكول غير آكل ، ذليل غير مأجور ، عامل لغيره غير مشكور .

والجماعة للتعاون أقدر من الفرد لتحقيق غايتها ، وأدوم وأبقى لاستمرار رسالتها .

والاسلام له دعوة صريحة واضحة فى الدعوة إلى المال والجماعة أقام عليها الدليل تلو الدليل فى أقواله وأفعاله ومناسكه ، وفهمها المسلمون فى ماضيهم وحاضرهم . ولن يقام لهم سلطان ولا عزة إلا إذا تمسكوا بشريعته ومبادئه .

الجمـــاعات

— ٢ —

دعوة نبى الاسلام الى التعاون

الاسس الاخلاقية التى تقوم عليها الجماعات المالية ـ والتعاونية

مهدت مبادئ الاسلام القويمة لنجاح الدعوة التعاونية من طريقين :

أولا ـــ تربية الأفراد على مكارم الأخلاق وأن تعيش مع الجماعة لخيرها.

ثانياً ـــ أن تعمل الجماعات على انضمام بعضها إلى بعض ليشتركوا فى العمل الصالح ولخير الانسانية .

أولا ـــ الطريقة المثلى لنجاح الأمة وارتقائها إلى اوج السعادة والفلاح هى الأخلاق الفاضلة وهى موضوع الدين الاسلامى دعا اليها فى حزم ، لأنها الأساس الذى يرقى عليه الفرد فى الحياة الدنيا وبه يضع أواصر المحبة بينه وبين الناس . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بعثت لأتمم محاسن الأخلاق) وقال أيضاً : (ائقل ما يوضع فى الميزان خلق حسن) وقال عليه السلام) يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق . قال أبو هريرة رضى الله عنه : وما حسن الخلق يارسول الله ؟ قال : تصل من قطعـــك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك)

بهذا الحديث الكريم الذى بلغ الذروة من مكارم الأخلاق وضع نبى

المسلمين عليه صلوات الله أكبر دعائم الألفة والمحبة بين الناس ، بل ربطهم برباط لا تنفصم عراه ولا يعتريه الوهن ما عملوا به .

ولا يخفى أن ثمرة حسن الخلق الألفة وانقطاع الوحشة ، ومهما طاب المثمر طابت الثمرة ، وقد جاء فى وصف المؤمن أنه يألف ويؤلف أى يكون له من الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة والمبادىء القويمة ما يجعله يألف الناس ويعمل لخيرهم ويألفونه لأنه على شاكلتهم ومسخر لخدمتهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المؤمن الف مألوف . ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف) . كما أنذر فى حديث آخر - من يوقع البغضاء بين الناس عن طريق السعاية أو النميمة وهددهم بالطرد من رحمة الله وبغضه لهم ومن أبغضه ربه فقد أشقاه وعذبه فى الدنيا والآخرة - فقال عليه السلام : (إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأخوان)

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً وقد وصفه الله تعالى فى القرآن الكريم بذلك فقال تعالى : ﴿ وإنَّكَ لَعلَى خُلُقٍ عَظِيم ﴾ (سورة ق) . وهذا كان من الأسباب الهامة فى نجاح دعوته وجمع كلمة المسلمين وازدياد عددهم ونصرهم على عدوهم . كيف وقد دعا الكتاب العزيز إلى نصرة الحق والعدل والاحسان ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وهذا من أهم القواعد التى تحيا بها الجماعات ، وتضمن لها البقاء والاستمرار فقال تعالى :

﴿ إنَّ اللهَ يأْمُرُ بالعَدْلِ والاحْسانِ وإيتاءِ ذى القُرْبى ، ويَنْهَى عن الفَحْشاءِ والمُنْكرِ والبَغْى ، يَعِظُكم لعلَّكم تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل)

ووصف تعالى المؤمنين ودعاهم إلى العفو والتسامح فيما بينهم حتى تبقى وحدتهم ويقوى جمعهم ، ويشتد أزرهم فقال تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ (سورة آل عمران) . وأمر تعالى حضاً على دوام الألفة بالقول اللين ، والمعاملة الحسنة ، وان يجادل الانسان ويناضل عن رأيه بالمعروف ، وأن يصبر على أذى الناس وجهلهم ليرشدهم إلى مواطن الصواب بالقول الحسن والصبر والأناة فقال تعالى : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ (سورة فصلت) . وقال تعالى أيضاً : ﴿ ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور ﴾ (سورة الشورى) .

وقد جمع القرآن فى بعض آياته مكارم الأخلاق والتخلق بها مما يكفى بأنه يرقى بها الانسان إلى أوج العلى وتكون هادياً للم شعث الأفراد وهدايتهم الى الطريق المستقيم فقال تعالى : ﴿ خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ﴾ .

* * *

الميزان الذى يقاس به أعمال الانسان من ربح وخسران ومن فوز

وخـــذلان هو الخلق ، فان حسن كان الفوز فى الدارين ، وان ساء فالويل والخسران والحسرة والندامة فى الدنيا والآخرة . قال عليه السلام : ان من أحبكم الى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وان من أبغضكم الى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون (الكثيروالكلام تكلفاً) والمتشدقون (المتطاولون على الناس بكلامهم ويتكلمون بمـــلء فيهم تفاصحاً وتعظيما لكلامهم) والمتفيهقون . قالوا يارسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين فما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون

فالمسلم يجب أن يتحلى بمكارم الأخلاق بأن يعامل النـاس بالمعروف ويكون طلق الوجه فى مقـابلتهم ويكف الأذى عنهم ويسعى لمنفعتهم ، وقد ورد فى الأثر حب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً ، والمسلم من سلم الناس من أذاه ، كما ورد أيضاً . من يحرم الرفق يحرم الخير كله .

روح الاسلام هى روح الجماعة وغايته هى اسعادها والعمل على ما فيه صلاحها وقوتها قال عليه السلام « ان الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا . يرضى لكم :

١ — أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا

٢ — وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا

٣ — وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم

ويكره لكم ثلاثاً :

١ — قيل وقال ٢ — وكثرة السؤال

٣ — واضاعة المـال »

وقد رضى الله لعباده الجماعة وكره لهم الفرقة كما قال عليه السلام « لا تقاطعوا ، ولا تدابروا ، ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله اخواناً . لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث »

* * *

الاسلام دين عملي لا يرضى بالقول دون العمل ولذلك لما كانت روحه ترمي إلى قوة روح الجماعة ، وهـــذه القوة لا تأتى إلا عن طريق التزاور والتآلف فقد حض الشارع الكريم على الصلاة جماعة حتى يتيسر معرفة الناس بعضهم لبعض فى المساجد . وهى بيوت الله الديمقراطية لا فرق بين من دخلها . يتساوى فيها الصغير بالكبير ، والغنى بالفقير ، والأمير بالحقير وقد دعا نبى الاسلام لصلاة الجماعة وأبان فضلها فقال : (صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ (الواحد) بسبع وعشرين درجة) وقال أيضاً (صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسا وعشرين ضعفاً وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت عنه خطيئة ، فاذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه ما لم يحدث (ما ينقض وضوءه) تقول اللهم صل عليه اللهم ارحمه . ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة) حديث متفق عليه

أرأيت كيف يعد الاسلام المسلمين إلى فعل الخير ويحببهم فيه ويدفعهم إلى التآزر والتعاون على عمل البر ، لأن المسجد كان يعتبر فى العهد الأول أحد المؤسسات البرلمانية فيه يجتمع المسلمون ويتشاورون فيما ينفعهم فى معاشهم ومعادهم ، وفيه يقام العدل فيشكو المظلوم من ظلمه إلى من ينصفه ، وفيه تدر الرحمة فيعطف الغنى على الفقـــير فتتآلف القلوب وتتحاب فى طاعة الله

ورضوانه وتتآزر على النفع العام.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سره أن يلقى الله تعالى غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات (الخمس) حيث ينادى بهن فان الله شرع لنبيكم سنن الهدى وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق . ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى به بين الرجلين حتى يقام فى الصف)

ولقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم المتخلف عن الجماعة بأن عاقبته الخسران ، إذ يكون عرضة دائماً للاحداث ولا يجد من يدفع عنه لوحدته كما لو كان فى الجماعة . فقال عليه السلام (ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان . فعليكم بالجماعة فانما يأكل الذئب من الغنم القاصية (البعيد عن الجماعة)

ولو أن دعاة الأرض من الحكماء والعلماء تضافروا لعمل دعوة للجماعة والانضمام اليها والعيش فى كنفها لم يستطيعوا أن يأتوا بمثل ما جاء به نبي الاسلام ولا بمثل ما جاء به القرآن الكريم .

جعل الاسلام صلاة الجماعة اختيارية فى الخمسة الأوقات (وهى صلاة الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء) حتى لا يثقل على الناس ، إلا أنه جعل صلاة الجمعة (الظهر) إجبارية حتى يجتمع المسلمون فى المساجد ويتشاوروا فى أمرهم ويعلموا ما يهمهم من أمر حياتهم وآخرتهم فقال تعالى . ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا

البيعَ ذٰلكُمْ خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قُضيتِ الصَّلاةُ فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلَّكم تُفلحون ﴾ (سورة الجمعة).

فروح الجماعات هى من أكبر خصائص الدين الاسلامى فالأديان الكبيرة المعترف بها تأمر بصلاة الجماعة مرة فى الأسبوع فتقام الطقوس الدينية للجماعة يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى. أما فى الاسلام فخمس مرات كل يوم فى المساجد. وليسوا فى حاجة أن يؤم الجماعة عالم بل يؤمهم أعلمهم أو أفضلهم خلقاً، إذا كانوا متساوين فى الدرجة العلمية.

ثانياً ـ دعوة الجماعات للانضمام بعضها إلى بعض ليشتركوا فى العمل الصالح ولخير الانسانية.

الاسلام يربى جماعة المسلمين على العمل لخيرهم والبر ببعضهم البعض فيعيش الضعيف متمتعاً بحقوقه كالقوى، ويبذل الخير فى وجوهه الصالحة فنادى القرآن الكريم بتدعيم اتحاد المسلمين على مبدأ الأخوة فقال تعالى: «إنما المؤمنون اخوة» ولم يقل إنما المؤمنون اخوان لأن الأخوة هم الاشقاء وهم فى صلاتهم أقرب وفى تضامنهم أقوى وفى اتحادهم أمتن لأنهم على مبدأ واحد ويسعون لغاية واحدة، وأما الأخوان فهم غير الأشقاء.

وواجب الجماعة أن يعيشوا فى سبيل الحق ولخير الجماعات وينصح بعضهم البعض لعمل الخير كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: الدين النصيحة. قلنا لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. وقال أيضاً

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » هذا هو النظام المحكم الذى تقوم عليه الجماعة المسلمة .

والقرآن الكريم دعا إلى التعاون بكافة أنواعه فى إيجاز ميسور ، وفى عزم المجد وحزم الصادق الامين فقال تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »

وقد أبهم القرآن الكريم لفظ التعاون ولم يوضحها أو يفصلها وذلك من بالغ حكمه لأن التعاون يتكيف بالزمان والمكان والانسان ، فاجاز القرآن هو معجزته لأنه ترك تفاصيل التعاون ونظمه إلى الانسان والزمان لأن ما يصلح من النظم لمصر مثلا قد لا يصلح لغيرها ، وما ينفع بلداً قد يكون فيه مضرة لبلد آخر .

* * *

ان الاصول التى قام عليها التعاون أهمها ما يأتى :

١ ـ الدعوة لخير الجماعة وعمل الخير لهم

٢ ـ ان يكون النظام القائم بين الجماعات على مبادىء المساواة والاخاء

٣ ـ ان تكون مبادىء التعاون عالمية ليست محلية حتى يتيسر الائتلاف مع جمعيات التعاون فى العالم

١ — الدعوة لخير الجماعة ـ وعمل الخير لهم . قد جاء الاسلام مقرراً لهذه الدعوة فى عبارة صريحة لا يعتريها شك أو غموض فقال تعالى :

﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

عنِ المُنْكر وأُولئكَ هُمُ المُفْلحون ﴾ (سورة آل عمران)

﴿ كنتمْ خَيْرَ أُمَّة أُخرِجَتْ للنّاس تَأْمُرون بالمَعروف وتنْهَون عنِ المُنْكَر ﴾ (سورة آل عمران) . وقال تعالى ﴿ والمُؤمنونَ والمُؤْمناتُ بعضُهم اولياءُ بَعْض يأْمرون بالمَعْروف وينهون عنِ المُنكر ﴾ (سورة التوبة)

وطريق الخير والمعروف قد تركا الشخص والزمان بأن يضع النظم الصالحه ويخط الخطط الملائمة من اقتصاد واجتماع وغير ذلك

٢ — أن يكون النظام القائم بين الجماعات على مبادىء المساواة والأخاء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة). وقال أيضاً (المسلم أخو المسلم لايخونه ولايكذبه ولا يخذله . كل المسلم على المسلم حرام عرضه ، وماله ، ودمه . التقوى ها هنا بحسب امرىء من الشر ان يحقر أخاه المسلم) . وقال أيضاً (لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا (ان يزيد فى ثمن السلعة ولا رغبة له فى شرائها بقصد أن يغر غيره وهذا حرام) ولا تباغضوا ، ولا تدابروا (تعرض عن أخيك وتهجره) ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله اخوانا . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله التقوى ههنا . ويشير إلى صدره ثلاث مرات . بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمه

وماله وعرضه) . وقال أيضاً (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . فقال رجل يارسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أرأيت ان كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال تحجزه أو تمنعه من الظلم فان ذلك نصره)

وقال تعالى : ﴿ انَّما المُؤْمنون إخْوَةٌ فأَصْلحوا بينَ أَخَوَيْكمْ ﴾ (سورة الحجرات) وقال تعالى ﴿ لا خَيرَ فى كثير من نَجْواهم إلاَّ من أَمَر بصَدَقة أَو مَعْروف أَو إصْلاح بينَ النَّاس ﴾ (سورة النساء)

هـــذه هى روح الاسلام الوثابة القائمة على الديمقراطية الصحيحة والمساواة التى لا تفرق بين الأمير والحقير والصغير والكبير والغنى والفقير إلا بصالح العمل وعلو الخلق كما ورد فى الأثر : لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . وقد جعل الاسلام التفاضل بين الناس هو العمل الصالح وبذل الخير للجميع فقد جاء عن الرسول الكريم أنه قال : (خير الناس أنفعهم للناس)

* * *

٣ — مبادىء التعاون عالمية

وقد جاء الاسلام بدعوة التعاون العالمية فى القرآن الكريم بدعوة الأمم والقبائل إلى الاتحاد والتعارف قال تعالى :

﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْناكم من ذَكر وأُنْثى وجَعلْناكم شُعوباً وقبائلَ لتعَارَفوا إن أكرمكمْ عندَ اللهِ أَتْقاكم ﴾ (سورة الحجرات)

الاسلام جمع الانسانية بين دفتيه وهو يريد أن يعيش فى سلام مع العالم بأسره على أساس مبدأ المساواة واحترام الحقوق . وقد أمر تعالى أن نعدل مع من سالمنا وإن كان مخالفاً لعقيدتنا وأن تكون المودة بيننا والمعاملة الطيبة هى صلتنا به فقال تعالى :

﴿ لا يَنْهاكُمُ اللهُ عن الذينَ لم يُقاتلوكم فى الدِّين ولم يُخْرِجوكم مِن ديارِكم أَنْ تَبَرُّوهم وتُقْسِطوا (تعدلوا) إليهم ﴾ (سورة الممتحنة)

* * *

والتعاون الاقتصادى يجد أكبر نصير فى الاسلام ومبادئه وأكبر عون على نشر دعوته بين المسلمين وغير المسلمين ، لأن أصوله قائمة على أمتن الأخلاق وأقواها وغايته تدعو إلى الخير العام بكافة أشكاله وألوانه ، كما أنه يكره الاثم والعدوان والفواحش ما ظهر منها وما بطن والمذلة والجبن والصفات الخسيسة المرذولة .

لو وجد المسلمون من أنفسهم فهماً سليما ، وخلقاً مستقيما ، وعزيمة قوية واتبعوا ما جاء به القرآن الكريم لكونوا أمة تعاونية بل عالماً تعاونياً يكون مضرب الأمثال ولكان التعاون أساساً لصغائر الأعمال وجليلها فى حياتهم الخاصة والعامة ، فاذا احتفل الغربيون برجالهم التعاونيين ، وجب أن لاينسى المسلمون أن نبى الاسلام وضع من أسس التعاون وأصوله المبادىء الخالدة التى تبقى صالحة حتى قيام الساعة وكفيلة لأن ترفع الأمة الآخذة بها إلى ذروة المجد وسنام السعادة .

التعاون

— ٤ —

ما يرجى منه

لحل الأزمات الاقتصادية والاجتماعية

المرء قليل بنفسه كثير باخوانه ضعيف إذا ما انفرد قوى إذا ما اتحد وما يعجز عنه الفرد قد يتيسر للجماعة والفارق بين تقدم الغرب وتأخر الشرق أن الاعمال الكبيرة فى الصناعة والزراعة والتجارة تقوم بها الجماعات والشركات فى أوروبا فيتيسر سبيلها وتنتشر فى الأسواق لما للجماعة من النفوذ والسلطان والقوة ، وعلى عكس ذلك فى الشرق ، فقوام الزراعة والتجارة والصناعة الفرد ، فهى تحيا بحياته وتزدهر بنشاطه وتقوى بعنايته ومثابرته وأمانته وتضحيته وتموت بموته . فخيرها قليل وثمرها ضئيل وعمرها قصير .

التعاون من ناحيته الاقتصادية هو تضافر الجماعة على الاشتراك فى العمل لخدمة أنفسهم اقتصادياً وأدبياً وهو كما قال أحد أنصار التعاون ومروجى دعوته بين مواطنيه وليم كنج : شعارنا « ان فى العرفان والاتحاد قوة . فالطبقة العاملة متى اتحدت فى أعمالها وفى تثقيف وترقية وتنوير عقولها وقلوبها باكتساب العرفان المفيد وبسيادة الاخاء فيما بينهم كان لها من ذلك قوة تستقل بها وتدفع الفاقة وتسيطر على جميع أسباب الهناء ، وتستطيع ضمان

توافر الهدوء وأسباب المعيشة للكهول وتربية الآداب فى العمال والفضيلة والدين وبذلك تتم السعادة فى الحياة وفى الآخرة »

وقد جنت البلاد التى انتشر فيها التعاون وازدهر أطيب الثمار ، وذلك عن طريق انتشار الجمعيات التعاونية ، فأبدلت الضعف قوة ، والجدب خصباً والعسر يسراً ، والبؤس رغداً ، والشقاء هناء .

ولنضرب لذلك مثلا جماعة روتشديل التى تأسست فى انجلترا وكان عدد أعضائها ثمانية وعشرين عضواً ورأس مالها ثمانية وعشرون جنيهاً وفتحت لها حانوتاً تبيع فيه بقالتها وكان ذلك فى سنة ١٨٤٤ على أسس وطيدة الدعائم قوية البنيان . هذه الأسس هى : -

١ — شراء البضائع الجيدة من المأكل والمشرب والملبس ، وبذلك تنجو الجماعة من الغش ورداءة النوع الذى يبيعه لهم بعض التجار الصغار الذين كل ما يهمهم المكسب من غير مراعاة لمصلحة المستهلك .

٢ — دفع الثمن فوراً . وذلك فيه مزايا كثيرة : منها أن يكون العضو دائماً حراً من الحاح الدائن وهو التاجر ومضايقته له وأن يتعود أن يكون مقتصداً وأن يرتب مصروفه على قدر دخله .

٣ — أن تباع الأشياء بسعر السوق وأن لا تنقص عنه وأن لا تزاحم أصحاب الدكاكين الأخرى .

٤ — تقسيم الأرباح بين رأس المال ومشتريات الأعضاء عملا بالمثل من يتسببون فى الربح لهم الحق فى نصيب منه .

٥ — اعطاء حق التصويت الديمقراطى لكل عضو يتساوى فى ذلك حامل السهم الواحد مع حامل الأسهم الكثيرة .

٦ — عدم تحديد رأس المال

مبدأ الجماعات التعاونية كنظم وكنواة للحياة الجديدة أن توجيه الاعتماد على النفس فى العمل الصالح جدير بتحقق الغاية المادية والأدبيـــة فى سعادة الجماعة .

على هذه الأسس قامت جمعية روتشديل ، وما زالت تتدرج فى الحيـاة بمجهود أعضائها ومثابرتهم وأمانتهم حتى أصبحت المثل العالمى الذى يحتـذى فى المعمورة ، وقد بلغ عدد الجمعيات فى سنة ١٩٣٨ (١٠٨٥) وعدد أعضائها ٨٤٠٤٦٨٨ عضواً ورأس مالهـا ١٥٩ ٦٠٢ ١٥٤ ج والمعـاملات السنوية ٣٠٦ ٢٦٥ ٢٦٣ ج

وإذا اعتبرنا أن الأسرة الانكليزية فى المتوسط تحتوى على خمسة أفراد فحينئذ تكون انجلترا كلها متعاونة تقريباً .

وقد اتفقت هذه الجماعات أن تؤسس فيما بينهم جماعة تسمى جماعة التعاون للاتجار بالجملة غايتهـا الحصول على البضائع من موردها الأصلى حتى توفر على كل جماعة من الجماعات المنضمة اليها نفقات الحصول وأن تعمـل على انتاج ما تحتاج اليه فتقيم المعامل والمصانع لصنع ما يلزمها وبذلك تتقى الغش والتزييف فى البضاعة . وقد أنشئت هـذه الجماعة فى سـنة ١٨٦٣ بمانشستر وكذلك أنشىء مثلها فى جلاسجو باسكتلاندة والآن أصبح عددهن ثلاثا تضم إليهن ١٦٢٤ جمعية رأس مالها ٩٢٧و٥٢٤و١٣٧ ج ومعاملاتها بلغت ٧٦٧و٧٧٩و١٦١ ج حسب إحصاء سنة ١٩٣٨

هذا هو أثر التعاون المحسوس الملموس وما أسبغه على جماعاته من نعمة وفيرة ورغد فى العيش وسهولة الحياة المعيشية

فلو أننا نظرنا إلى الحياة نظرة جدية وشمرنا عن سواعدنا وبذلنا من المال والوقت ما يلزم لأى ناحية من نواحى الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى لحل كثير من مشاكلنا وانفرج كثير من أزماتنا

ما الذى يقعد المتعلمين العاطلين على أن يؤلفوا فيما بينهم جماعات تعاونية صغيرة تبدأ برأس مال قليل لمزاولة تربية النحل والدجاج وجمع البيض وتربية الماشية وما إلى ذلك ، فيربحون أكثر من ماهيـــة الوظائف التى ينشدونها ولا يجدونها .

ما الذى يحول دون السيطرة على الأسواق المالية والاقتصادية التى يتلاعب بها جماعة من أصحاب المطامع إلا تقاعس المتعلمين وشح الماليين من المصريين الذين كل ما يهمهم حيازة الطين !

إن ما ينقص الكثير من المتعلمين ليس الذكاء ولا المال وإنما هى العزيمة القوية والايمان الصحيح والتضحية فى سبيل الغاية التى ننشدها .

العلة التى تقوم دون نشر التعاون وجماعاته هى رغبة المتعلمين فى الوظائف وهذا معناه كسب العيش بأقل مجهود وأيسر طريق ، ولا عجب بعد ذلك اذا كنا نرى سوق الأدب والعلم نافقاً ، وأن ميدان العمل فى الناحيـــة الاقتصادية والاجتماعية خاو من الرجال العاملين والمصلحين البارزين ، وأن الكثرة المتعلمة اكتفت من الحياة بأن تأكل من فتات موائد الغرب العلمية والأدبية والاقتصادية ، وان تشايعهم فى نقائصهم دون محاسنهم. فكان للغرب الغنم وللشرق الغرم ، وأن تكون السيادة لاوروبا دون الشرق !!!

إن الطريق السليم الذى يؤدى إلى الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى هو

التعاون الذى لا شك فى فائدته والذى قد وضحت غايته ، وهو كما يقول الاستاذ شارل جيد أحد أقطاب نشر الدعوة التعاونية فى فرنسا :

« إن محبي التعاون محبة خالصة ، أولئك المتعاونين حقاً الذين قد يهزأ بهم بعض ناقديهم ويعدونهم غريبى الأطوار ، إنما ينظرون إلى التعاون باعتباره غاية فى ذاته لاوسيلة للنجاح . وهم يعتقدون أن التعاون كائن حى وأن النتائج التى حصل عليها تحتوى جراثيم ما يرجى له من المستقبل ، كما تحوى البذرة ثمرة كامنة فيها .

وإذا أردنا أن نبتعد عن المجاز نقول : انهم يعتقدون أن كل جمعيـــة تعاونية تسير حسب القواعد التى وضعتها لنفسها ليست إلا عالماً صغيراً يسير وراءه العدالة والاصلاح الاجتماعى . ويكفى أن يترك ليشب من تلقاء نفسه بالنمو والمحاكاة ، فلا يلبث أن يصير عاجلا أو آجلا خير ما يرجى من العوالم »

أثر الدعوة الاسلامية

فى ارتقاء العمران

كان من آثار الدعوة الاسلامية أن ارتقت الاخلاق وأخذ الناس بالاسباب فى سبيل التقدم والحضارة. فتقدم العلم وتقدم معه العمران. وزادت ثروة البلاد. فاتسعت معها الرفاهية. ولنذكر على سبيل المثال ما قام به المسلمون عند فتح الاندلس وما كان لتعاليم الاسلام من فضل فى ارتقاء المدنية.

ارتقاء العمران فى اسبانيا تحت حكم المسلمين:

يقول المؤرخ الفرنسى الكبير سديو فى كتابه (خلاصة تاريخ العرب):

« أما من الناحية العمرانية فكان فى الجزء الذى يملكه المسلمون من اسبانيا ست عواصم وثمانون مدينة كبيرة وثلاثمائة مدينة متوسطة وما لا يحصى من القرى والكفور والضياع.

أما المبانى فكان فى قرطبة وحدها ٢٠٠٠٠٠ بيت و٦٠٠ مسجد و٥٠ مستشفى و٨٠ كلية و٩٠٠ حمام، وكان يسكنها مليون نسمة. وبالمقابلة تعلم أنها اليوم ليست على ما كانت عليه أيام المسلمين. ولا محل للاستغراب فان الخلفاء تنافسوا فى عمرانها وزخرفتها بما كانوا ينفقونه عليها من الأموال

ومع هذا فلا يزال محل للدهش من كثرة ما بذله العرب من الأموال على مبانيهم فى اسبانيا ، فان مسجد قرطبة الباقى للآن يضاهى من الفخامة المسجد الأموى بدمشق طوله ٦٠٠ قدم وعرضه ٢٥٠ قدماً وفى عرضه الأيمن ٣٨ صحنا وفى الأيسر ٢٩ صحناً وفيه ١٠٩٣ عموداً من المرمر وفيه من جهة الجنوب ١٩ باباً مبطنة بصفائح من نحاس التوج وهو النحاس الذى تصنع منه المدافع وأوسطها مرصع بصفائح الذهب وبأعلاه ثلاث أكر مذهبة فوقها رمانة من العسجد وله ٤٧٠٠ قنديل أحدها من الذهب الخالص وهو الموضوع فى المحراب وكان يصرف على هذا المسجد فى كل عام ٢٤٠٠٠ رطل من الزيت و ١٢٠ رطلا من العنبر والعود والقاقلى وكانت هذه المدينة تضاء بالمصابيح إلى الصباح وكانت شوارعها تطيب بروائح الزهور وكانت فى متنزهاتها وميادينها العامة جوقات موسيقية تطرب الجمهور بأنغامها .

أما مدينة الزهراء التى كانت قائمة على بعد فراسخ قليلة من قرطبة فقد اشتهرت بقصر الخليفة عبد الرحمن الثالث على شاطىء نهر الوادى الكبير (اسبانيا) فقد كانت قباب هذا القصر مرفوعة على ٤٣٠٠ عمود من الرخام المحلى بأبدع النقوش وكانت أرضه مبلطة بالرخام المختلف الألوان على شكل يستوقف الأنظار ، وكانت حوائطه مبطنة بالرخام أيضاً على تلك الصورة وسقوفه منقوشة باللازورد والذهب الخالص ، وكانت فى غرفه فساقى مياه عذبة تنصب فى أحواض من الرخام الناصع البياض والبشم المتنوع الأشكال وكان يشاهد فى قاعة جلوس الخليفة فسقية يخرج من وسطها صورة بجعة من ذهب معلقة فوق رأسها لؤلؤة عظيمة وكانت تلك البجعة من صنع مدينة القسطنطينية . وأما اللؤلؤة فكان قد أهداها إلى الخليفة الملك ليون أحد

ملوك شمال اسبانيا وكانت حول القصر بساتين واسعة فى وسطها قصر منفرد ليستريح فيه الخليفة بعد رجوعه من القنص ، وكان هذا القصر الأخير مبنياً على أعمدة من الرخام ذوات تيجان محلاة بالذهب وكانت تنبع فى وسطه عين ماء فى صفاء البلور وتنصب من فم النافورة على هيئة سنبلة القمح فى أناء مستدير مصنوع من الفرفيرى .

ومع كل هذا فلم يستنفد خلفاء اسبانيا جميع أموال الدولة فى زخرفة المدن والقصور بل انفق بعضها أيضاً فى عمارات نافعة . فقد بنى الخليفة الحاكم قناطر وفتح طرقاً انشأ فيها محطات للسائحين وبنى فى قرطبة مسجداً . وبالتأمل فيما أسلفناه يعلم أن عرب اسبانيا كانوا فى مقدمة الأمم فى القرن الحادى عشر بعد الميلاد . بل كانوا يفوقون فى مدنيتهم جميع أمم أوروبا على الاطلاق »

العلوم الصناعية

النبي الصانع والخليفة العابد المجاهد

لما كانت سيادة الإنسان للأرض تستلزم العلم بما يقتضيه الزمان والمكان والبيئة ليسلك الطريق الصحيح الذى يقود إلى خير بنى البشر وسعادته ضرب القرآن الكريم أمثلة كثيرة فى كل ناحية من نواحى الحياة، وأنه يجب على الانسان أن يتوسل بالعلم لقضاء مصالحه ولبقاء سيادته . ولم تكن العلوم الصناعية بأقل من العلوم الفقهية والرياضية والاقتصادية والمالية لحماية الأمة وسعادتها . وقد تكون العلوم الصناعية من أكبر الوسائل فى غنى الأمة إذا ما توفرت عندها المعادن والكهرباء .

ذكر القرآن داود عليه السلام وخلافته فى الأرض فقال تعالى ﴿ ياداودُ إنّا جَعلْناكَ خليفةً فى الأرض فاحْكمْ بينَ النّاس بالْحقّ ولا تتّبعِ الهوَى فيُضلّكَ عن سبيلِ الله إنّ الذينَ يَضلّونَ عن سَبيلِ اللهِ لهمْ عَذابٌ شَديدٌ بما نَسُوا يومَ الحساب ﴾ (سورة ص)

كان من أكبر ميزات داود عليه السلام الصناعة قال تعالى : ﴿ وعَلّمناهُ صَنعةَ لَبُوسٍ لتُحْصِنَكم من بأْسِكم فهل أنتمْ شاكِرُون ﴾ أى علمناه عمل

الدروع ثم بين لنا الغاية منها فى قوله : « لتحصنكم من بأسكم » أى لتحفظكم اللبوس (وهى من اللباس) من بأسكم إذا وقعتم فى حرب . وقد بين ذلك فى آية سبأ إذ يقول : ﴿ وألنّا له الحديد أن اعمل سابغات وقدّر فى السّرد واعملوا صالحاً إنّى بما تعملون بصير ﴾ وسابغات : دروع واسعة ضافية والسرد نسيج الدرع . وقدر فيه : اجعله بقدر يتناسب مع المهمة التى عمل لها وإلانة الحديد لداود كناية عن تعليم الله له صنعة الدروع ولبوس الحرب

هذه الآيات الكريمة ترينا أنه يجب الاهتمام بالصناعات الحربية وغيرها لحفظ كيان الأمة ، وأن تعلمها واتقانها من أكبر الأسباب فى حفظ كيانها ، واتقاء أعدائها ، وإنها من مستلزمات الأمة ، وأنه ينبغى أن نهتم بها لأنه لا حياة للعالم إذا لم يكن له قوة حربية تحميه وتدافع عنه ، ولذلك يدعو القرآن الكريم إلى أن نأخذ الحذر من العدو وأن نعد له ما نستطيع من قوة كما قال تعالى : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم ﴾

أى أن نعد له ما نستطيع من قوة مادية ومعنوية . ونكر القوة لاختلافها باختلاف العصور والأزمنة . فى عهد داود عليه السلام كان القتال بالحراب ولذلك أرشده الله تعالى أن ينسج دروعاً للحرب من الحديد لتقى لابسها من السهام والحراب .

أما اليوم فتطورت العلوم والمعارف ودخل العالم فى شأن جديد ،

وأصبحت القوة الحربية للأمم تقاس بأساطيلها البرية والبحرية وطياراتها وغواصاتها ودباباتها وما إلى ذلك من الاختراعات والابتكارات الصناعية بل تقاس بصناعاتها وفنونهـا وتجارتها . فكما تحارب الأمم بعضها بعضاً بالمقذوفات النارية فى الأرض وفى الجو وفى البحر وبالغازات السامة الخانقة يحارب بعضهـا البعض بالمصنوعات والمنسوجات . وقد كان للصناعة أكبر شأن فى التاريخ الحالى فكل أمة لا تأخذ منها القسط الوفير لحمايتها وتقدمها باءت بالفشل والخذلان . وقد قيل : « من لا يتذأب أكلته الذئاب » و « من لا يظلم الناس يظلم »

وقد شاد القرآن الكريم بفضل الصناعة ، وجعلها من عبزات الخلافة فى الارض لعمارتها وحمايتها ، وقد قام داود عليه السلام فى أيام ملكه بحروب كثيرة كان موفقاً فيها منصوراً على أعدائه واتسع ملكه حتى صار من أيلة (خليج العقبة) وهى المدينة التى على الخليج إلى الفرات فدانت له تلك البلاد كلها بعد حروب كان الظفر حليفه فيها كلها فافتتح بلاد فلسطين وأخذ دمشق عاصمة ملك الآراميين بعد حروب شديدة . وحارب الأقوام الذين على الفرات ونصر عليهم قبل أن يملك دمشق وما معها وملك داود شرق الأردن بعد أن حاربه بنو عمون (١)

كان داود عليه السلام مثلا عالياً للشجاعة والعبادة والزهد والتضحية والجهاد والصبر واحتمال الاذى والمشاق فى سبيل الحق ونصرة الحق فقال تعالى : « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الايد إنه أوّاب »

---

(١) قصص الانبياء للاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار طبع سنة ١٩٣٣ ص ٣٠٤

ولنذكر بعض مناقبه فى سبيل المثال :

أولا — ذكر داود عليه السلام ليكون فى مكان القدوة للصبر على طاعة الله ، وذلك تشريف عظيم وإكرام تام لداود عليه السلام .

ثانياً — أنه قال فى حقه عبدنا داود فوصفه بكونه عبداً له وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم وذلك غاية التشريف ، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يشرف محمداً عليه السلام ليلة الاسراء والمعراج قال سبحان الذى أسرى بعبده ، فهنا يدل على علو درجته أيضاً فان وصف الانبياء بعبوديته مشعر بأنهم قدحققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد والطاعة

ثالثاً — قوله ذا الايد أى ذا القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصى ، وذلك لانه تعالى لما مدحه بالقوة وجب أن تكون تلك القوة موجبة للمدح . والقوة التى توجب المدح العظيم ليست إلا القوة على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه . والايد المذكور ههنا كالقوة المذكورة فى قوله يا يحيى خذ الكتاب بقوة . وقوله تعالى وكتبنا له فى الالواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة أى باجتهاد فى أداء الامانة وتشدد فى القيام بالدعوة . وترك إظهار الوهن والضعف . وعن قتادة أعطى قوة فى العبادة وفقهاً فى الدين ، كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر .

رابعاً — قوله انه أواب أى أن داود كان رجاعاً فى أموره كلها إلى طاعتى ، والاواب فعال من آب إذا رجع كما قال تعالى إن إلينا إيابهم ، وفعال بناء المبالغة كما يقال قتال وضراب فانه أبلغ من قاتل وضارب (١)

---

(١) الجزء السابع من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير للامام الرازى فخر الدين ص ١٢٢

وقد ذكر القرآن الكريم قصة طالوت مع جالوت وأن النصر كان لجيش طالوت على يد داود عليه السلام فقال تعالى : ﴿ ولمّا برزوا لجالوتَ وجنوده قالوا ربّنا أفرغْ علينا صبراً وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ أى لما ظهر طالوت وجنوده لجالوت وجنوده وهم أعداؤهم الوثنيون الفلسطينيون ، واشتبك الجيشان فى القتال « قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً » على مشاق القتال « وثبت أقدامنا » بثبات القلوب واطمئنانها بالايمان والثقة به « وانصرنا على القوم الكافرين » عبدة الأوثان . ﴿ فهزموهم باذْن الله وقتَلَ داودُ جالوتَ ﴾ وكان جالوت عملاقاً جباراً فقتله داود وهى منقبة لداود لا تنسى .

﴿ وآتاه اللهُ المُلْكَ والحكمةَ وعلّمه ممّا يَشاء ﴾ فسروا الحكمة هنا بالنبوة ، ويرى صاحب المنار أنها الزبور الذى أوحاه الله اليه كما قال فى آية أخرى « وآتينا داود زبوراً » (سورة النساء) ، وبه كان نبياً . وأما تعليمه مما يشاء فقد فسرها بصنعة الدروع كما فى سورة الأنبياء ﴿ وعَلّمناه صَنْعَةَ لَبُوس لكم لتُحْصِنَكم من بأسكم فهل أنتم شاكرُون ﴾

﴿ ولَوْلا دَفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببَعْض لفسَدَت الأرض . ولكنّ اللهَ ذو فضل على العالمين ﴾ (سورة البقرة) . أى لو لا أن الله يدفع أهل الباطل بأهل الحق ، وأهل الفساد فى الأرض بأهل الاصلاح لغلب أهل الباطل

والافساد فى الأرض ، وبغوا على الصالحين ، وأوقعوا بهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم فتفسد الأرض بفسادهم .

فكان من فضل الله على العالمين أن أذن لأهل دينه الحق ، المصلحين فى الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين ، والبغاة المعتدين . فأهل الحق حرب لأهل الباطل فى كل زمان والله ناصرهم ما نصروا الحق وأرادوا الاصلاح فى الأرض .

والآية ترينا سنة عامة من سنن الاجتماع وهى ما يعبر عنه علماء العصر بتنازع البقاء ويقولون إن الحرب طبيعة فى البشر لأنها من فروع سنة تنازع البقاء العامة وهو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس الذى يقتضى المدافعة والمغالبة . وقوله لفسدت الأرض يؤيد السنة التى يعبر عنها علماء الاجتماع بالانتخاب الطبيعى أو بقاء الامثل ، ووجه ذلك جعل هذا من لوازم ما قبله فكأنه تعالى يقول : إن ما فطرت عليه الناس من مدافعة بعضهم بعضاً عن الحق والمصلحة هو المانع من فساد الارض ، أى هو سبب بقاء الحق وبقاء الصلاح . ويعزز ذلك قوله تعالى فى بيان حكمة الاذن للمسلمين بالقتال فى سورة الحج ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ... الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ

ه لقوىٌّ عزيز.. الذينَ إن مكنّاهم فى الأرض اقاموا الصّلاةَ وآتوُا الزّكاةَ
أمروا بالمعْروف ونهوْا عن المنكر ولله عاقبةُ الأُمور ﴾ وقوله تعالى فى
ورة الرعد : ﴿ فأمَّا الزَّبدُ فيذهبُ جُفاء وأمَّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ فى
رض كذلك يَضْربُ اللهُ الامثال ﴾ (١)

كان داود عليه السلام من المثل العليا التى ذكرها القرآن ليقتدى الناس
ا ، وعلى الرغم من انتصاراته العديدة وفتوحاته وما آتاه الله من الملك
سطة النفوذ فانه كان زاهداً متقشفاً يأكل من عمل يده : عن المقداد رضى
عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من
ياكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان ياكل من عمل يده » رواه
ام أحمد والبخارى.

ليس الزهد فى الدنيا أن تتركها ضعفاً منك أو رغبة فى الآخرة إنما الزهد
لك الدنيا وأن تسخرها فى طاعة الله لا فى سبيل شهواتك وأغراضك
جولة الحقة والبطولة الصادقة هى أن تكون لك الدنيا عبدة لا أن تكون
دا . وليس هذا بالامر الهين ولا اليسير ، فهذا يحتاج إلى رياضة النفس
بة الهوى والاذعان للحق ، والتضحية فى سبيله بكل ما تملك من
ومال .

---

١) دعوة الرسل إلى الله تعالى ، تأليف محمد أحمد العدوى من العلماء
ة ٢٩١ .

فهم المسلمون الاولون الزهد وعملوا بمقتضاه ، فأنفقوا كل مالهم فى سبيل الله . وآثروا رضاء الله على رضائهم . وحب الله على حبهم لانفسهم وطاعة الله على هواهم فكانوا العلماء الصادقين . والمجاهدين المخلصين ورسل الهداية العارفين . ولذلك قال تعالى فى حقهم : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾

ولن يستعيد المسلمون سالف مجدهم وغابر عزهم إلا بالاقتداء بسلفهم الصالح وأن يبذلوا أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وأن يتضامنوا فى كل ما يرقى شأنهم . ولن يكون هـذا إلا بالعلم . العلم فى معناه العام . العلم بالادارة والسياسة . العلم بالاخلاق والتربية . العلم بالزراعة والصناعة والتجارة . العلم بكل سبيل فيه حصانتهم من الفساد والانحلال . والعلم بكل ما من شأنه أن يكون فيه قوتهم واستقلالهم وحريتهم وسعادتهم

وإن الحضارة الغربية الحالية التى سادت العالم زمناً طويلا كان من أكبر دعائمها ومميزاتها العلوم الصناعية وكان ذلك فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى حين اخترع أحد المهندسين الصناع الآلة البخارية وكان لهذا الاختراع من الاثر فى التطور والانقلاب ما لم يفعله السيف والقلم مجتمعين وما لم يكن لاكبر قواد الجيوش والعلماء متحدين ، إذ قلب المدنية الغربية من زراعية إلى صناعية ، وصارت الصناعة هى التى تحرك ساسة العالم وعلماءه فى سيره وتشريعه . وطبعتهم بطابعها حتى صار علماء الغرب أنفسهم يقولون عن حضارتهم ومدنيتهم الحضارة الصناعية أو المدنية الصناعية .

قال الفيلسوف العلامة الانجليزى برتراند رسل تحت عنوان « الحضارة

الصناعية » يصفها : — « أبرز الصفات فى الحضارة الصناعية هى تكوين المجتمع بحيث يكون بمجموعة عضوية شديدة الارتباط ، فهو أشبه الاشياء بالجسم الانسانى . وهو بمجموعة خلايا - من حيث أنه أكبر من مجموعة خلايا مستقلة فكل خلية تتمتع بالقدرة على الحياة مستقلة فهى لا تستمد وجودها من وجود خلايا أخرى ولا تموت بموتها ولكن مجموع خلايا الجسم الانسانى يعوزها هذا الاستقلال فلكل خلية عملها ولكنها خاضعة للمجموع وإذا فقد عضو رئيسى قدرته على الحياة أصيب الجسم كله بالشلل أو الموت . فهنا عملية معقدة فيها مكسب وخسارة : أما المكسب فلأن تخصيص كل عضو بعمل معين واخضاع الكل لنظام واحد يجعل الجسم أقدر على العمل من طائفة من الخلايا المتفرقة وأكثر منها استعداداً للتكيف بالوسط والاستفادة منه . وأما الخسارة فلأن فقدان الاستقلال فى سبيل التعاون يجعل الجسم تحت رحمة طارىء يفقده الحياة جملة . وهذه المشابهة هى المشابهة نفسها بين الجماعة الصناعية وغير الصناعية :

فى الجماعات الزراعية تعمل كل عائلة على أن تكفى نفسها مؤونتها ، أما فى الحياة الصناعية فلا يوجد فرد يستطيع أن يتمتع بهذا الاستقلال ، فالفرد هنا يشترك فى جزء من عمل ومن هنا لا بد أن تروج المبادلة والمتاجرة . فالفرد أصبح خاضعاً فى حياته وحريته للمجموع ، والجماعة الصناعية تصبح بهذا التخصص وتوزيع العمل أشبه الأشياء بالجسم الانسانى ، فاذا أصيب عضو منها تمشى الشلل فى أجزائها وقد تصاب بالموت ، فاذا تعطلت محطة من محطات توليد النور الكهربائية راحت لندن تتخبط فى الظلام وشلت حركة النقل فيها ووقفت مصانعها عن العمل . وفى هذا المثل برهان كاف على

صدق القانون الطبيعى ، وهو أن أكثر الأشياء دقة ونظاماً أشدها إحساساً

ومن هنا كانت حياة الحضارة الصناعية أكثر تعرضاً للخطر والتخريب من الحياة التى احتفظت بالوسائل الفطرية البسيطة فى الانتاج (١)

وليتنبه المسلمون إلى ما غفلوا عنه مدة طويلة من اهمال الصناعة التى يجب أن تحل المكان اللائق بها . وإن فى الصناعات لغنى كثيراً ما يربو عما تدره الزراعة والتجارة ، وقد يوجد من الصناع أو أصحاب المصانع من تعد ثروتهم بعشرات الملايين من الجنيهات نذكر منهم فورد

وان ما يدفعه فورد اعلانا عن مصانعه التى تصنع السيارات التى تحمل اسمه يزيد عن ٣٥٠ الف جنيه فى السنة ، وان اديسن مخترع المصباح الكهربائى وحاكى الصوت والراديو وغيره قد بلغ عدد اختراعاته الصناعية ما يقرب من الف اختراع وبلغ مجموع رؤوس الأموال التى تشتغل فى هذه الاختراعات ما يقرب من خمسمائة مليون جنيه .

* * *

كفى بالصناعة شرفاً ونبلا أن جعلها الله تعالى من أكبر ميزات نبيه داود عليه السلام وهى كانت عدته فى الحرب وسبباً من أهم الأسباب فى توطيد خلافتـــه .

وقد أمر الصانع والعامل أن يتقن صناعته لأن ذلك من أسباب رواجها وانتشارها كما تكون من دواعى الاقبال عليها وحسن سمعة القائم بها . روى ابن أبى خيثمة والبغوى وابن قانع وغيرهم عن عاصم بن كليب عبد الله عن

(١) مقتطف يناير سنة ١٩٣٠

النبى صلى الله عليه وسلم « يحب الله العامل إذا عمل عملا ان يتقن » وروى أبو يعلى والعسكرى وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه »

ولنذكر نشاط المسلمين الأول فى ابان مجدهم فى الناحية الصناعية والفنون عما كان له الأثر الكبير فى الحضارة الاوروبية يوم كان المسلمون حكاماً لاسبانيا

ارتقاء الفنون والصنائع فى اسبانيا تحت حكم المسلمين

وأثر ذلك فى أوروبا :

يقول المؤرخ الفرنسى الكبير سديو فى كتابه (خلاصة تاريخ العرب) ما تعريبه :

وأما من ناحية الصنائع والفنون فان عرب اسبانيا أخذوا ما عثروا عليه مما كان عند الرومانيين والفينيقيين فامكنهم بواسطتها استخراج المعادن القابلة للطرق ومعدن الزئبق ولم يغفلوا عن استخراج الياقوت من معادنه بقرب مدينتى ملقا وبجاديكا ميريس وغاصوا فى البحر فاستخرجوا منه المرجان واللؤلؤ وأتقنوا صناعة الدباغة ونسج القطن والكتان والتيل وبلغوا أقصى الغاية فى صناعة الأقمشة الحريرية . وكانت صناعتهم فى عمل السيوف ونصال بقية الاسلحة مضرب الأمثال فى كل مكان فاشتهرت مدن باتقان هذه الصناعات فكان لايعلى على سلاح طليطلة ولاينافس حرير غرناطة ولا تزاحم السروج والجلود الواردة من قرطبة ولا تجارى الأقمشة الصوفية التى كانت تصنع فى قونسية كما اشتهرت والنسة فى صادراتها من الافاويه والسكر واشتغل العرب غير ذلك باستخراج الزيوت ودودة الصباغة والعنبر الخام

والبلور المعدنى وهو البلور المستخرج من الصخور والكبريت ويظن أنهم استعملوا التحاويل فى تجارتهم وهى التى تسمى الآن بالكمبيالات .

« ومما يؤثر عن عرب اسبانيا أنهم عنوا أشد العناية بالفلاحة فبلغت إلى درجة رفيعة جداً وأبدعوا فى الرى أيما ابداع ويدل عليه ما فعلوه فى سهل (هوسطاه) الذى يقسمه نهر (طونة) إلى قسمين فانهم وقفوا تيار هذا النهر على بعد نحو فرسخين من مصبه بواسطة سد ثم اشتقوا منه سبعة جداول ثلاثة فى ناحية وأربعة فى الناحية الأخرى وجعلوا يفتحون كل فرع مدنا فى يوم من أيام الاسبوع بحيث يرتفع الماء فيه إلى المستوى المطلوب ليرووا ما يريدون ريه من الأراضى العالية ثم عمدوا إلى كل جدول من هذه الجداول السبعة ، فاشتقوا منه جداول ثانوية يفتح كل منها فى ساعة معينة بعد حصول الارتفاع فى الجدول الرئيسى قاصدين بذلك أن يصل الماء إلى أصغر مربع من الأرض فكان كل جدول بفروعه الثانوية يشبه مروحة تتجه جداولها إلى كل اتجاه ولعدم انحدار ذلك السهل انحداراً هندسياً تدريجياً جعلوا له مساق صغيرة وقناطر متصلا بها مجار للمياه توزع على المزارع ثم صنعوا لما لا يمكن سقيه بهذه الوسائل كلها سواقى حفظوا المياه الضرورية لها فى حياض تستمد منها عند الحاجة وجملة القول أنهم أبدعوا فى هندسة الرى بهـذا السهل ابداعاً استحق معه أن يلقب ببستان اسبانيا .

« وقد توصل العرب بفنونهم الزراعية المتقنة إلى استغلال الارض ثلاث مرات فى السنة وأدخلوا إلى اسبانيا زراعة الارز والقطن والتوت وقصب السكر والنخل والفستق والموز ودوحة الكاميلياء الحمراء والبيضاء وأزهاراً وبقولا لا تحصى نقلت كلها فيما بعد إلى جميع البلاد الاوروبية ،

آيات العلم

فى ملك سليمان عليه السلام

الصلاح والتقوى أساس الملك - تسخير الريح - تسخير الجن - علم منطق الحيوان وتسخيره

قال تعالى :

(١) ﴿ ... ونوحًا هدينا من قبل ومن ذريته داودَ وسليمانَ ﴾ (سورة الانعام) . ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبدُ إنه أوّاب ﴾ (سورة ص) .

(٢) ﴿ قال (سليمان) ربِّ اغفرْ لى وهَبْ لى مُلكا لا ينبغى لأحد من بَعدى إنك أنتَ الوهّاب ﴾ (سورة ص)

(٣) ﴿ فسخّرْنا له الريحَ تجْرى بأمرِه رُخاءً حيثُ أصاب ﴾ (سورة ص) .

(٤) ﴿ والشّياطين كلَّ بنّاء وغوّاص * وآخرينَ مُقرّنينَ فى الأصْفاد ﴾ (سورة ص)

(٥) ﴿ وورث سليمانُ داودَ وقال يا أيُّها الناسُ عُلِّمْنا منطقَ الطَّيْرِ وأُوتينا من كلِّ شيء . إنَّ هذا لهُوَ الفضلُ المبين ﴾ (سورة النمل)

(٦) ﴿ وحُشِرَ لسليمانَ جنودُه من الجنِّ والانسِ والطَّيرِ فهم يُوزَعون ﴾ (سورة النمل)

***

١ — ذكر القرآن الكريم سليمان بن داود عليهما السلام ووصف الولد بصفة أبيه فقال نعم العبد ثم قال بعده إنه أواب وهذه كلمة للتعليل فهذا يدل أنه كان نعم العبد لأنه كان أواباً فيلزم أن كل من كان كثير الرجوع إلى الله فى أكثر الأوقات ، وفى أكثر المهمات كان موصوفاً بأنه نعم العبد ، وهذا هو الحق الذى لا شبهة فيه لأن كمال الانسان فى أن يعرف الحق لذاته ؛ والخير لأجل العمل به ، ورأس المعارف ورئيسها معرفة الله تعالى ، ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لا يتم شيء من الخيرات إلا باعانة الله تعالى . ومن كان كذلك كان كثير الرجوع إلى الله تعالى فكان أواباً فثبت أن كل من كان أواباً وجب أن يكون نعم العبد .

٢ — طلب سليمان عليه السلام من الله تعالى ملكا لا ينبغى لأحد من بعده وتدل هذه الآية على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح أبواب الخيرات فى الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولا ثم توسل به إلى طلب المملكة ونوح هكذا فعل أيضاً لأنه تعالى حكى عنه قال : ﴿ فقلتُ استغفروا ربَّكم

انه كان غفاراً يُرسِل السماءَ عليكم مدراراً ويُمددْكم بأموال وبنين ﴾

والملك هو القدرة فكان المراد : أقدرنى على أشياء لا يقدر عليها غيرى البتة ليصير اقتدارى عليها معجزة تدل على صحة نبوتى ورسالتى . والدليل على صحة هذا الكلام أنه تعالى قال عقبه « فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب » فكون الريح جارية بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب ، ولا شك أنه معجزة دالة على نبوته فكان قوله « هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى » هذا هو المعنى لأن شروط المعجزة أن لا يقدر غيره على معارضتها فقوله « لا ينبغى لأحد من بعدى » يعنى لا يقدر أحد على معارضته .

٣ — كان تسخير الريح لسليمان معجزة فى عصره استرشد بها الآن علماء الغرب فى تسخير الريح واستطاعوا أن يستخدموه فى الأسفار بالطيارات التجارية والحربية كما سخر لهم الاثير فى الوقت الحاضر فانتفعوا بواسطة التموجات الهوائية فى نقل الأخبار والأصوات والأشكال من طريق العلم . وأصبحنا ونحن بالشرق نسمع كل ما يدور فى الغرب من خطب ومحاضرات وغيرها على بعد الشقة وطول المسافة ، وكذلك هم يسمعون خطبنا ومحاضراتنا وما يدور فى بلادنا . وهو تسخير من الله طريقه العلم والتفكير . ولعل الله يقرب لنا أمر هذه المعجزات بهذه الخوارق العلمية ، ويرينا أنها لم تكن من قسم المحال كما فهم بعض الناس وإنما هى أمر ممكن ، والدليل على إمكانها ما يقاربها من طريق العلم ، ولو كانت من قسم المحال ما وقعت ، وقد يؤيد ذلك قوله تعالى فى سورة النمل « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » أى يريكم إياها من طريق العلم فتعرفونها بالتعلم كما أراها للرسل من طريق المعجزة لأنها

خارقة لعادة القوم ، وجاءت على غير المألوف لهم (١)

٤ — ﴿ والشياطين كلَّ بنَّاء وغوَّاص وآخرين مُقَرَّنين فى الأَصْفاد ﴾ . قال صاحب الكشاف الشياطين عطف على الريح وكل بناء بدل من الشياطين وآخرين عطف على قوله كل بناء وهو بدل الكل من الكل . كانوا يبنون لسليمان ما شاء من الأبنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ وقوله مقرنين يقال قرنهم فى الحبال والتشديد للكثرة والاصفاد الاغلال واحدها صفد وهذه الآيات دالة على أن الشياطين لها قوة عظيمة وبسبب تلك القوة قدروا على بناء الأبنية القوية التى لا يقدر عليها البشر وقدروا على الغوص فى البحار واحتاج سليمان عليه السلام إلى قيدهم ، وقال تعالى فى موضع آخر ﴿ وأَسَلْنا له عَيْنَ القِطْرِ ، ومن الجنِّ من يعملُ بين يَدَيْه بإذن ربِّه ومن يَزِغْ منهم عن أمرنا نُذِقْه من عذاب السعير ﴾ (سورة سبأ) . القطر (النحاس) أى جعله سائلا من معدنه ينبع منه كما يسيل الماء من ينبوعه ولذلك سماه عيناً وذلك ليسهل عليه أن يحوله إلى ما يريد وينتفع به فى وجوه شتى كما سخر له من الجن من يعمل بين يديه ما يشاء ولو لا أن الله سخرها له ما استطاع أن ينتفع بها كما قال فى معجزة عيسى عليه السلام ﴿ وأُبْرِئُ الأَكمه والأبرصَ

---

(١) الجزء السابع من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير للامام محمد الرازى فخر الدين ص ١٣٥ وما بعدها ودعوة الرسل إلى الله تعالى : تأليف محمد أحمد العدوى من العلماء

وأُحْيِي الموتى بإذن الله﴾ (سورة آل عمران) وكان عقوبة المتمرد والعاصى من الجن عذاب السعير، وهذا تشريف لسليمان عليه السلام إذ جعل طاعته من طاعته والعاصى لأمره كالعاصى له يعذب بالنار.

كان الجن «يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات» والمحاريب القصور الحصينة. وكذلك يعملون تماثيل وهى مظهر من مظاهر العظمة وهو دليل على مشروعية التماثيل كما يقول الاستاذ العدوى وإن الاسلام إذا حرمها فانما يحرمها إذا كانت ذريعة للشرك والوثنية كالتماثيل التى تعمل للصالحين. أما ما يعمل للعظماء الذين ليس من شأنهم أن يعبدوا بهذه التماثيل فليس هناك وجه لتحريمها وما ورد فى الأحاديث فى النهى عن اتخاذ صورة أو تمثال فمحمول على ذلك. ولو كانت التماثيل محرمة لذاتها ما أباحها الله لسليمان لأن الرسل جميعهم متفقون على محاربة الشرك وذرائع الشرك لأن التوحيد من الأصول التى لا تختلف فيها الشرائع السماوية، ولكن الجن كانت تعملها لسليمان، وأقرها على ذلك العمل. وادعاء أن ذلك النوع من التماثيل كان فى غير الحيوان كالاشجار مثلا خلاف الظاهر وكذلك القول بأن ذلك كان شرعاً لسليمان وأنه مما تختلف فيه الشرائع» (كتاب دعوة الرسل إلى الله تعالى للاستاذ الشيخ محمد أحمد العدوى من العلماء ص ٣١٧)

ان تحريم عمل التماثيل فى الاسلام لا يرجع إلى أنها ذريعة للشرك والوثنية فحسب بل ان الاسلام نهى عن الاسراف فى المال وبذله فيما لا ينفع فهل من المصلحة أن تصنع الأمة تماثيل لرجالها العظماء تكلفها عشرات

بل مئات الالوف من الجنيهات وهى نصب صامتة ، ورأس مال غير رابح ، أم تقيم لمن خدموها مؤسسات علمية أو خيرية أو اقتصادية كمدارس ، وملاجىء ، ومستشفيات وخلاف ذلك ينتفع بها أبناء الأمة ، ويبقى الذكر الجميل والخير الجزيل لعظمائها فيكونون قد خدموا أمتهم أحياء وأمواتاً ؟ !

والنهى الذى جاء به الشرع فى إقامة التماثيل يجب احترامه ، والأمر الإلهى يجب طاعته ، سواء عرفنا فيه وجه النفع أو لم نعرف ، لأن علم الله الذى هو بكل شىء محيط تخفى علينا دقائقه ويجب اجلاله اعترافاً بحق الالوهية له وبواجب العبودية لنا . وإذا كان المرءوس لا يستطيع أن يناقش رئيسه فى كل أمر يصدره له سواء عرف وجه المنفعة أو لم يعرفها فكيف بالعبد مع الخالق جل وعلا ؟ ! وإذا كان المريض يريد أن يناقش طبيبه العالم الحاذق فى كل دواء يعطى له فقد بعد شفاؤه وقرب هلاكه

« وقدور راسيات » أى قدور يطبخ فيها ثابتة لا تنقل من مكان إلى مكان لعظمها وكبر حجمها ، وذلك شأن الممالك الكبيرة والدول الواسعة يحتاج رجالها من أدوات الطبخ قدوراً واسعة ثابتة لا تنقل لعظمتها

« اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور » وذلك اشارة إلى أن هذه الأشياء حالة لا ينبغى أن يجعل الانسان نفسه مستغرقة فيها وإنما الواجب الذى ينبغى أن يكثر منه هو العمل الصالح الذى يكون شكراً ، وفيه اشارة إلى عدم الالتفات إلى هذه الأشياء وقلة الاشتغال بها كما فى قوله تعالى : « وقدر فى السرد » أى اجعله بقدر الحاجة ، والشكر أن تعرف نعمة الله عليك وتضعها فيما أمر الله أن توضع فيه وأن لا تستعين بها على معصيته ، وأن تؤدى لله واجب الحمد مع دوام الطاعة قدر ما تسعه قدرتك وتحتمله

نفسك ، وقليل من العباد من يستطيع ذلك .

٥ — تعليم منطق الطير : كان من عزة الملك وقوة السلطان أن تكون الطير من حاشية وجند سليمان عليه السلام . وليس هذا فحسب وإنما زاد فوق هذا علم منطق الطير فصارت معرفته بحاجياتها وتدبير شئونها أتم ، وقد قيل من عرف لغة قوم أمن من مكرهم . ويقول سليمان : « يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء » أى ان الله الذى علمنا . وهو الذى آتانا كل شيء . ويقول المرحوم الاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتابه الجواهر : إن تعليم الله لنبيه سليمان كان معجزة . ولذلك قال علمنا ، ولم يقل تعلمنا أما نحن فنعرفه من طريق التعلم .

وقد عرف العلماء كثيراً من لغات الطيور وكتبوا كتباً فى ذلك يبينون نظم هذه الحيوانات وليرجع من أراد إلى ما كتبه (اسبينا) فى كتابه « جمعيات الحيوان Espinas : Societés animales » وفُرل فى كتابه جمعيات النمل . ولويس فيجيه وما كتبه عن الحشرات : فكل هذه الحيوانات صغيرها وكبيرها ، طائراً أو غير طائر تعيش فى جماعات ، ولها نظام ولغة ، وقد أعلمنا الخبير العليم قبل أن يفطن العلماء إلى ذلك فقال تعالى : ﴿ وما من دابَّة فى الأرض ولا طائر يَطير بجَناحَيْه إلا أُمَمٌ أمثالكم ما فرّطنا فى الكتاب من شيء ثم إلى ربِّهم يُحْشَرون ﴾ (سورة الانعام) . وقال تعالى : ﴿ وقُلِ الحمدُ لله الذى سيُريكم آياته فتعرفونَها ﴾ . وكأن الله يقول إنكم لا تعرفون لغات الطيور . وقد علمتها لسليمان . وقد يأتى يوم يكتشف فيه

بعض ما غمض مما فى علم الخالق فيطلع الناس على عجائبه فيعرفونها بالتعليم لا بالقوة القدسية كالأنبياء . يريكم الله إياها . ويرشدكم إلى مواطنها فتعرفونها لأنكم مأمورون أن تعرفوا آيات الله على قدر طاقتكم .

وقد ذكر القرآن الكريم مثلا على معرفة سليمان للغة النملة التى حذرت قومها من جيوش سليمان .

٦ — قال تعالى : ﴿ وحُشِرَ لسليمانَ جُنودُه من الجنّ والإنس والطّير فهم يُوزَعُون ﴾ أى جمع لسليمان جنوده المسخرة له من الجن وهو العالم الخفى الذى يقابل الانس ومن الانس والطير « فهم يوزعون » أى يساسون ويقمعون . إن جيش سليمان كان على كثرته سهل القيادة ويتصل بعضه ببعض عند الاستعراض ﴿ حتى إذا أَتَوا على وادى النَّمْل قالتْ نملةٌ يا أَيُّها النَّملُ ادْخُلوا مساكنكم لا يَحْطِمَنَّكم سليمانُ وجُنودُه وهم لا يَشْعرون . فتبسَّم ضاحكا من قولها وقال ربِّ أَوْزِعْنى أنْ أشكرَ نعمتَك التى أنعمتَ علىَّ وعلى والدىَّ وأنْ أعملَ صالحاً ترْضاه وأدْخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾

إن كل جماعة لها نظام يجب أن تكون لها لغة تتفاهم بها وتحذر وتذكر وتنذر وتبشر . وكتب علماء الاجتماع الذين اشتغلوا بحياة الجماعة للحيوان ما كشف عن قدرة الله تعالى وآياته التى لا عداد لها ، والتى يجب أن تكون موضع الدرس والبحث . وضرب الله مثلا بهذا ليعلمنا بالدليل على فهم سليمان عليه السلام منطق الطير .

٧ ـ لقد آتى الله داود وسليمان علماً وقال تعالى : ﴿ لقد آتينا داودَ وسليمانَ علماً . وقالا الحمدُ لله الذى فَضَّلَنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين ﴾ .

ويفهم من الآية ما يأتى :

أولا : إنها دليل على علو مرتبة العلم لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم .

ثانياً : إنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل ، وذلك يدل على حسن التواضع

ثالثاً : إن الظاهر يقتضى أن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على هذا العلم كما يقول بعض المفسرين . إذا دخل الانسان متحف فنان من المصورين وأعجب بعمل المصور أليس من العقل والحكمة أن يتصل بالفنان ويتعرف به ليزيده بياناً وإيضاحاً لمعرفة فنه ، فكذلك العلماء والحكماء أمام الكشف عن نواميس هذا الكون هى أن يعملوا على معرفة الله عز وجل ليستعينوا بهدايته وإرشاده على معرفة ما أبدعه وما أوجده ، ولذلك كان العلم بالله هو أساس المعرفة والعلوم .

آيات العلم

فى ملك سليمان عليه السلام

— ٢ —

كيف كشف عرش بلقيس ؟ وكيف أحضر

كان من ضمن جيوش سليمان عليه السلام الطير ، وكان يعرف لغتها ومن بينها الهدهد ، وقد ذكر القرآن قصته وأنه اكتشف سبأ ، وعرف من عرش بلقيس ملكتها ما لم يعرفه . قال تعالى فى سورة النمل :

﴿ وتفقد (سليمان) الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذاباً شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ (أى فمكث الهدهد مكثاً غير طويل فلما رجع سأله عما لقى فى غيبته) . « فقال أحطت بما لم تحط به . علمت ما لم تعلم ، وما كان الذى يعلم الشىء من جميع نواحيه يحيط بذلك الشىء عبر عنه بذلك ، وفى الآية إشارة إلى أن الأنبياء تخفى عليهم أمور يعرفها غيرهم وذلك ليعرف الناس أقدارهم وليتعلم الانسان من كل أحد لأن سليمان لم ير باسا فى أن يتعلم من طريق الهدهد وهو ذلكم الطائر

المعروف ، ألهمه الله فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة ، والاحاطة بالمعلومات الكثيرة ، لينبهه الله تعالى على أن فى أدنى خلقه وأضعفهم من أحاط علماً بما لم يحط به ليتصاغر اليه علمه وتتحافز اليه نفسه ويكرن ذلك لطفاً به ، وليكون فى ذلك عبرة لأهل العلم فى ترك الاعجاب الذى هو فتنة العلماء ويالها من فتنة ! وفى الحكم المشهورة والقول المأثور : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » وذلك اكبار لشأن العلم وإعلاء لمنزلته . وأى إكبار أعظم من أن نبى الله سليمان يأخذه من طير من الطيور ويتلقاه من نوع غير نوعه ، ولا يرى غضاضة على نفسه فى ذلك . ولعل الناس يفطنون لهذا فيكبرون من شأن العلم كما أكبره سليمان ، ويهتمون به كما اهتم به سليمان . ولا سيما العلم المتعلق بأحوال الممالك والأمم .

« وجئتك من سبأ بنبأ يقين » أى بخبر محقق . وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان كما يقول المؤرخون نسبت اليه القبيلة ، وكانت تسكن بلاد اليمن .

« وإنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم » والمرأة هى بلقيس بنت شراحبيل وكان أبوها ملك أرض اليمن وكانت هى وقومها مجوساً يعبدون الشمس . والضمير فى تملكهم لسبأ « وأوتيت من كل شىء » يحتاجه الملوك « ولها عرش عظيم » سرير كبير « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » فكانوا يعبدونها وعبر عن العبادة بالسجود لأنه أظهر أشكالها « وزين لهم الشيطان أعمالهم » من عبادة الشمس وغيرها من الأفعال والاعتقادات « فصدهم عن السبيل » أى سبيل الحق والصواب « فهم لا يهتدون » اليه « وأن لا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات

والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون »

والمعنى : أى يا قوم اسجدوا لله الذى يخرج المخبوء والغائب فى السموات والأرض من نبات وأمطار وغيرها وأن الله هو الذى يخرج للناس ما كان خفياً عليهم . فالنبات قبل أن يولد كان خبأ فى الأرض فاظهره الله وأخرجه . والأجنة فى بطون أمهاتها كانت كذلك فأخرجها الله وأظهرها وأتم خلقها وصورها . والكواكب تختفى فى النهار ثم يخرجها الله تعالى فى الليل ويظهر ضوءها للعالم . والشمس تغيب عن طائفة بالليل وتظهر لها بالنهار . والامطار يخرجها للعالم وينزلها من جهة العلو فتنتفع بها الناس « ويعلم ما تخفون وما تعلنون » أى مع إخراجه الخبء يعلم ما نخفيه فى أنفسنا وما نعلن . والاله الذى له هذه الآثار وله العلم المحيط هو الذى يستحق أن يعبد .

قال تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (سورة فصلت) .

« الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » . أى هو المعبود الذى يستحق السجود له ولا إله غيره رب السموات والأرض ورب الخلق جميعاً . وعرش الله تعالى فوق العروش وسلطانه فوق كل سلطان هو عرش من بيده ملكوت كل شىء ، له الأولى والآخرة . ﴿ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا أيها الملأ أنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله

الرحمن الرحيم . ألاَّ تعلوا علىَّ وأْتونى مُسْلمين . قالت يا أيُّها المَلأُ أفتونى فى أمرى ما كنتُ قاطعةً أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أُولُوا قوَّة وأُولُوا بأْسٍ شديد والأمرُ إليك فانظرى ماذا تأْمرين . قالت إن الملوك إذا دَخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلها أذلَّةً وكذلك يَفْعلون . وإنى مُرْسلةٌ إليهم بهدية فناظرةٌ بم يَرْجعُ المُرْسَلون . فلما جاء سليمان قال أتُمدُّونَنِ بمال فما آتانِ اللهُ خيرٌ مما آتاكم بل أنتم بهديَّتكم تَفْرحون . ارجعْ إليهم فلنأْتينَّهم بجنود لا قِبَلَ لهم بها ولنُخْرجنَّهم منها أذلةً وهم صاغرون . قال يا أيُّها المَلأُ أيُّكم يأْتينى بعَرْشها قبل أن يأْتونى مسلمين . قال عفريتٌ من الجنِّ أنا آتيكَ به قبل أن تقومَ من مَقامكَ وإنى عليه لقويٌّ أمين . قال الذى عنده علمٌ من الكتاب أنا آتيكَ به قبل أن يرتدَّ إليكَ طرْفكَ فلمَّا رآه مستقراً عنده قال هٰذا من فضْل ربى لِيَبْلُونى أأشْكر أم أكفُرُ ومن شَكر فانَّما يشْكرُ لنفسه ومن كفَرَ فان ربى غنىٌّ كريم . قال نَكِّروا لها عَرْشها نَنْظُرْ أتهْتدى أم تكونُ من الذين لا يَهْتدون . فلما جاءتْ قيل أهٰكذا عرشُك قالت كأنَّه هوَ وأُوتينا العلمَ من قَبْلها وكنَّا مسلمين . وصَدَّها ما كانتْ تَعْبُدُ من دُون الله

إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها . قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾

أراد سليمان أن يختبر الهدهد أصادق فى خبره أم كاذب ؟ فأعطاه كتاباً ليوصله إلى الملكة فذهب الهدهد بالكتاب وألقاه على سريرها فأخذته فاذا به من سليمان لأن اسمه كان عليه . أما نص الكتاب فهو الجمل الثلاث :

(١) « بسم الله الرحمن الرحيم (٢) ألا تعلوا علىَّ (ومعناه لا تتكبروا ولا تتعاظموا على الإجابة) (٣) وائتونى مسلمين » بيان الغرض من الكتاب ، ومعناه منقادين لله طائعين .

لم ترد الملكة أن تستبد بالاجابة فجمعت رجال دولتها وأهل مشورتها من الأقيال وغيرهم وأعلمتهم بكتاب سليمان . ومن هذا نعلم أن مبدأ الشورى فى الحكم مبدأ قديم قد اهتدى اليه العرب فى عصرهم الأول وعملوا به فى القرون القديمة لأن فائدته واضحة وثمرته جليـــة . ولذلك جاءت الشريعة الاسلامية باعتباره أصلا من أصولها فى سياسة الدولة ، وقاعدة من قواعدها فى المصالح العامة ، فأمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يستشير أصحابه فى الأمر الذى يعرض له ولهم كالحرب والسلم وعقد المعاهدات وما إلى ذلك قال تعالى : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » ثم قال بعـــد ذلك : « فاذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » (سورة آل عمران) أى بعد أن تعد العدة للأمر وتبحثه من جميع نواحيه وصممت

بعد ذلك على الامضاء فلا يحولن بينك وبينه تثبيط أو تشكيك لأن التردد لا يليق بأصحاب العزائم الصادقة والارادة القوية ، وكذلك التسرع والشروع فى عمل قبل استيفاء بحثه واستكمال ما يلزمه من معدات وقد كان ذلك شأن النبى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فيما يعرض له من حوادث وما يقع له من مشاكل .

وقد جعل الله تعالى الأمر بالشورى صفة من صفات المؤمنين وخلقا من أخلاقهم كصلاتهم وصومهم إذ يقول ﴿ فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾ سورة الشورى .

لما علم الملأ بكتاب سليمان أخذتهم العزة وثارت فيهم الحماسة وقالوا لها : ﴿ نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ﴾

كانت الملكة عاقلة فنظرت فى الأمر بعين الفطنة ولم تغتر بما أبداه رجالها من الحماسة وقالت لهم إن دخول الملوك إلى المدن ليس من الهنات الهينات وأثره ليس بالسهل على أهلها ، فانهم إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة . وعرضت عليهم رأيا آخر وذلك أن ترسل إلى سليمان بهدية تصانعه وتستنزل مودته بسببها ثم تنظر ماذا يرجع به رسلها . فان كان سليمان

ملكا مؤيداً من الله تعالى رد الهدية ، وإن كان من ملوك الدنيا ولا هم له إلا المال قبلها . وهناك تتبين قوته المعنوية ، ومقدار ماعنده من عزم وحزم ثم يكون لها شأن آخر بعد ما تقف على حقيقة أمره ، وما عنده من رجال وعتاد .

فلما جاءت رسلها الى سليمان بالهدية لم يقبلها وأظهر أنه ليس فى حاجة الى أموالهم وأنه فى حالة حسنة وانفساح ثروة أحسن مما فيه الملكة وقومها وتوعدهم وملكتهم بأن يرسل الى بلادهم بجنود لا قبل لهم بها وأن عاقبة ذلك إخراجهم أذلة صاغرين .

لما رجعت الرسل الى الملكة وعلمت عظمة سليمان وقوة سلطانه أشفقت على قومها ، وأجمعت الذهاب إليه فى رجال دولتها ، وجاءت الى أورشليم بهدية عظيمة .

لما علم سليمان باعتزام ملكة سبأ على زيارته فى عاصمة ملكه شيد لها صرحا عظيما ، ومرد أرضه بالزجاج . وهذا شيء لا عهد لأهل اليمن بمثله .

ولما قربت من ديار سليمان أراد أن يظهر لها من دلائل عظمته ونعم الله تعالى عليه مايبهرها ، وأن ترى بعينها ما لم ترها الأحلام بفعل عجيبة ظاهرة وهى أن يأتيها بعرشها الجميل ليكون جلوسها عليه فى ذلك الصرح ، فسأل جنوده عن قوى أمين يأتيه بذلك العرش ، فانتدب له عفريت من الجن وقال له أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك هذا وإنى عليه لقوى أمين على مافيه من الجوهر والحلى . وقال شخص من الانس أو الجن عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، وكان الأمر كما قال فجاء به ووضع

فى الصرح الذى هيء لاستقبالها . فلما جاءت ورأت العرش قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو ، ولما أرادت دخول الصرح والوصول الى العرش ظنت الزجاج ماء فكشفت عن ساقيها لئلا تبتل ثيابها بالماء ، وأخبرت بأن ماظنته ماء إنما هو زجاج فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

كيف أحضر عرش بلقيس ؟

سخر الله تعالى لسليمان الريح والجن كل أولئك لهم من قوة الاحتمال والسرعة الشيء الكثير ، إلا أن العلم وما يدخره من قوة كان له قصب السبق واليد الطولى فى انتقال العرش فى لحظة يسيرة ربما ينكشف لنا فى القريب عن طريق الكهرباء أو غيره ما يستطيع به الانسان أن يعرف كنه هذه السرعة ، ويتعرف حقيقة هذه الظاهرة مادامت خاصة بالعلم والذى أعلمنا بسنة تسخير الريح لسليمان وسخرها لعلماء هذا العصر فأصبحت فى متناول أهل الفن والعلم ، فكذلك ليس ببعيد أن نعرف هذه الظاهرة أيضا .

حدثنى سعادة فؤاد باشا سليم - وكان فى الحرب الماضية سفيراً لتركيا فى برن عاصمة سويسرا - وكان مرشحا لأن يكون وزيراً مفوضا فى النمسا لمصر قال : انه سمع من الأستاذ المرحوم الشيخ حسن الطويل وكان عالما ورعا ومدرسا فى دار العلوم يحدث والده لطيف باشا سليم أنه كان ذات يوم

واقفا فى ميدان باب الخلق قبيل المغرب وإذا بأحد أصحابه من طلاب الأزهر الفقراء يعرض عليه إذا كان يرغب فى صلاة المغرب فى مسجد السيد البدوى بطنطا، فاستغرب من ذلك وما هى إلا لحظة حتى رأى نفسه فى المسجد، وبعد ذلك عرض عليه الرجوع وأن يصلى العشاء فى المسجد الحسينى بمصر فرفض وأصر على أن يبقى فى طنطا وهو لا يصدق ما رأى، وظن أنه ربما يكون ماصنع صاحبه سحر ساحر، إلا أنه بعد صلاة العشاء ذهب الى بعض أهله فى طنطا وبات عندهم ورجع فى الصباح الى مصر عن طريق السكة الحديد. وبذلك تحقق من صدق عمل صاحبه.

إن هذا الكون مملوء بالنواميس والأسرار العجيبة وما علمناه منها قليل بالنسبة لما لا نعلمه. ومفتاح ذلك العلم والبحث عن سر حقائقه، ويجب أن يكون ذلك موضع الدرس والتفكير.

والله الهادى الى طريق السداد.

آيات العلم

فى ملك سليمان عليه السلام

— ٣ —

« السحر » :

قال تعالى : ﴿ ولمّا جاءهُمْ رسولٌ من عند الله مُصدِّقٌ لما معَهُمْ نبذ فريقٌ من الذين أُوتُوا الكتابَ كتابَ الله وَراء ظُهورهم كأنَّهمْ لا يعْلمون. واتَّبعُوا ما تتلو الشياطينُ على مُلك سُليمانَ . وما كفرَ سُليمانُ ولكنَّ الشياطين كفروا يُعلِّمون الناسَ السحرَ وما أُنزلَ على المَلكيْن ببابلَ هارُوتَ ومارُوت . وما يُعلّمان من أحدٍ حتى يقولا إنما نحنُ فتنة فلا تَكفُرْ فيتعلَّمونَ منهما ما يفرِّقونَ به بينَ المَرْءِ وزَوْجه وما هم بضارِّينَ به من أحَدٍ إلا باذن الله ويتعلَّمونَ ما يضرُّهم ولا ينفعُهم ولقد علموا لَمنِ اشتراهُ ما له فى الآخرة من خَلاق ولَبئسَ ماشَروا به أنفسَهم لو كانوا يَعْلَمون ﴾ سورة البقرة .

هذا إخبار من الله تعالى عن الطائفة الذين نبذوا الكتاب بأنهم اتبعوا السحر أيضا وهم اليهود . وقال السدى : عارضت اليهود محمداً صلى الله عليه وسلم بالتوراة ، فاتفقت التوراه والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت . وقال محمد بن اسحاق : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان فى المرسلين قال بعض أحبارهم : يزعم محمد أن ابن داود كان نبيا والله ما كان إلا ساحراً فأنزل الله عز وجل : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » أى ألقت الى بنى آدم أن مافعله سليمان من ركوب البحر واستسخار الطير والشياطين كان سحراً . (الجامع لأحكام القرآن - لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى الجزء الثانى ص ٤١) .

جاء ذكر السحر فى مواضع متعددة فى القرآن ، وأكثره فى قصة موسى وفرعون . وذكر هنا فى الكلام عن اليهود . وإذا أردنا فهمه من عرف اللغة وجدنا أن السحر عند العرب كل ما لطف مأخذه ودق وخفى ، وقالوا : عين ساحرة وعيون سواحر . وفى الحديث الصحيح : « إن من البيان لسحرا » والسحر بالفتح وبالتحريك الرئة وهى أصل هذه المادة والرئة فى الباطن ، فما لطف مأخذه ودق صنعه حتى لا يهتدى إليه غير أهله فهو باطن خفى ، ومنه الخداع وهو أن يظهر لك شيئا غير الواقع فى نفس الأمر . فالواقع باطن خفى . وتأثير العيون فى عشاق الحسان ، والكلام البليغ فى عشاق البيان مما يخفى مسلكه ويدق سببه حتى يعسر على أكثر الناس الوقوف على العلة فى تأثيره .

وقد وصف الله تعالى السحر فى القرآن بأنه تخييل يخدع الأعين فيريها ما ليس بكائن كائنا فقال « يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » والكلام

فى حبال السحرة وعصيهم . وفى آية أخرى : « فسحروا أعين الناس واسترهبوهم » وفى هذه الآية التى نفسرها أن السحر كان يؤخذ بالتعليم ، والتاريخ يشهد بهذا . وقد كان المصريون يطلقون لقب الساحر على العالم كما يؤخذ من قوله تعالى ﴿ وقالوا يأيها الساحر ادع لنا ربك ﴾ .

ومجموع هذه النصوص يدل على أن السحر إما حيلة وشعوذة وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكثرون فيسمون العمل بها سحراً لخفاء سببه ، ولطف مأخذه . ويمكن أن يعد منه تأثير النفس الانسانية فى نفس أخرى لمثل هذه العلة ، وقد قال المؤرخون إن سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصور الحيات والثعابين ، وتخييل أنها تسعى . (تفسير المنار للأستاذ الشيخ رشيد الجزء الأول ص ٣٩٩) .

وقال ابن خلدون فى مقدمته : السحر هو علم بكيفية الاستعدادات تقتدر النفوس البشرية به على التأثيرات فى عالم العناصر إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية . والأول هو السر . والثانى هو الطلسمات . .

والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث يأتى شرحها :

فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين ، وهذا هو الذى تسميه الفلاسفة السحر .

الثانى : بمعين من مزاج الأفلاك والعناصر أوخواص الأعداد ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الأول .

الثالث : تأثير القوى المتخيلة صاحب هذا التأثير الى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقى فيها أنواعا من الخيالات والمحاكاة .

وصورا مما يقصده من ذلك ثم ينزلها الى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤن كأنها فى الخارج وليس هناك شيء من ذلك . كما يحكى عن بعضهم أنه يرى البساتين والأنهار والقصور . وليس هناك شيء من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة بالشعوذة أو الشعبذة .

هذا تفصيل مراتبه ثم هذه الخاصة تكون فى الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها وإنما تخرج الى الفعل بالرياضة .

ورياضة السحر كلها تكون بالتوجه الى الأفلاك والكواكب . والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل فهى لذلك وجهة سجود لغير الله . والوجهة الى غير الله كفر فلهذا كان الكفر من مواده وأسبابه كما رأيت .

ولهذا اختلف الفقهاء فى قتل الساحر هل هو لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالافساد وما ينشأ عنه من الفساد فى الأكوان والكل حاصل منه . ولما كانت المرتبتان الأوليان من السحر لهما حقيقة فى الخارج والمرتبة الثالثة لا حقيقة لها . اختلف العلماء فى السحر هل هو حقيقة أو انما هو تخيل . فالقائلون بأن له حقيقة نظروا الى المرتبتين الأوليين . والقائلون بأن لا حقيقة له نظروا الى المرتبة الثالثة الأخيرة فليس بينهم اختلاف فى نفس الأمر بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب والله أعلم .

اعلم أن وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذى ذكرناه وقد نطق به القرآن الكريم أن هاروت وماروت كانا رجلين تظاهرا بالصلاح والاستقامة فى بابل العراق أو ببابل أخرى على خلاف فى ذلك فلما استرعيا أبصار أهل ذلك الجيل وتمكن حبهما والثقة بهما من قلوبهم

جعلا يعلمانهم السحر والكهانة . ولاستبقاء ما أحرزاه بينهم من المنزلة كانا كلما علماهم شيئا من ذلك شفعاه بقولهم ﴿ إنما نحنُ فتنةٌ فلا تكفرْ فيتعلَّمونَ منهما ما يفرِّقونَ به بين المَرْء وزَوْجه ﴾ يقصدان بذلك ألا يخالج أحدا من مستمعي وساوسهما وتخرصاتهما شيء من الريب فيهما واستدرارا لما كانا يقتنصان بأحابيل تلك التمويهات والأكاذيب من أموالهم ، فكان الناس يعتقدون أنهما ينزل عليهما السحر بوحي من الله وإلهام . وأمثال هاروت وماروت موجودون مشاهدون في كل مكان وزمان . أما تسمية الصالحين أو المتظاهرين بالاستقامة ملائكة فان ذلك من عادة أهل الكتاب منذ القدم فعبر القرآن بذلك محاكاة لهم ولطالما سمعنا المسيحيين كلما أرادوا الاغراق في مدح أحد بالاستقامة والصلاح قالوا إنه « ملاك » بفتح الميم أي ملك فقول القرآن ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل ﴾ معناه أن اليهود كانوا يتبعون ما يقولون أنه أنزل على الرجلين الصالحين اللذين كانا ببابل يعلمان الناس السحر ويقولان للناس لا تكفروا بما تتعلمون من ضروب السحر فانما نحن فتنة فقط ، فكانوا يتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه من الرقى وصنوف السحر .

وإنما كفر القرآن الكريم شياطين الانس الذين يعلمون الناس السحر لأن ذلك السحر يقتضي رياضات مخصوصة ، ومناجاة لصنوف الجن أو نفوس الأفلاك والكواكب وابتهالات لبعض الأرواح الخيرة أو الشريرة . ولاجرم أن جميع ذلك من عبادة غير الله تعالى والشرك به ، ولذلك كفر هؤلاء بما

يأتون من ضروب الكفر والشرك. (تفسير أسرار القرآن لواضعه المرحوم عبد العزيز جاويش الجزء الأول ص ٣٠٠).

السحر هو علم له قواعده وأصوله. وقد كشف عن بعض أسبابه التنويم المغناطيسى حينما يتأثر المنوم بتشديد الواو المفتوحة بواسطة المنوم بتشديد الواو المكسورة ويصبح فى قبضة يده يأتمر بأوامره ويتأثر بما يقول.

ولقد أصبح التنويم المغناطيسى فرعا من علم النفس يدرس فى بعض الجامعات، وقد حضرته على الاستاذ كلابريد فى جامعة جنيف بسويسرا فى خلال الحرب الماضية، وقد عمل عدة تجارب على أشخاص كان ينومهم ويأتمرون بأمره فاذا أطعمهم الموز وقال لهم هو حنظل يلفظونه ويطعمهم الطماطم باسم التفاح فيستلذون طعمها ويسمى أحدهم باسم غير اسمه فيصدق ويتسمى به.

ودرجات المنوم ثلاث:

أولا — أن يفقد الإحساس ويلبث شاخص العين ويتلقى أوامر المنوم وتلوح عليه الأمارات الدالة على قبوله لكل مايريد المنوم بالكسر. وفى هذه الحالة لو أدخل رجل المنوم بالفتح فى ماء تغلى أو قرص جسمه لم يحس.

ثانيا — أن يفقد الاحساس تماما، ويغلق عينيه كالحالة الأولى. ولكن تمتاز هذه بأنه يسمع ويبصر ويتكلم ويجيب بمعزل عن الحواس. ويكتب ويقرأ كما يامره المنوم.

ثالثا — أن يحصل انحطاط روحى بأقصى درجاته وإذن يعرف النائم نفسه معرفة تامة، ويصف علل جسمه والعلاجات الملائمة ويشاهد أفعال

الناس ، ويسمع كلامهم من بعد سحيق . وينبىء عن حوادث مستقبلة ويتكلم بلغات شتى .

ولاتزال النفس البشرية فى عالم المجهول أكثرمنها فى عالم الظهور ، ويجب أن تكون موضع الدرس والبحث ، وعالم الروح له من القوانين والأحكام ما يشبه عالم المادة . وإذا كان القوى يتسلط أحيانا على الضعيف فيسلبه حقه ويسخره لغرضه ، فكذلك النفس أوالروح القوية تسيطرعلى النفس أوالروح الضعيفة فتؤذيها بوسائل شتى .

وقد نبه القرآن الكريم على أن أمثال هؤلاء الناس ممن يشتغلون بالسحر لا يصل ضررهم إلى الغير إلا باذن الله، أى أنهم ليس لهم قوة غيبيـــة وراء الأسباب التى ربط الله بها المسببات ، فهم يفعلون بها ما يوهمون الناس أنه فوق استعداد البشر وفوق ما منحوا من القوى والقدرة ، فاذا اتفق أن أصيب أحد بضرر من أعمالهم فانما ذلك باذن الله ، أى بسبب من الأسباب التى جرت العادة بأن تحصل المسببات من ضرر ونفع عند حصولها باذن الله تعالى .

وصف القرآن الذين يشتغلون بالسحر بقوله : ﴿ ويَتعلَّمون ما يَضرُّهم ولا ينفعهم ﴾ يضرهم لأنه سبب فى الاضرار بالناس وهو محرم يعاقب الله تعالى عليه فى الآخرة ومن عرف بايذاء الناس يمقته الناس ويكونون عليه . وقد صـــدق الله تعالى ، فاننا نرى منتحلى السحر وما فى معناه أفقر الناس وأحقرهم . ولو عقل السفهاء الذين يختلفون إليهم يلتمسون المنافع لأنفسهم والايقاع بأعدائهم لعلموا أن الشقى فى نفسه لا يمكن أن يهب السعادة لغيره

لأن فاقد الشيء لا يعطيه . هذه حالهم فى الدنيا فكيف يكونون فى الآخرة يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون[١]

إن كل أمة فشا فيها السحر ، سواء كان ذلك لجلب نفع أو دفع أذى أو الاضرار بالغير فذلك دليل على انحطاطها وفساد خلقها فالغنى لا يأتى على طريق تسخير الجان وتلاوة العزائم لفتح الكنوز وفك الطلاسم فمثل هؤلاء كأمثال من يريد أن يتعيش من وراء استخدام بعض السفهاء من الأشرار ليأخذوا أموال بعض الناس من الضعفاء والمساكين بالباطل وهم المعروفون « بالبلطجية » وهم أحط الطبقات وأحقر الخلق . والثراء والغنى وقد عرفت أسبابه فهو لا يأتى إلا عن طريق العمل المنتج فى التجارة والصناعة أو الزراعة وغيرها والعلوم الاقتصادية والمالية أوضحت الطريق لمن يريد أن يسلكه . كذلك أخذ الحق أو تحقيق الرغبة عن طريق السحر والاضرار بالغير عدة الجبان الحقير الذى يريد أن يمشى فى الظلام ليصل الى ما يريده . وأن النفس العالية صاحبة الكرامة تأبى أن تحقق رغباتها فى مثل هذا الطريق وإنما لابد أن تسير فى وضح النهار وسيلتها الأسباب المشروعة ، وتقوى الله تعالى ، (أى اتباع أوامره والبعد عن نواهيه) هى اس السعادة فى الدارين .

﴿ ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يجعلْ له مخْرَجا ويرزُقه من حيثُ لا يَحْتسِب . ومن يتوكلْ على الله فهو حَسْبُه ﴾ .

---

(١) تفسير القرآن الحكيم الجزء الأول ص ٤٠٥ للسيد رشيد رضا - أسرار القرآن الجزء الأول ص ٣٠٠ للاستاذ عبد العزيز جاويش - الجواهر فى تفسير القرآن الكريم للاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى الجزء الأول ص ١٠٤

آيات العلم

فى ملك سليمان عليه السلام

— ٤ —

« القضاء » :

قال تعالى : ﴿ وداودَ وسُليمانَ إذ يَحْكُمان فى الحَرْث إذ نَفَشَتْ فيه غنمُ القوم وكنّا لحكمهم شاهدين . ففهّمْناها سليمانَ وكلًّا آتينا حُكما وعِلما ﴾ . سورة الأنبياء .

قال أكثر المفسرين دخل رجلان على داود عليه السلام ، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم . فقال صاحب الحرث : إن غنم هـذا دخلت حرثى وما أبقت منه شيئا . فقال داود عليه السلام : اذهب فان الغنم لك ، فخرجا فمرا على سليمان . فقال كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه فقال : لو كنت أنا القاضى لقضيت بغير هذا . فاخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال : كيف كنت تقضى بينهما ؟ فقال : أدفع الغنم الى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدر والنسل والوبر حتى إذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم أكل دفعت الغنم الى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه .

قال ابن مسعود وشريح ومقاتل رحمهم الله : إن راعيا نزل ذات

ليلة بجنب كرم فدخلت الأغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم . فذهب صاحب الكرم من الغد الى داود عليه السلام فقضى له بالغنم لأنه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت . فخرجوا ومروا بسليمان فقال لهما : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه فقال غير هذا ارفق بالفريقين فأخبر داود عليه السلام بذلك فدعا سليمان وقال : بحق الأبوة والبنوة إلا أخبرتنى بالذى هو أرفق بالفريقين فقال : تسلم الغنم الى صاحب الكرم حتى يرتفق بمنافعها ، ويعمل الراعى فى إصلاح الكرم حتى يصير كما كان ، ثم ترد الغنم الى صاحبها . فقال داود : إنما القضاء ما قضيت . وحكم بذلك .

والمسألة اجتهادية ، ووجه الاجتهاد ما ذكره ابن عباس رضى الله عنه من أن داود عليه السلام قوم الضرر بالكرم فكان مساويا لقيمة الغنم فكان عنده أن الواجب فى ذلك الضرر أن يزال بمثله من النفع فلا جرم سلم الغنم الى المجنى عليه كما قال أبو حنيفة رحمه الله فى العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه . وأما سليمان عليه السلام فان اجتهاده أدى الى أنه يجب مقابلة الأصول بالأصول والزوائد بالزوائد فأما مقابلة الأصول بالزوائد فغير جائزة لأنه يقتضى الحيف والجور ولعل منافع الغنم فى تلك السنة كانت موازية لمنافع الكرم فحكم به كما قال الشافعى رضى الله عنه فيمن غصب عبداً فأبق من يده أنه يضمن القيمة لينتفع بها المغصوب منه بازاء مافوته الغاصب من منافع العبد ، فاذا ظهر ترادّا[1]

إن الله أعطى كلا من داود وسليمان عليهما السلام مقدرة على الحكم بين

---

(١) الفخر الرازى الجزء السادس ص ١١٨

الناس وعلما يرشده الى طريق الحكم غير أن الذى أوتى قوة الحكم قد يخطىء وجه الصواب لأنه ليس هناك وحى والمسألة اجتهادية . وقد يكون الحادث له وجوه مختلفة من جهة قياسه بأشباهه ونظائره فيختلط الأمر على المجتهد فيخطىء الصواب ، وهو مأجور على كلا الحالين . إن أخطأ فهو مأجور على اجتهاده ، وإن أصاب فهو مأجور على اجتهاده وتوفيقه .

وعن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران . فاذا حكم واجتهد ثم أخطأ فله أجر » رواه البخارى ومسلم .

وقوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ لم يكن لنقص فى داود وعدم استعداد للحكم والقضاء غير أنه قد تتفاوت القضاة والحكام مع استعداد الكل للقضاء كما كانت تتفاوت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ورد عن بعض الصحابة أنه قال : « أقضانا على وأقرأنا أبى » مع أنه كان فى الصحابة قضاة كثيرون وقراء . ولكن استعداد على للقضاء كان فوق كل استعداد غيره . واتقان أبى للقراءة فوق اتقان كثير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

فلما كان قوله تعالى ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ قد يسىء السامع فهمه ، ويخطىء فيه وجه الصواب عقبه بقوله ﴿ وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ .

والآية ترينا فقه نبى الله سليمان فى القضاء ، وكمال استعداده للحكم . وقد أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كانت امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما .

فقالت صاحبتها : إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك . فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى . فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه . فقال ائتونى بالسكين أشقه بينهما . فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله . هو ابنها . فقضى به للصغرى .

وذلك من فقه سليمان عليه السلام وكمال استعداده للقضاء ، حكم أبوه داود للكبرى بناء على قرينة من القرائن أو لأن الولد كان تحت يد الكبرى والصغرى لم تستطع أن تقيم بينة على أنه ابنها ، أما سليمان فعمد إلى أسلوب عجيب اكتشف به وجه الصواب فى ذلك الحادث فأرى المرأتين أنه مستعد لأن يشقه نصفين ويعطى كل واحدة نصفاً ، وهنا تجلت العاطفة وظهرت شفقة الأم جلية واضحة . لان الأم لا ترضى أن يقتل ابنها على مرأى منها وتؤثر أن يعيش بعيداً عنها وتحت سلطان غيرها فى سبيل حفظ حياته .

فلما أفتى بذلك وأراهم أنه منفذ ذلك لا محالة لفض النزاع بين المرأتين ، قالت الصغرى (لا تفعل يرحمك الله ، ولا نزاع بيننا ، هو ابنها) فعرف سليمان أن هذه أمه فقضى به للصغرى . وذلك من إعمال سليمان للقرائن وتحكيمه للشواهد . وهى مما يتبين به وجه الصواب فى المسائل ، فهى بينة لأن البينة ما يتبين به وجه الصواب ويظهر به الحق . وقد أطال الحافظ ابن القيم فى ذلك الباب فى كتاب (الطرق الحكمية) وفى كتاب (اعلام الموقعين) ويرى ابن القيم أن العمل بالقرائن هو شأن الناس فى كل زمان .

وقد استدل بفتوى داود فى مسألة الولد التى رواها الشيخان . وقال : إن ذلك لم يكن قضاء بشهود ، وإنما هو قضاء بنى على قرينة هى شفقة الأم التى جبلت عليها ، كما استدل بقول الشاهد فى قضية امرأة العزيز مع يوسف

﴿ إن كان قميصه قُدَّ من قُبُلٍ فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبر قال إنه من كيدكنَّ إنَّ كيدكنَّ عظيم ﴾ وهو تحكيم للقرائن ، وعمل بمقتضى المنطق والعقل . كما استدل بحوادث أخر ، وأفاض فى المسألة واستوفى الكلام على معنى البينة واشتقاقها ، واستعمال القرآن الكريم لها .

قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا داودَ وسُليمانَ علما وقالا الحمدُ لله الذى فضَّلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ سورة النمل . يخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه أعطى داود وولده سليمان علما وهو علم القضاء بين الناس كما قال فى آية الأنبياء ﴿ وكُلا آتينا حُكما وعلما ﴾ ففهم من قرنه العلم بالحكم أنه علم متعلق به ، فالحكم الذى آتاه الله إياهما حكم أساسه العلم . فالله تعالى يمتن عليهما بأن آتاهما مقدرة على الحكم بين النـــاس ، وأن هذه المقدرة أساسها العلم بوجوه الحكم وطرق القضاء وان تفاوتا فيه . وكذلك آتاهما علما بسياسة الدولة ، وتدبير شئونها كما علم سليمان منطق الطير .

وفى الآية تنويه بشأن العلم وعلو منزلته ، لاسيما علم القضاء والسياسة ، إذ لا تستوى أمة عالمة وأمة جاهلة وكذلك لا تستوى دولة فيها رجال قضاء وسياسة ودولة أقفرت من العلم ، والرجال العلماء المجربين ، وقد أصبح القضاء بين الناس ، وكذلك السياسة فنونا تدرس وتعلم ، وتطور العالم هو الذى قضى بذلك .

ولعل المسلمين يهتمون بالعلم ، ويعنون به عنايتهم بأهم أمورهم ومصالحهم حتى لا يسبقهم الأجنبي فى هـذه العلوم ، وحتى لا يقفوا والقافلة تسير ، ولا يجمدوا الفلك يتحرك ويدور .

ولعل المسلمين يفهمون أن نبي الله داود وولده سليمان لم يكونا ملكا إلا على أساس العلم وقاعدة المعرفة فاذا أرادوا أن يكونوا فى عداد الأمم الناهضة والشعوب الحية فليهتموا بالعلم من جميع نواحيه ، فان الأجنبي قد سلط عليهم لأنه علم وجهلوا ، وتقدم وتأخروا ، ونشط وناموا .

وعلم القضاء من أجل العلوم خطرا ، وأعظمها شأنا ، به يقوم ميزان العدل وعليه توطد الطمأنينة بين النفوس وينشر لواء السلام بين الناس . والانصاف ميزة للنفوس الطيبة ، تعرف ماعليها فتؤديه طائعـــة مختارة ، وتعرف مالها فتطالبه بالحسنى . وقد قيل لو انصف الناس استراح القاضى ، وبات كل عن أخيه « راضى » .

علم القضاء ليس من العلوم الهينة ، فيكفى فيها أن يعرف الانسان القواعد الفقهية والقوانين المدنية والتجارية والدولية وغيرها مما تحتاجه الأمة لتسير دفة معاملاتها فى داخل حدودها وخارجها ، بل يجب أن يروض القائمون بتنفيذ القانون من قضاة ومحامين ونواب (أعضاء النيابة) ، ورجال الشرطة من ضباط ومأمورين أنفسهم أن يتعرفوا البيئات الاجتماعية المختلفة من أخلاق وعوائد ومؤثرات اقتصادية ومالية كفقر البيئات وغناها ، وجدبها وخصبها ، وجهلها وعلمها وصـــلاح نفوس الأفراد وفسادها ، وقلة وجود المرأة وكثرتها . وما الى ذلك من العوامل الكثيرة التى تنشأ عنها الخصومة ، والتى يجب أن يصدر الحكم فيها متفقا مع العدل ومع المصلحة العامة . فيكون القانون

كالدواء الناجع ، والقاضى وتوابعه كالطبيب الحاذق الذى يعطى الدواء ليجهز به على العلة ، وبذلك تتوطد دعائم السلام ويصبح كل فرد من أفراد الأمة يشعر أن فى البلاد قانوناً رادعاً ، وقضاء عادلا ، فيعمل مطمئنا هادئا .

علم القضاء إذا سلمت قواعده وعوفيت نفوس رجاله من مرض الهوى ، وقويت عزائمهم بأن يكون الحق هدفهم وقصدهم لا يبالون فى ذلك لومة لائم . كانوا أئمه عدل ، ورسل صدق ، وهداة حق ، وفى الذروة من رفعة الشأن وعلو المنزلة ، لأنهم مهدوا الطريق لمواطنيهم وأبناء جنسهم ، على أن يعمل كل فرد لسعادة نفسه وبلاده وهـــو مطمئن على حياته وماله . وبهذا ينمو نشاط الأفراد فى جميع نواحى الحياة الاقتصاديه والمالية ، والزراعية والتجارية ، والعلمية والفنية . فعلم القضاء هو العمود الفقرى الذى إذا صلح وقوى صلح وقوى به جسم الأمة . وإذا ضعف وفسد ، ضعفت وفسدت به الأمة . قال تعالى : ﴿ ياداوُد إنا جَعلناكَ خَليفَةً فى الارض فاحْكم بينَ النّاس بالحقّ ولاَ تتّبع الهوَى فيُضلّكَ عن سَبيل الله إنَّ الذينَ يَضلُّون عنْ سَبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نسُوا يومَ الحساب ﴾ سورة ص ويجب على كل أمة رشيدة أن تختار قضاتها من العلماء الاخيار ، والمجربين الابرار ، وتمنحهم من الحصانة ما يكفل لهم القيام بواجبهم نحو احقاق الحق بدون خوف حاكم أوسلطان ، فاستقلال القضاء هـو شرط أساسى لاقامة العـــدل بين الناس قال تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يأمُرُكم أن تُؤدُّوا الامانات إلىٰ أهْلها ، وإذا حَكمتمْ بينَ النّاس أنْ تَحْكمُوا بالعَدْل ﴾ سورة النساء .

وان فى قصة نبى الله سليمان عليه السلام دعوة صادقة لبناء الملك وعظمته القائم على العلم والعدل والقوة والرحمة . وأنه لا سلطان إلا بهذا . وقد كان لدعوة القرآن الأثر الطيب فى نفوس المسلمين فأشرب الاسلام نفوسهم بهذه الخصال الحميدة . وبشدة تمسكهم بالأخلاق الكريمة دانت لهم الأرض وفتحوا من البلاد فى ثمانين سنة مالم يفتحه اليونان والرومان فى ثمانمائة سنة . وأوجدوا من الاصلاحات ومبادىء العلوم ونشرها ما كان له الأثر الطيب الذى يحفظه لهم التاريخ بالاجلال والاكبار .

والاسلام يمتاز بأخلاق أربع :

(١) العـــلم .
(٢) العـدل .
(٣) القـوة .
(٤) الرحمـة .

وبهذا دانت له البلاد وخضعت له العباد .

ذكر الكاتب الانكليزى ستانلى بول فى كتابه قصة العرب فى إسبانيا عن أعمال الخليفة عبد الرحمن الناصر مايأتى :

« نعم إن عبد الرحمن أنقذ الأندلس من نفسها ومن أعدائها . ولم يكتف بانقاذها من الدمار بل خلق منها دولة عزيزة الجانب ولم تكن قرطبة فى عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهاراً مما كانت عليه فى عهد الناصر ولم تكن الأندلس قبل أيامه فى تلك الحال من الخصب والامراع والانتاج وتوالى الخيرات التى نماها ووصل بها الى الكمال كد أهلها ومهارتهم الصناعية ولم تكن الحكم الأندلسى فى يوم من أيامه أبهر انتصاراً على الفوضى ولم تكن

قوة القانون أكثر نفوذا الى القلوب وأعظم هيبة منلما كانت فى أيام عبد الرحمن . فقد تسابق الى أبوابه الرسل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا ليقدموا إليه تحية الاجلال والتمجيد ، وكانت قوته وحكمته وثروة مملكته مضرب المثل فى أوروبا وإفريقية ، وبلغت شهرته أقصى حدود المملكة الاسلامية بآسيا ، وكان مصدر كل هذا الانقلاب العجيب رجلا واحدا عاونه كل شىء فقهره ووقف فى طريقه كل شىء فحطمه بعث الأندلس من حضيض البؤس الى قمة القوة والازدهار ولم تصل البلاد الى كل هذا إلا بذكاء الخليفة عبد الرحمن الناصر وصدق عزيمته .

ويلون مؤرخو العرب صورة هذا الرجل الهمام (عبد الرحمن الناصر) بألوان لا تكاد تتفق مع ما كان له من سياسة عنيفة مسيطرة . على أنهم كانوا أمناء فى وصفه « بأنه كان أرحم من حكم مملكة فى الأرض وأكثر الملوك علما وبأن أحاديث حلمه وكرمه وعدله سارت فى الناس مثلا شروداً وبأنه لم يفقه أحد ممن سبقوه فى الشجاعة والغيرة على الدين وبأنه كان محبا للعلم مكرما لأهله معاشرا لهم[1] » .

« ولم يعرف الأسبان عند ما نفوا العرب ماذا كانوا يفعلون حقا . لقد خربوا بيوتهم بأيديهم فانهم ابتهجوا أول الأمر بنفيهم وشمتوا فيهم وشفت غليلهم المناظر المؤثرة لهؤلاء العرب وهم يطردون من فردوسهم .

ولكن الاسبان لم يدركوا أنهم قتلوا الأوزة التى تبيض بيضة من ذهب

(١) ستانلى بول : قصة العرب فى اسبانيا ترجمة الأستاذ على بك الجارم ص ١١٧ — ١١٨

فى كل يوم فقد بقيت اسبانيا قرونا فى حكم العرب وهى مركز المدنية ومنبع الفنون والعلوم ومثابة العلماء والطلاب ومصباح الهداية والنور ولم تصل أية مملكة فى أوربا الى ما يقرب منها فى ثقافتها وحضارتها ولم يبلغ عصر فرديناند وايزابلا القصير المتلألىء ولا امبراطورية شارل الخامس الأوج الذى بلغه المسلمون فى الأندلس . وقد بقيت حضارة العرب الى حين بعد خروجهم من إسبانيا وضاءة لامعة ولكن ضوءها كان يشبه ضوء القمر الذى يستعين نوره من الشمس ثم عقب ذلك كسوف بقيت بعده إسبانيا تتعثر فى الظلام .

وإنا لنحس فضل العرب وعظم آثار مجدهم حين نرى بأسبانيا الأراضى المهجورة القاحلة التى كانت فى أيام المسلمين جنات تجرى من تحتها الأنهار تزدهر بما فيها من الكروم والزيتون وسنابل القمح الذهبية وحينما نذكر تلك البلاد التى كانت فى عصور العرب تموج بالعلم والعلماء ، وحينما نشعر بالركود العام بعد الرفعة والازدهار[1] .

ولو نظرنا لما فعله المسلمون فى الشرق ، لوجدنا لهم الآثار العظيمة من الفتوحات العلمية وغيرها ، وأخذهم بأسباب الحضارة ، فبنوا الأساطيل ، وفتحوا البلاد ، ونشروا العلم والثقافة ، كما فعل المسلمون فى الغرب .

---

(١) ص ٢٢٢ من الكتاب المذكور .

أساطيل المسلمين وفتوحاتهم

اتخذ المسلمون الأساطيل ولم يمض على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم سنون قليلة فتحوا بها مدنا هندية وجزائر كثيرة فى البحر الأبيض المتوسط .

أول ما شرع المسلمون فى الغزو بحراً كان سنة ست عشرة هجرية . فقد أرسل والى عمان أسطولا لفتح الهند فاستولى على جزيرة طناح القريبة من مدينة بمباى . وخرج من ناحية البحرين بجزيرة العرب أسطول آخر استولى فى جزيرة كامبى على مدينة بارودا . وخرج أسطول ثالث إلى مصاب نهر السند واستولى عليها .

وكان فى الوقت نفسه يغزو عبد الله بن عامر سنة ثلاث وعشرين فى خلافة عثمان بن عفان بلاد كرمان وسجستان فى شمال الهند . ثم حدثت بين جيوش كرمان والسند وقائع انتهت بفوز قائده عبد الرحمن بن سمرة عليها فاستولى على إقليم داور ومدينة بست . وتغلب بعد ذلك المهلب بن أبى صفرة على ملك أفغانستان وألزمه دفع الجزية وكان ذلك سنة أربع وستين على عهد معاوية بن أبى سفيان . وأرسل الحجاج بن يوسف الثقفى سنة تسع وستين محمد بن القاسم بجيوش إلى شاطىء نهر السند واستولى على مدائن دبيل وبيرون وبهمن آباد وألور واقترب من جبال حملايا القائمة فى شمال البلاد الهندية ولم يمض بعد ذلك غير قليل حتى كان قتيبة بن مسلم الذى ولاه الحجاج ابن يوسف الثقفى فتح آسيا الوسطى قد دحر التركمان واستولى على خوارزم وما وراء نهر جيحون ومعظم المملكة التتارية ، وأحرق أصنام مدينة فرغانة ونخشب وبيكند وبخارى وسمرقند ومدينة كشغر وأقصو وخوطان .

ولما انتهى إلى حدود الإمبراطورية الصينية أرسل إلى عاهلها وفدا مؤلفا من اثنى عشر رجلا ، وصالحهم على دفع الجزية وبعد ذلك توجه قتيبة بأسطوله على نهر السند إلى داخل البلاد الهندية ، فلحق به جيش برى فى أرض مكران وانتشر فى سهول مدينة كشمير ، فثارت عليه مدن على شواطىء نهر السند فتغلب عليها . وما زالت الجيوش الاسلامية تجوس خلال الديار الهندية حتى وصلت إلى نهر الكنج الذى يقدسه الهندوس ويحجون إليه فى كل عام .

وإنما استطردنا من ذكر الأساطيل الاسلامية التى بدأت تمخر عباب البحر من سنة ست عشرة هجرية للفتح ونشر كلمة الله فى العالم الى ذكر الفتوح التى تمت فى شمال الهند وفى داخلها ليرى القارىء صورة مصغرة لحركة التضافر بين جيوش المسلمين البرية وأساطيلهم البحرية لإدخال تلك الممالك الواسعة الأرجاء فى حظيرة الامبراطورية الاسلامية التى لم يشهد تاريخ الممالك مايقرب منها فى الاتساع والعظمة الدولية .

وأغرب ما فى هذا الأمر أن تتمكن دولة فتية كالدولة الاسلامية لا عهد لها بملك ولا حكومة من التبسط فى فتوحاتها الى هذا الحد ، وتستطيع أن تحتفظ بهذا الملك أجيالا ، لا بوسائل الاكراه والاعنات ، ولكن بروح العدل والانصاف والمثل الأعلى فى الاحسان والمرحمة . فكان من أثر هذه السيرة الفضلى أن انتشرت فى كل تلك البقاع اللغة العربية وآداب الاسلام ، فلم يمض عليها سنون معدودة حتى أصبحت أمنع معاقل الاسلام ، ومعشش حماته وأعلامه .

والله إن هذا من أعجب ما يتفق للانسان أن يقرأه فى تاريخ البشر ، وهو باجماله وتفصيله معجزة خالدة لمحمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

وأول من أمر بالغزو فى البحر الأبيض المتوسط معاوية بن أبى سفيان أيام كان واليا عليها ، فأمر باعداد اسطول فى سنة سبع وعشرين هجرية ، ووجهه للفتح فى البحر الأبيض المتوسط . فكان أول ما صادفه من جزره جزيرة قبرص ، فقاتل حاميتها ، وما زال بها حتى هزمها واستولى عليها فضرب عليها الجزية . وفى سنة تسع وعشرين استولى على جزيرة قريطش (أى كريد) وجزيرة كوس وجزيرة رودس . كل هذا وهو وال على الشام . فلما آلت إليه الخلافة بعد وفاة أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، أرسل أساطيله تترى سنة ست وثلاثين ، فحارب الرومانيين الشرقيين الذين كانت قاعدة ملكهم القسطنطينية ، فأباد جزءا من أسطول امبراطورهم قسطنطين الثانى بعد حصره فى خليج إيسا لوق بسواحل إقليم ليسيا (Lycia) على سواحل الأناضول فى سفح جبل فينكس ، ثم توجهت رغبته الى فتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، وكان ذلك سنة ثلاث وخمسين ، فجهز لذلك أسطولا قويا ، فاقتحم الدردنيل حتى وصل الى ساحل بحر مرمرة ، فنزل جنوده غرب القسطنطينية ومكثوا يحاصرونها ست سنين . فاهتدى امبراطورها الى وسيلة أحرق بها أساطيل المسلمين ، فاضطرت جنودها أن تعود الى الشام فسار يقتفى أثرهم جيش رومانى حتى أمن منهم على العاصمة والأناضول . فأغرت هذه الموقعة الامبراطور يوستنيان الثانى على أن يستولى على الشام ، وكان ذلك سنة سبع وستين ، وكان ذلك فى خلافة عبد الملك بن مروان واتفق أنه كان مشتغلا بأمر الخلافات التى كان يثيرها مزاحموه ، فرأى أن يرد الرومانيين بالحسنى ، فعاهدهم على ترك العداء . فلما استتب له الأمر رأى أن يسترد ما كان قد استولى عليه الرومانيون من الشام ، فقاتلهم وانتصر

عليهم ، ورد الى حظيرة الاسلام ما كان قد انفصل عنها من المدن والأقاليم .
ولما كانت سنة ثلاث وسبعين أرسل عبد الملك بن مروان بأساطيله لفتح جزيرة صقلية (سيسيليا) فانتصرت عدة مرات على المدافعين عنها .

ولما تولى سليمان بن عبد الملك أخذ يرسل الأساطيل لفتح القسطنطينية ، واقتفى أثره عمر بن عبد العزيز ، فكان الرومانيون يحتالون على إحراق تلك الأساطيل فتضطر الجيوش التى بها أن تعود براً ، ولكنها فى أثناء عودتها كانت تفتح مدنا وقلاعا ، فاستولوا على مدائن بسواحل بحر مرمرة ، وأثرت مسألة إحراق الأساطيل فى نفوس المسلمين ، ورأوا أن يعاملوا خصومهم بالمثل . فسار مسلمة بن عبد الملك على رأس جيش مغيرا به على آسيا الصغرى ، فاستولى على مدن كثيرة منها ، وما زال يتابع سيره حتى وصلت جنوده الى أسكدار وهى قرية حيال القسطنطينية فأحرقوا سفن الرومانيين التى كانت بها وعادوا الى معسكرهم .

وكانت ثمرة اتخاذ المسلمين للأساطيل أن فتحوا بها جميع جزر البحر الابيض ، ومدنا كثيرة من البلاد اليونانية وسواحل إيطاليا .

ثمرة هـــذه الفتوحات على المسلمين وعلى العالم كله : —

إن الامر المحسوس الذى استدل منه المؤرخون على أن تبسط المسلمين فى الفتوحات لم يكن القصد منه اجتياح الامم وسلب مذخوراتها ، أنهم قد عفوا عما فى أيدى المقهورين ولم يتناولوا منهم سوى الجزية ، وأنهم اقتبسوا كل ما صادفوه من علم نافع ، وصناعة ذات فائدة عملية . فلو كان انسياحهم فى الارض ملحوظا فيـــه استلاب ما بأيدى المقهورين من مال وعتاد ،

لسلكوا طريقة الفاتحين قبلهم ، فأحرقوا المدن بعد تجريدها من خيراتها وقتلوا أهلها أو شردوهم فى البلاد ليهلكوهم على أسوأ حال .

قال العلامة (دريبر) فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) : « إن المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهوريهم إلا شيئا ضئيلا من المال لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنية » .

وقال العلامة (سديو) Sideillot المؤرخ الفرنسى الكبير فى كتابه (خلاصة تاريخ العرب) فيما يتعلق باقتباس المسلمين للعلوم ما مؤداه :

« من تأمل فى تاريخ غارة العرب على الشام ومصر تحقق أنهم كانوا ميالين الى كسب العلوم وترقيتها . وقد تبين ذلك باقباسهم لها واشتغالهم بها ، وائتلافهم بمن سكن سواحل جزيرتهم من جاليات الامم التى لجأت هربا بدينها من الاضطهادات المذهبية وأشهرها جماعات النسطوريين النصرانية التى كانت على درجة عالية من العلم والمدنية . وهؤلاء كانوا قد أفادوا أهل الشام بعلومهم ومعارفهم ، ثم اضطروا تحت ضغط الاضطهاد الى الهرب منها الى السواحل العربية .

«وقد تبين ولوع العرب بالعلوم أيضا من اقتباسهم أصول المعارف عند فتحهم لبلاد الفرس على عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

« فلما تولى الخلافه أبو جعفر المنصور سنة (١٣٥ هـ) أظهر ميلا عظيما للعلوم الكونية فكان يستدعى العلماء من البلاد التى انضمت الى الامبراطورية الاسلامية ، ويطلب إليهم ترجمة الكتب اليونانية ، ويغدق عليهم الاموال الطائلة .

« وقد سار خلفاؤه سيرته فى نشر العلوم وترجمة كتبها عن اليونانية وغيرها ، وخاصة حفيديه المهدى وهرون الرشيد ، فقد أقبلوا على علماء النصرانية المنتشرين ببلاد من آسيا ، فاستقدموهم وأوعزوا إليهم بترجمة الكتب اليونانية والفارسية والسريانية الى العربية ، فاشتهر فى عصرهما العالم الفلكى المسمى « ما شاء الله » فوضع الاسطرلاب ودائرته النحاسية ، وأحمد بن محمد النهاوندى الفارسى ، فكان أقدم علماء الارصاد فى الدول الاسلامية ، وترجم حجازى بن يوسف كتاب إقليدس الى العربية فتقدمت فى هذا العصر العلوم الفلكية والميكانيكية ، وكفى بالساعة الدقاقة التى أهداه الرشيد الى ملك أوربا شرلمان شاهدا على تقدم الفنون فى ذلك العصر .

« فلما جاء المأمون وهو يشبه باغسطوس لدى الرومانيين ، فأحاط نفسه بأعظم علماء الارض ، وجعل بينه وبين ملوك القسطنطينية روابط حسنة بقصد تمكينه من عيون الكتب اليونانية ، فأنفق أموالا طائلة على ترجمة مؤلفات علماء الاسكندرية فى عهد البطالسة ، وترجمة غيرها مما كان مدخرا فى المكتبات الأجنبية حتى ما كان منها فى مدينة أثينا نفسها[1] » .

---

(١) الأستاذ محمد فريد وجدى — مجلة الأزهر . المجلد السادس ص ١٩٨ — ٢٠٢

آيات العلم

لعيسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿ إذْ قالت الملائكةُ يا مريمُ إنَّ اللهَ يُبشِّرُكِ بكلمة منه اسمُه المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ وجيهًا فى الدُّنيا والآخرة ومن المُقرَّبين . ويُكلِّمُ الناسَ فى المَهْد وكَهْلا ومنَ الصَّالحين . قالتْ ربِّ أنَّى يكونُ لى ولدٌ ولم يَمْسَسْنى بَشَرٌ قال كذلك اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاء إذا قضَى امرًا فانَّما يقولُ له كنْ فيكون . ويُعلِّمُه الكتابَ والحكمةَ والتَّوراةَ والانجيلَ . ورَسُولا إلى بنى إسْرائيل أنِّى قد جئتُكم بآية منْ رَبِّكم أنِّى اخلُقُ لكم من الطين كهَيْئة الطَّير فأنفُخُ فيه فيكونُ طَيرا باذن الله وأُبْرِئُ الاكمَهَ والابرصَ وأُحْيِ المَوْتَى باذْن الله وأُنَبِّئُكم بما تأكلونَ وما تَدَّخِرُون فى بُيوتكم إنَّ فى ذلكَ لآيةً لكم إنْ كنتم مُؤْمنين . ومُصدِّقا

لما بين يدىَّ من التوراة ولأُحِلَّ لكم بعض الذى حُرِّمَ عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إنَّ الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيم ﴾ . سورة آل عمران .

(كلمة) قال بعض المفسرين : لما كان عيسى عليه السلام سبباً لظهور كلام الله عز وجل بسبب كثرة بياناته وإزالة الشبهات والتحريفات عنه فلا يبعد أن يسمى بكلمة الله تعالى على هذا التأويل . « والمسيح » قال ابن عباس إنما سمى عليه السلام مسيحا لأنه ما كان يمسح يده ذا عاهة إلا برىء من مرضه . (وجيها) قال الحسن كان وجيها فى الدنيا بسبب النبوة وفى الآخرة بسبب علو المنزلة عند الله تعالى . (المهد) مضجع الصبى . (الكهل) من اجتمع قوته وكمل شبابه ، والمراد منه أنه يكلم الناس مرة واحدة فى المهد لاظهار طهارة أمه ثم عند الكهولة يتكلم بالوحى . قالت رب أنى يكون لى ولد فقال لها الله كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون . ثم قال (ونعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) والمراد من الكتاب تعليمه الخط والكتابة ثم المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق لأن كمال الانسان أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ومجموعهما هو المسمى بالحكمة . ثم بعد أن صار عالما بالخط والكتابة محيطا بالعلوم العقلية والشرعية يعلمه (التوراة) ، ولعل الحكمة فى تأخير التوراة عن تعليم الخط والحكمة لأن التوراة كتاب إلهى وفيه أسرار عظيمة . والانسان ما لم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يخوض فى البحث عن أسرار الكتب الإلهية . ثم قال فى المرتبة الرابعة (والانجيل) وإنما أخر ذكر الانجيل عن ذكر التوراة لأن من تعلم

الخط ثم تعلم علوم الحق ثم أحاط بأسرار الكتاب الذى أنزله الله تعالى على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته فى العلم فاذا أنزل الله تعالى عليه بعد ذلك كتابا آخر وأوقفه على أسراره فذلك هو الغاية القصوى والمرتبة العليا فى العلم والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية . ثم قال تعالى (ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم) وتقدير الآية ونعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ونبعثه رسولا إلى بنى إسرائيل فيقول لهم إنى قد جئتكم بآية من ربكم ، والمراد بالآية الجنس لا الفرد ، لأنه تعالى عدد أنواعا من الآيات وهى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والاخبار عن المغيبات . ثم قال : (إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله) . ذهب أكثر أهل اللغة الى أن (الأكمه) هو الذى ولد أعمى وقال الخليل وغيره هو الذى عمى بعد أن كان بصيرا ، وعن مجاهد هو الذى لا يبصر بالليـــل (وأنبئكم بما تأكلون وتدخرون فى بيوتكم) روى السدى : أنه كان يلعب مع الصبيان ثم يخبرهم بأفعال آبائهم وأمهاتهم وكان يخبر الصبى بأن أمك قد خبأت لك كذا فيرجع الصبى الى أهله ويبكى الى أن يأخذ ذلك الشىء ثم قالوا لصبيانهم لا تلعبوا مع هذا الساحر (إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) والمعنى إن فى هذه الخمسة لمعجزة قاهرة قوية دالة على صدق المدعى لكل من آمن بدلائل المعجزة (ومصدقا لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربى وربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) أى أنه لم يأت ناسخا للتوراة بل مصدقا لها عاملا بها ، ولكنه نسخ بعض أحكامها فقد كان حرم على بنى إسرائيل بعض الطيبات بظلمهم ، وكثرة سؤالهم فأحلها عيسى . ثم أعاد ذكر الآية للتفرقة بين ماقبلها

وما بعدها . ثم أمرهم بتقوى الله وطاعته فيما جاء به عنه وختم ذلك بالتوحيد والاعتراف بالعبودية وأن هذا هو أقرب موصل إلى الله تعالى .

ومقتضى مذهب الصوفية أن روحانية عيسى كانت غالبة على جثمانيته أكثر من سائر الروحانيين لأن أمه حملت به بنفخ الروح الذى تمثل به لها بشراً سوياً فكان تجرده من المادة الكثيفة للتصرف بسلطان الروح من قبيل الملكة الراسخة فيه وبذلك كان إذا نفخ من روحه فى صورة رطبة من الطين تحلها الحياة حتى تهتز وتتحرك وإذا توجه بروحانيته إلى روح فارقت جسدها أمكنه أن يستحضرها ويعيد اتصالها ببدنها زمنا ما . ولكن روحانية البشر لا تصل إلى درجة إحياء من مات فصار رميما . ويؤيد ذلك ما ينقله النصارى من إحياء المسيح للموتى قالوا إنه أحيا بنتا قبل أن تدفن ، وأحيا العازر قبل أن يبلى . ولم ينقل أنه أحيا ميتاً كان رميما . وأما إبراء الأكمه والأبرص بالقوة الروحانية فهذا أقرب إلى ما يعهد الناس لا سيما مع اعتقاد المريض (١) .

قال الأستاذ العلامة الشيخ طنطاوى جوهرى : إن الانسان له حالان : حال جسمية وحال روحية . فى الحالة الأولى يزرع ويحصد ، ويتجر ويتعلم ويأكل ويلبس ويلد بأعمال إرادية . وتكاليف ومشاق جسمية إرادية . فأما فى الحال الروحية فانه يعمل تلك الأعمال بلا كلفة ولا مشقة بل بالارادة والفكر والعزيمة كما نرى أنفسنا فى حال النوم لابسين آكلين شاربين والدين مالكين جالسين على الأسرة صورته أرواحنا من المادة الأثيرية المالئة لهذا الكون بلا كلفة ولا مشقة ونحن نراه فى النوم ولا نعجب لأنه مما تألفه النفوس

---

(١) تفسير الفخر الرازى الجـــزء الثانى ص ٤٥٧ وما بعدها وتفسير المنار الجزء الثالث ص ٣١٢

فى تلك الحال ولا تتعجب منه . هكذا حال الروح بعد الموت فاننا نفعل هذا كله بالغريزة والطبيعة والفطرة والقوة الروحية بلا تكلف ولا أمر ولا نهى ولا إنذار ولا وعيد .

فالروح تصوغ المادة الشافية والسامة والأغذية والفواكه وليس لها أدوات ولا آلات إلا إرادتها وإذن الله تعالى . وكذلك تصوغ الألبسة المختلفة . تصوغها بغريزتها وهى تجهل كيف تصوغها إذا كانت أرواحنا منحطة من فئة قليلة الترقى فى العوالم العلوية . فالمادة الاثيرية « أى اللطيفة » هى أصل العوالم كلها تتصرف فيها الروح على قدر ارتقائها . هذه قدرة الارواح التى أودعها الله عز وجل فيها كما أودعها فى أرواحنا عند النوم ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ والروح فى الحالة الروحية تفعل بالغريزة ما كانت تفعله تكلفاً ، ولا تعقل ما تفعله إلا إذا كانت روحا نقية فاضلة شريفة كاملة .

أما فى الحالة الدنيوية فان هذه الأعمال مخالفة للناموس لا توافق حالنا فلو أن امرأ أنزل الله عليه الخبز واللحم والفاكهة وهو جالس فى بيته ، ثم أفرغ عليه العلوم والمعارف من غير كد ولا نصب لكان ذلك مخالفا للناموس والقانون الذى عليه أهل الأرض ، وليس يكون ذلك سببا فى رقيهم بل الرقى فى هذه الحياة بالعمل والسعى . وهذا العمل والسعى يكونان سببا فى الرقى بعد الموت .

إلى أن قال : إن الايمان الذى يقوم على المعجزات وخوارق العادات ليس فى الدين الاسلامى غاية العلم ولا منتهى الادراك . بل دين الاسلام يدعو إلى النظر العقلى والتفكر الحكمى (١)

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . سورة العنكبوت . إن عالم الروح وإن خفى على الكثير منا إلا أن آثاره واضحة فى عالم المادة التى تحجبه عن الأبصار ، فنرى من النفوس أو الأرواح القوية والضعيفة ، والعالمة والجاهلة والزكية والغبية ، والراضية والصاخبة . وكما تؤثر المادة على بعضها لبعض فكذلك النفوس أو الأرواح للقوى منها سلطانها على من هو دونها ، فهناك من الأرواح القوية الكاشفة التى تتصل بالملأ الأعلى من الملائكة أمثال أرواح الأنبياء والأولياء والزهاد الذين خلصوا من المادة وانقطعوا للروحانيات ، وليس كل إنسان قادرا على أن يصل الى الملأ الأعلى أو الى عالم الروح إلا بمقدار ما أوتى من استعداد ومواهب تجعله أهلا لما يريد . ولو عنى الانسان بخدمة روحه من السهر عليها وحفظها من سىء الأخلاق ، كالكذب والخيانة والنفاق والجبن والبخل وما الى ذلك ، وترويضها على الاتصاف بجميل الصفات كالأمانة والصدق والشجاعة والايثار وما الى ذلك ، وابعادها عن الأوساط الفاسدة ، وسوء التغذية من قراءة الكتب والروايات

---

(١) الجزء الثانى من الجواهر فى تفسير القرآن الكريم للاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى ص ١٠٦

الخليعة ، وحرص على صحتها وكمالها بالعلم والأدب وأداء ما عليها من فروض نحو الله تعالى والوطن والانسانية كما يحرص على جسمه ، فلا يأكل إلا طيبا ولا يعيش إلا فى الأوساط الصالحة لكان له شأن آخر غير ما هو عليه الآن ، ولاستطاع أن يسمو فى درجات الكمال والسعادة مما يغير وجه هذه الحياة .

إن المسيح عليه السلام وأمه لم يذكرا فى القرآن لمجرد الايمان ولا للتاريخ فحسب ، وانما هو عظة ومثل لنا وقدوة صالحة فى العفة والزهد ، وهما مبرآن من المادة التى غمرت العالم وطغت عليه فأفسدته وجرته الى الهلاك والدمار . وكان عروجهما الى الملأ الأعلى والى الله ليكون ذلك داعيا الى أن نفكر فى أنفسنا أن العالم الانسانى من أصل روحى ، وجهاده فى الدنيا ليخرج يوما من سجنها الى فسيح الجنان ، ثم الى عالم الملائكة والأرواح المجردة ، وهذه دعوة صريحة واضحة الى أن نعنى بأرواحنا وطهرها والمحافظة عليها من الدنس ومن قبيح الصفات وسىء الأعمال مما يجعلها أهلا للنفحات الربانية والاتصال بالعلم القدسى . والطريق واضح جلى لمن أراده . فالقرآن الكريم وسنة رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم هما خير معوان للوصول الى الغرض الأسمى . وقد ورد فى الأثر « ان الناس تموت على ما عاشت عليه . ويبعثون على ما ماتوا عليه ، والدنيا مزرعة الآخرة . فانظر ما أنت زارع لتعلم ما أنت حاصد قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ . سورة الزلزال .

وإن سيرة المسيح عليه السلام كان لها الأثر الطيب فى نفوس المسلمين الأخيار وقد كان مثلا عاليا يحتذى ونرى أثره فى سيرة أبى ذر الغفارى ودعوته الى الزهد فى الدنيا وإعطاء المال كله للفقراء والمحتاجين . ومحمد بن المبارك المشهور ، وابراهيم بن أدهم الذى ترك ملكه زاهدا وأوقف حياته على الجهاد فى سبيل الله ونشر العلم ، وطلب الآخرة بانفاق كل ما ملك فى سبيل الله والبر بالانسانية ، وأمثال هؤلاء كثيرون . غير أن الاسلام جاء لخير الدنيا وطلب الآخرة من أحسن الوجوه — ومن درس الاسلام بامعان يرى أن الزهد فيه هو أن نملك الدنيا لنصرفها فيها الى خير الانسانية ، لا أن نملك الدنيا فنشقى بها .

مكانة العلم فى القرآن

(١)

لو أردنا أن نعرف فضل العلم ومكانته فى الوجود فى كتب الأولين والآخرين لما استطعنا أن نجده فى غير القرآن الكريم ، وذلك لأن الله عز وجل جعل الخلافة فى الأرض لا تكون إلا للعالم الذى يستطيع أن يستخدم ما فى الأرض والسماء والهواء والماء ، وإن الله تعالى أخبرنا وهو مبدع العالم أنه خلق الانسان وكونه على استعداد للتعليم وأن يعرف ما يحتاج إليه فى معاشه ومعاده وأن يسخر له ما فى الكون جميعا . وليقرأ الانسان ما قصه الله تعالى فى خلق آدم أبى البشر ليعرف ماقدمناه . قال تعالى :

﴿ وإذ قال ربُّكَ للملائكة انّى جاعلٌ فى الأرض خليفةً . قالوا أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماءَ ونحنُ نسبحُ بحمدكَ ونُقدّسُ لك . قال إنّى أعلمُ ما لا تعلمون . وعلّم آدمَ الأسماءَ كلّها(١) ثُمّ عرضهم على

---

(١) اختلف أهل التأويل فى معنى الأسماء التى علمها لآدم عليه السلام فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير : علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها . وروى شيبان عن قتادة قال : علم آدم من الأسماء أسماء

الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ سورة البقرة .

يعلمنا هذا القصص التاريخى ما يأتى : —

أولا — أن الخلافة فى الأرض لم يستحقها آدم إلا بالعلم .

ثانيا — لم يفضل آدم الملائكة حتى أمرت بالسجود له إلا عن طريق العلم .

ثالثا — أن آدم وذريته فيهم استعداد لأن يسخروا ما فى الكون جميعا : الأرض وما عليها والسماء وما فيها والهواء وما حوى والماء وما وعى ، وذلك عن طريق العلم .

رابعا — أن سلطان العلم ليس فوقه سلطان إلا سلطان الخالق العليم .

خلقه ما لم يعلم الملائكة وسمى كل شىء باسمه ، وألحق منفعة كل شىء الى جنسه . والمعنى علمه أسماء الأجناس وعرفه منافعها — الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى جزء أول ص ٢٨

خامسا — أن أعرف الناس بالله تعالى هم العلماء الذين يعرفون سنن الله وآياته فى الكون كما قال الله تعالى فى سورة فاطر ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ (طرق) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ (صخور) سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

وواضح أن المراد بالعلماء هنا هم العالمون بالآيات وأسرار الخلق التى أودعها الله سبحانه فيما أشارت إليه هذه الآية الكريمة .

وقال الله تعالى فى شرف العلم والعلماء فى الاستدلال على وحدانيته : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ سورة آل عمران .

فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم وناهيك بهذا شرفا وفضلا ونبلا .

وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة

درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الناس المؤمن العالم الذى إن احتيج إليه نفع ، وإن استغنى عنه أغنى نفسه » (رواه البيهقى فى شعب الايمان) . وقال أيضا : « الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمـــرته العلم » . (رواه الحاكم فى تاريخ نيسابور من حديث أبى الدرداء) .

وقال على رضى الله عنه : « العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم فى الاسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه » .

إذا تتبعنا القصص القرآنى لم نجـــد نبيا أرسل ولا ملـكا ولى الملك إلا وجعل الله تعالى العلم أكبر ميزاته وأعلى صفاته . وأن العلم هو أعلى مراتب الفضل . إذ لا يقوم الملك ولا تصلح الولاية عليه إلا بالعلم الذى يهدى على بينة طريق الرشاد ، ويبعد عن مسالك الفساد . فالعلم نور يبدد ظلمات الجهل ، ويوضح سنن الكون التى يجب ان تتبـــع ، فيسير الانسان منسجما مع الوجود لا خصام ولا خلاف ، وبهذا يسعد ولا يضل ولا يشقى قال تعالى ﴿ وَمَن اتَّبَعَ هُدايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى ﴾ وهذا الهدى هو العلم بما وضعه الله لنظام الكون وسننه التى يسير عليها سواء أكان ذلك فى النظام الطبيعى الأرض وما علاها ، أو النظام الاجتماعى الخاص بالانسان ومعاملته مع بنى جنسه ، والذى من أجله ابتعث الله الرسل ، ولأجله قام المصلحون والمفكرون ينادون بالاصلاح . قال تعالى فى ولاية طالوت :

﴿ أَلَمْ تَرَ إلى المَلَإِ من بنى إسرائيلَ مِنْ بَعدِ مُوسى إذْ قالوا لِنبيٍّ لهم ابْعَثْ لنَا مَلِكًا نُقاتِلْ فى سَبِيلِ الله .

قال هل عَسَيْتُمْ إن كُتِبَ عليكم القتالُ ألاّ تقاتلوا ؟

قالوا وما لنا ألاّ نقاتلَ فى سبيل الله وقد أُخْرِجْنا من ديارنا وأَبْنائنا .

فلمّا كُتِبَ عليهمُ القتالُ تَوَلَّوْا إلّا قليلا منهم والله عليم بالظالمين .

وقال لهم نبيُّهم إنَّ اللهَ قد بَعَثَ لكُمْ طالُوتَ مَلِكا .

قالوا أَنَّى يكونُ له المُلكُ علينا ونحنُ أَحَقُّ بالمُلك منه ولم يُؤْتَ سَعَةً منَ المال .

قال : إنَّ اللهَ اصطَفاهُ عليكمْ وزادَه بَسْطَةً فى العلم والجسم واللهُ يُؤْتى مُلكَهُ مَن يشاءُ واللهُ واسعٌ عليم ﴾ (سورة البقرة) .

من هذا الحوار يتبين لنا ما كان عليه الناس لا سيما بنو إسرائيل من حب المال ، والتهالك على جمعه وأن الله تعالى أبان لهم حقيقة الأمر ، وأن العلم هو أسمى ما يمتاز به الانسان ، وقد فهم المسلمون الأولون ذلك . وقد قال على بن أبى طالب لكميل : يا كميل، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق .

بالعلم يعرف الحق من الباطل ويميز الطيب من الخبيث . ويستبين النافع

من الضار . وبالعلم تعرف عوامل القوة والضعف وبه يقوم سلطان الملك وبه تكون الغلبة . قال تعالى فى قصة طالوت مع جالوت ﴿ ولمّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربّنا أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت . وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه ممّا يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنّ الله ذو فضل على العالمين ﴾ سورة البقرة .

إن قتل الطاغية جالوت كان على يد داود وقد آتاه الله الملك والحكم والعلم . وبهذا يتقرر كما تقدم أن بقاء الملك ودوامه لا يكون إلا بالعلم والحكمة . والقرآن الكريم يقرر ذلك فى جميع آياته وقصصه مما لا يعتريه شك ولا لبس . وقد ورد فى الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء والوزير عند الاخلاء ، والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة فى الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم . إلى أن قال : العلم حياة القلوب من العمى ونور الأبصار من الظلم وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام . به يطاع

الله عز وجل ، وبه يعبد ، وبه يوعد ، وبه يمجد ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء » رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب .

فأين المسلمون من العلم ! . هل بعد هذا يمكن أن يقال إن الدين شىء والعلم شىء آخر ؟! فقد كان لانتشار الدين والعلم الأثر البالغ أينما وجد وأينما حل .

قال العلامة استانلى بول فى أثر المسلمين وما أدخلوه من النظم الاسلامية فى بلاد الأندلس « إسبانيا » :

إن العرب وإن قدموا الأندلس فى جفوة طبائع القبائل وخشونتها رقت أخلاقهم للاختلاط بالأندلسيين وبميلهم الطبيعى إلى المرح والترف فوصلوا إلى القمة المدنية وأغرموا بالشعر والأدب وتجردوا لطلب العلم وأحبوا فوق ذلك أن يتمتعوا بكل لذائذ الحياة وكان ذوقهم العقلى والأدبى مرهفا دقيقا وكان لهم ذلك الاحساس الذى لا يشعر به إلا من نشأ نشأة سامية فى العلم والأدب وقد كانوا واسعى التصور خياليين شعريين مفكرين يمنحون من المال على مقطوعة شعرية رائعة ما يكفى للانفاق على فرقة من الجنود وكانوا ينظرون باحتقار إلى أقوى ملوكهم وأشدهم بطشا إذا لم يكن شاعراً ولم يوهب له ذوق فهم الفكاهة الشعرية والبلاغة العربية . ومنح هؤلاء القوم البارعون استعداداً طبيعيا فى الموسيقى والخطابة ودقائق العلوم والنقد وادراك التوريات البعيدة التى نعدها اليوم من ميزات الامة الفرنسية .

الى أن قال : —

« بقيت اسبانيا قرونا فى حكم العرب وهى مركز المدنية ومنبع العلوم والفنون ومثابة العلماء والطلاب ومصباح الهداية والنور ولم تصل أية مملكة فى أوروبا الى ما يقرب منها فى ثقافتها وحضارتها ولم يبلغ عصر فرديناند وايزابلا القصير المتلألىء ولا امبراطورية شارل الخامس الأوج الذى بلغه المسلمون فى الأندلس . وقد بقيت حضارة العرب الى حين بعد خروجهم من اسبانيا وضاءة لامعة . ولكن ضوءها كان يشبه ضوء القمر يستعير نوره من الشمس ثم عقب ذلك كسوف بقيت بعده اسبانيا تتعثر فى الظلام .

وانا لنحس فضل العرب وعظيم آثار مجدهم حينما نرى باسبانيا الأراضى المهجورة القاحلة التى كانت فى أيام المسلمين جنات تجرى من تحتها الأنهار تزدهر بما فيها من الكروم والزيتون وسنابل القمح الذهبية وحينما نذكر تلك البلاد التى كانت فى عصور العرب تموج بالعلم والعلماء وحينما نشعر بالركود العام بعد الرفعة والازدهار[1] .

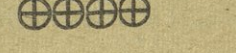

(١) كتاب العرب فى اسبانيا لمؤلفه استانلى بول وترجمة على الجارم بك ص ١٨٠ و ٢٢٢ و ٢٢٣

(٢)

أثر الاسلام ودعوته للعلم والعمل فى الحضارة الحديثة

لو أردنا أن نستقصى آثار الإسلام وما فعله المسلمون فى النهضة العلمية وما كان لهم من جهد مشكور فى تقدم الانسانية لطال بنا المقام ولكننا نقتصر على ترجمة ماكتبه الأستاذ الفرنسى السيد دينيه وزميله وقد أجملا أثر الاسلام فى نهضة أوروبا قال :

لما لحق مؤسس الدين الاسلامى العبقرى بالرفيق الأعلى كان قد فرغ من تنظيمه تنظيما دقيقاً محكما شمل أقل الأعمال فيه .

وكان جنود الله قد دوخت بلاد العرب كلها وأنشأت تغير على الشام وعلى مملكة القياصرة العظيمة وقد عرضت فترة اضطراب كان تجنبها غير مقدور عليه بعد وفاة ذلك المرشد الموحى إليه فسببت بعض الفتن ولكن الاسلام كان من قوة بنائه وشدة تحمس الناس له بحيث أنه كان لابد له أن يدهش العالم بنهضته الساحقة التى قد تكون معدومة النظير فى سجلات التاريخ .

اندفع العرب الأعزاء لأول مرة خارج بلادهم المحرومة من مواهب النعم تثيرهم معجزة الايمان فاستولوا فى أقل من مائة سنة على ما كان بهم من قلة مفرطة فى عددهم على معظم بلاد الدنيا القديمة المتمدنة من الهند إلى الأندلس .

ولما محا الاسلام من نفوسهم نخوة الاعتزاز بالقبيلة وبالنسب والجنس وجعل جميع المؤمنين إخوة ونفخ فيهم روح المساواة والدين وسمو الفكر صاروا ذوى نفوس تتقد حمية وقلوب لا تخضع للضيم أنفة جديرين بحمل أعباء جميع الغزوات والحروب ، ولم تكن ذخائر هذه القوة التى تراكمت فى نفوسهم خلال قرون قضوها فى الحروب الأهلية هى وحدها الوسائل التى

قلبوا بها كيان كثير من الشعوب المغايرة لهم مغايرة عظيمة والمتفوقة عليهم تفوقا كبيراً فى ذلك العصر بمعلوماتها العامة .

ونحن ننصح لمن قد يستريبون فى ذكاء العرب ونبوغهم أن يتصفحوا مجموعة من الرسوم المنقوشة التى تمثل الأبنية المنتشرة فى البلاد الخاضعة لسلطانهم فلا شىء يدهش فيها كاتحادها فى النمط الذى يميز هذه الآثار عن غيرها من جميع آثار الدنيا ، ومع تشابه هذه المبانى فيما بينها تراها قائمة فى الهند وتركستان وفارس والشام وبلاد الترك ومصر والبربر وإسبانيا وغيرها ، أعنى فى بلاد متغايرة تغايراً مطلقاً ومتمايزة تمايزا كثيراً فى مواهبها الخاصة حتى أن مواهب اليونان والرومان لم تستطع فى وقت ما أن تغير منها شيئا يعتد به .

اقتبس العرب أشياء كثيرة من الأمم المغلوبة لهم كما انتفعوا فى كثير من الاحيان بمواهبهم وبسواعدهم أيضاً فى تشييد قصورهم ومساجدهم .

ولكن هذه الأعمال كانت دائماً خواطر فى أحلام العرب وأخيلتهم برزت إلى الوجود ومحل الغرابة الشاذة فى النمط العربى هو أن المرشد المتحكم فيه هو فن ولد مع الاسلام فى وقت واحد ولم يسبق له نظائره ، وهذا الفن يهدى إلينا إن صح لنا التعبير بذلك صورة مجسمة فى تمجيد كلمات الله أعنى آيات القرآن فن الخط العربى هذا حتى لو اقتصر على طرقه وحدها يصح أن يقال فيه بلا مبالغة إن فيه روحا لأنه كلفظ الانسان يعبر عما فى النفس من الفكر وهو بعدم اقتباسه شيئا من العالم الخارجى حتى ولا من أشده عناية بتنميقه يمت إلى الموسيقى بسبب ، فكأنه رموز مقتضية لا تخفى حركات القلب

ثم تعود عما قليل سيرتها الاولى إلى مجراها المطلق وتبسط ما اشتبك منها ويتغير تناسقها على ما يشاء الهوى المحبوب .

وليس من الضرورى أن يكون المرء عالماً بالعربية منقطعاً لها متضلعاً فيها أو ماهراً دقيقاً فى الخط ليتتبع آثار الكلام الذى خط بهذه الحروف ويتمتع بمحض تميز أشكالها أو بالانفعال الشديد الذى يجده فى منحنياته فكل متفنن ستنفذ روحه فى أسرار نفس هذه الحروف بلا عناء .

وبعد أن عبر الخط العربى تعبيراً تاماً عن المثل الاعلى لامته أذل لسلطانه الذى يكاد يكون دينياً كل ما كان معداً لان يحمله ويكون إطاراً له . أعنى بذلك فن البناء وطرق الزخرف الاخرى بالجائها إلى مزاوجة نمط أشكاله - وقد دانت لهذا السلطان قبة بزنطية الثقيلة التى على صورة نصف كرة بأن اختير لها شكل خوذة للجندى المسلم : وقد تحولت منحنيات بواكيها المبتذلة إلى منحنيات العقد الستين الجميل ، أو إلى قوس شامخ متجاوز الحد فى علوه وتغيرت أبراجها العادية إلى مآذن شيقة تذهب صعداً إلى ذرى ما يأخذ بالعقل فيذهب باللب .

ثم طريقة الزخرفة الوحيـــدة التى هى كالخط لم تقتبس شيئاً من الفطرة وأعنى بها الزينة الهندسية التى لم يستمد منها اليونانيون واللاتينيون إلا آثاراً غاية فى الحقارة والسماجة .

لقد كانت أوربة حتى فى وقت أشد عدائها للاسلام مبهورة من كل هذه البدائع فقد اقتبست أشياء لا عد لها من آثار نبوغ العرب فى الزخرف والبناء وقد يدل الاستقصاء فى البحث على انها مدينة لهذا النبوغ بأكثر مما تدين به للنابغين من قدماء اليونانيين واللاتينيين .

ومثل هذا البحث قد يبعد بنا كثيرا عن موضوع الكتاب، وحسبنا أن نذكر هنا على سبيل الاستغراب أننا اذا أخذنا بقول المؤرخ (دولور) يكون بعض مهندسى البناء من العرب قد استخدموا فى بناء كنيسة نتردام دوبارى .

نلخص لك الرأى الذى أبداه الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه المشهور : حضارة العرب ، إذ قال : « علينا أولا أن نعترف بأن العرب هم الذين يرجع إليهم الفضل كله فى الاستعاضة عن ولاية الاستاذ بالتجربة والملاحظة اللتين هما أساس الطرق العلمية الحديثة ، لا الى « باكون » الذى ينسب إليه ذلك فى الجملة » .

ان أعلى درجة فى العلم تنحصر فى استدعاء المرء نفسه وباختباره للظواهر الكونية وحثها على الظهور قال : إن العرب قد بلغوا هذه الدرجة التى تكاد تكون مجهولة للقدماء .

ويمكن تلخيص ما استكشفوه فى هذا العلم فيما يلى : —

إدخال خطوط التماس فى الحسابات الفلكية ووضع جداول لحركة الكواكب وتحديد سمت الشمس تحديداً دقيقاً وتدرجه فى النقص وتقدير تقدم الاعتدالين تقديرا مضبوطا وأول تحديد مضبوط لمدة السنة .

ثم إننا مدينون لهم أيضا باثبات ما فى أكبر خط عرض للقمر من ضروب عدم الانتظار واستكشاف عدم التساوى القمرى الثالث المعبر عنه اليوم بالتغير .

وقد أدلى هؤلاء الجوالون الجريئون فى علم تقويم البلدان بالقدح المعلى .

وكانت لهم من الوجهة العلمية هذه التحديدات الفلكية المضبوطة التى هى أول أساس للخرائط ، وقد صححوا الأغلاط الجسيمة التى ارتكبها اليونانيون فى أوضاع البلدان . ومن جهة جوب الأقطار قد نشروا أخبار رحلات لهم عرفت الناس أجزاء مختلفة للعالم قل من توهموا وجودها قبلهم ، ولم يسبق للاوربيين أن طرقوها . فقد بينت على خريطة رسمها الأدريسى يرجع تاريخها الى سنة ألف ومائة وستين بياناً كاملا منابع نهر النيـــل مخترقة البحيرات الاستوائية الكبرى التى لم يكتشفها الأوربيون إلا فى النصف الثانى للقرن التاسع عشر .

وفى العلوم الطبيعية يزيد عدد اكتشافاتهم عن ذلك أيضا ، يدلك على علو شأنها تعدادها فيما يلى : فمنها معلومات عالية فى نظريات علم الطبيعة خصوصا فى نظرية البصر ومنها اختراع أجهزة آلية من أبدع ما يكون واكتشاف أعلق الأجسام بأصـــل علم الكيمياء ، مثل الكحول والحامض الآزوتى والحامض الكبريتى ، وأهم الأعمال الأساسية فى هذا العلم مثل التقطير وتطبيق علم الكيمياء على فن الصيدله وعلى الصناعة خصوصا صناعة استخراج المعادن وصنع الفولاذ والصباغة وغيرها وصنع الورق من الخرق والاستعاضة به عن رق الغزال والبردى وورق الحرير الصينى ، ومن المحتمل أنهم طبقوا بيت الابرة (البصلة) على الملاحة ، ومن المحقق أنهم أدخلوا هـذا الاختراع الأساسى فى أوربة .

وفى سنة ١٣٤٢ كان الكونتان الانجليزيان دربى وسالسبرى يشهدان حصار الجزيرة والعرب يدافعون عنها بالمدافع ، ولما عاينا استعمال البارود

نقلا هذا الاكتشاف الى بلادهما ولهذا السبب استعمله الانجليز بعد ذلك بأربع سنين فى حصار مدينة « كريسى » .

وفى العلوم الطبية استمد العرب أولا معلوماتهم من كتب اليونان ثم حصلوا فيها زيادات أعلى ما يكون شأنا ، فمعظم علوم أوربة الطبية فى عصر تجددها أخذت عنهم ، وأشهر الزيادات التى أضافوها الى العلوم الطبية هى فى التشريح ووصف الأمراض والمادة الطبية والصيدلة ، وقد اخترعوا عدة طرق علاجيـــة بعضها — كاستعمال الماء البارد فى الحمى التيفودية — قد استؤنف استعماله فى العهد الأخير بعد أن نسى قروناً طويلة .

والمادة الطبية مدينة لهم بكثير من الأدوية ، مثل خيارشنبر والسنا المكى والراوند والتمر الهندى والكافور والكحول والقلى وغيرها .

كانوا يعرفون علاج الماء الذى ينصب فى العين « الكتاركتا » بالتحويل أو استخراج البلورية ، وتفتيت الحصاة وعلاج النزيف بصب الماء البارد واستعمال الكاويات والأخزمة والكى بالنار ، إن التخدير الذى يرى الناس الآن أن اكتشافه الأساسى حديث العهد يظهر أنه لم يكن مجهولا لديهم فانهم كانوا يوصون باستعمال الزوان لتنويم المريض قبل البدء فى الأعمال المؤلمة حتى يفقد إدراكه وإحساسه .

وكانت لهم أيضا ثقة عظمى بعلم تدبير الصحة من جهة علاج الأمراض فكانوا يعتمدون كثيرا على الوسائل الفطرية والطب الانتظارى الذى يظهر أنه هو كلمة العلم الحديث الاخيرة لا يجرى فى استدلاله على ما يخالف ذلك (انتهى من كتاب الدكتور جوستاف لوبون — حضارة العرب) .

وفى مجال المعانى والافكار كان لنفوذ المسلمين نتائج ربما كانت أنفس من ذلك أيضا . فاذا كان المسيح قد أوصى قومه بالمساواة والاخاء فقد سعد محمد بتحصيلها وتحقيقها للمؤمنين به فى حياته .

وقد يكون من السخافة أن يزعم زاعم أن الثورة الفرنسية قد استطاعت أن تقتدى بقدوته مباشرة فى عملها لانها كانت تجهل معظم عمله فى تأسيس قاعدة المساواة — على أن المحاولات الاولى لتحرير الفكر هذا الذى كان لا بد أن ينظم المجتمع الحديث على أسس جديدة يمكننا أن نثبت أنه كان النتيجة المنطقية لشريعته ، فان شرف ادخال حرية الفكر (التى لاينبغى خلطها بالالحاد) لأول مرة فى أوربة يرجع الى الحكيم المسلم ابن رشد الذى كان يعيش فى اسبانيا من سنة ١١٢٠ الى سنة ١١٩٨

عارض ابن رشد بعقيدة الايمان بالله وحده فى الاسلام مذهب وحدة الوجود الخرافى عند اليونان ومذهب التجسيم عند المسيحيين .

وقد هاج شراح كتابه الذى ألفه فى أرسطو رغماً من اصطباغهم شديداً بالصبغة الاسلامية كل العقول المستقلة فى القرون الوسطى بأوربة ، ومذهب ابن رشد الذى نشأ من هذا التحمس يصح اعتباره بحق ليس بشيراً للاصلاح فحسب بل أبا للحكمة العقلية الحديثة .

ثم إن تأثير أخلاق المسلمين فى الاخلاق الاوربية لم يكن أقل من ذلك نفعا فان العرب مع ما كان فيهم من التسامح الدينى المتناهى كانت لهم أخلاق كلها شهامة ومروءة .

وقد صرح الكاتب الاسبانيولى الشهير بلاسكوايبانيز فى قصته المعنونة « فى ظل الكنيسة الكبرى » بأن روح الشهامة إنما ولد بين العرب الاسبانيين وإن كان غزاة الشمال من المسيحيين قد ادعوه لانفسهم زاعمين أنه صفة من صفات الامم المسيحية .

ولنذكر أيضا فى هذا الموضوع ملاحظات الدكتور لوبون إذ يقول : « إن للشهامة العربية قانونها كالشهامة المسيحية التى جاءت بعدها ، فانه لم يكن جديراً بوصف الشهامة إلا من كان حائزا للخصال العشر التالية وهى : سلامة القلب والبسالة وخفة الروح وملكة الشعر والبلاغة والقوة وحذق ركوب الخيل وإدارة الرمح والسيف والقوس » .

وقد حقق العالم الشديد الاستمساك بدينه برتلمى سان هيلير تحقيقاً التزم فيه الأمانة — ماتدين به الى العرب الأخلاق الاوربية إذ قال فى كتابه الذى ألفه فى القرآن مانصه « وإن أشراف القرون الوسطى العتاة قد لانت عوائدهم الجافية بمخالطتهم العرب ومتابعتهم لهم ، وأهل النخوه منهم عرفوا بهذه المخالطة عواطف أرق من عواطفهم وأشرف وأليق بالانسانية بدون أن يضيع عليهم شىء من شجاعتهم .

انه من الذل والمهانة أن يعترف للمسلمين باخراج أوربة المسيحية من ظلمات البربرية والتوحش » . من كتاب الدكتور جوستاف لوبون — حضارة العرب — .

ماهى الأسباب التى دعت الى تدهور الاسلام تدهوراً غاية فى السرعة وهو فى ثمانية قرون تسلط فيها على اسبانية قد رفع هذه البلاد الى ذروة الحضارة الغربية ولم يكن سناه أقل سطوعاً فى البلاد الممتدة من دهلى وبخارى الى القسطنطينية والى فارس .

أول سبب ينبغى تلمسه لذلك هو عدم اتباع قواعد المساواة التى جاهد النبى كثيراً فى سنها فى حياته والتى كانت هى السبب فى نجاحه ونجاح الخلفاء الأولين من بعده ، ولنضرب لك مثلا نبين فيه مبلغ التشدد فى تطبيق هذه القواعد أول الأمر : كان (جبلة بن الايهم) ملكا من ملوك العرب ذوى السلطان والأنفة يطوف بالكعبة فى أول عهده بالاسلام ، فاصطدم به بدوى حقير بلا قصد منه فلطمه « جبلة » على وجهه لطمة شديدة ، فلما رفع الأمر إلى الخليفة عمر بن الخطاب لم يأبه بمكانة المذنب ولا أنه يجر إلى نفسه عداوته بالاقتصاص منه وهو فى مثل هذه المكانة ، بل رأى أنه لرفعة الاسلام ومستقبله ينبغى أن تسقط المساواة أمام العدالة كل اعتبار ، فحكم على الملك جبلة بأن يحتمل قصاصاً مماثلا لجريمته من يدى البدوى الحقير الذى ضربه .

بمثل هذه القواعد التى لا هوادة فيها ما كان يستطيع أحد أن يستفيد إلا من أعماله الخاصة ، وقد ولد التنافس فى خير الاسلام أموراً مدهشه ولم يختر للرآسة فيه إلا من كانوا يستحقونها . وكان الرؤساء يطاعون أبلغ الطاعة لأنهم محل الاعجاب والتوقير الخالصين من الرعايا(١)

---

(١) كتاب السيرة النبوية الفصل العاشر للسيدين ا . دينه ، وسليمان بن ابراهيم الجزائرى تعريب عبد العزيز باشا محمد . مجلة الأزهر المجلد الأول .

(٣)

ما يجب عمله نحو العلم والانتفاع به

ذكر الأستاذ كاربنسكى : ان الخدمات التى أداها العرب للعلوم لم تكن مقدرة حق قدرها من المؤرخين ، وأن الأبحاث الحديثة قد دلت على عظم دينا لعلماء المسلمين الذين نشروا نور العلم بينما كانت أوربا فى ظلمات القرون الوسطى . وأن العرب لم يقتصروا على نقل علوم الإغريق والهند . بل زادوا عليها وقاموا باضافات هامة فى ميادين مختلفة .

وقد لخص الاستاذ الدكتور مشرفه بك ما يجب عمله نحو العلم والاستفادة منه قال[1] :

إن الغرض من العلم واضح وهو المعرفة وان العلم يطلب الحقيقة لذاتها ولكن الحياة العلمية فى كل أمة تصل إلى أبعد من هذا . فقديما قيل علم بلا عمل كشجرة بلا ثمر . والتبحر فى العلم والابتكار فيه كما قد قدمت إنما يتاح للأقلية الضئيلة : أما الأغلبية الساحقة فتطلب العلم كوسيلة لا كغاية وليس فى هذا خفض من شأن العلم ولا مساس بمقامه فالعلم منشأ لذة فكرية فى ذاته وهو أيضا قوة لحل المشكلات البشرية فلذته وقيمته مضاعفتان . والحياة العلمية بيننا يجب أن تشمل هذه الناحية التطبيقية للعلوم وكما أنه من الخطأ أن

---

(١) مطالعات علمية ص ٦٦ للاستاذ الدكتور على مصطفى مشرفه بك عميد كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول .

يقتصر على الناحية الاكاديمية بل إنى لا أعدو الحقيقة اذا قلت ان مستقبل مصر فى الجيل القادم وما بعده سيبنى على مقدار نجاحنا فى إنشاء الروابط المتينة الحية بين العلوم البحتة والعلوم التطبيقية أو بين العلم والعمل ولهذا يجب إنشاء هيئة أو أكثر من هيئة لايجاد هذه الروابط وتنميتها . فمن ناحية نجد الصناعات فى مصر فى حاجة قصوى إلى الفنيين لحل مشكلاتها الخاصة ومن ناحية أخرى نجد الشباب فى مرحلة التعليم العالى يطالب المجتمع بعمل مفيد يؤديه . وقد كنا إلى عهد قريب نستقدم خبراء أجانب كلما أردنا حل مشكلة من مشاكلنا الصناعية . فدبغ الجلود فى حاجة إلى خبير أجنبى وصناعة الزجاج فى حاجة إلى خبير أجنبى والصناعات الأخرى كلها كذلك . وهذا الخبير الأجنبى كيف نشأ وكيف أعد ؟ سنجد أنه فى جميع الأحوال قد تعلم تعليما عاليا ثم طبق علمه على ناحية من نواحى الصناعة . ونحن نواقون إلى إنشاء صناعات متعددة بين ظهرانينا وفى كل صناعة من هذه الصناعات مشكلة أو عدة مشاكل تتطلب كلها الحل ، والشباب يتعلم العلم فالمنطق يقضى بالجمع بين هذين الطرفين . وقد صدر مرسوم منذ أمد قريب بانشاء معهد لهذا الغرض يطلق عليه اسم المغفور له الملك فؤاد . منذ صدور هذا المرسوم لم يحدث شىء يجدى إلى حد علمى لتحقيق الغرض المنشود منه . والمسألة فى ذاتها ليست معضلة من المعضلات فهى لا تعدو الجمع بين العلم والصناعة . وفى كل أمة متحضرة نجد إلى جانب البحث العلمى البحت بحثا من نوع آخر يسمى البحث العلمى الصناعى أو التطبيقى فكل مصنع من المصانع الكبرى به قسم خاص لبحث مشكلات الصناعة التى يزاولها وبه معامل وعلماء متخصصون يتفرغون لحل

المسائل التى تنشأ فى هذه الصناعة . فكما أن تقدم العلم أساسه البحث أيضا ومن الخطأ كل الخطأ أن يظن أن فى استطاعتنا الاعتماد على غيرنا فى حل مسائلنا الفنيه الصناعية . صحيح إننا نستطيع أن ننقل عن غيرنا الكثير من أصول الفن والصناعة ولكن المسائل الصناعية التى تنشأ لنا والتى تتطلب الحل لامفر من الاعتماد فيها على عملنا نحن فالظروف تتغير من بلد إلى آخر ونتائج البحث الصناعى ليست كنتائج البحث العلمى ميسورة للجميع بل انها تحاط بسياج من التكتم فاذا نجحت وصار لها قيمة اقتصادية أحيطت بسياج من الحقوق القانونية . وكثير من مشاكلنا الصناعية خاص بنا كاستخراج الثروة المعدنية الذى يرتبط بجيولوجية أرضنا وكصناعاتنا الزراعية التى ترتبط بأنواع محاصيلنا وبظروفنا الاقتصادية .

وفى رأيى أنه يمكن البدء فى تحقيق هذا الغرض بدءاً متواضعا بتخصيص مبلغ غير كبير من المال للبحث الصناعى ، فالشباب بعد ان يتم تعليمه العالى الأكاديمى يوجه نحو البحث الصناعى فى معمل خاص أوفى معاملنا الحالية يرشده فى ذلك أساتذة متخصصون وإذا نجحت هذه التجربة واقتنع أرباب الصناعات فى مصر بفائدة هذه البحوث أمكن تخصيص مبالغ أكبر لهذا الغرض . وفى أوروبا يخصص أرباب الصناعات مبالغ طائلة للبحوث الصناعية لاقتناعهم بفائدتها ، بل إن بعضهم ليخصص أمواله للبحوث العلمية البحتة لاقتناعهم بأن تقدم العلوم البحتة هو أساس التقدم الصناعى فمثلا نجد « السير الفرديارو » وهو قطب من أقطاب الصناعات فى انجلترا يمنح المجمع البريطانى فى لندن مبلغ مائة ألف جنيه ليصرف ريعه فى البحث العلمى البحت وتقدر

الأموال التى يخصصها أرباب الصناعات فى انجلترا وأمريكا للبحث العلمى بمئات الملايين من الجنيهات .

ولا بد من الاشارة إلى ناحية أخرى من نواحى حياتنا العلمية يجب علينا أن نتعهدها بالعناية فى السنين القادمة هى ناحية التأليف العلمى وأقصد بالتأليف العلمى تدوين العلوم باللغة العربية بحيث تصبح لغتنا غنية بمؤلفاتها فى مختلف العلوم .

ولاشك فى أننا فى أشد الحاجة إلى كتب عربية فى كل فرع من فروع العلم فى حين نجد كل لغة من اللغات الحية غنية بكتبها ومؤلفاتها العلمية تنفرد اللغة العربية بفقرها المدقع فى المؤلفات العلمية ولا أظننى أعدو الحقيقة إذا قلت إنه لايكاد يوجد كتاب واحد فى أى فرع من فروع العلم يمكن اعتباره مرجعا أو حجة ، والكتب التى تظهر يكون مستواها عادة منخفضا لا يزيد على مستوى التعليم الثانوى أو المرحلة الأولى من التعليم العالى فاذا لم تنقل العلوم إلى لغتنا ولم ندونها بقينا عالة على غيرنا من الأمم وبقيت دائرة العلم فى مصر محصورة فى النفر القليل الذين يستطيعون قراءة الكتب الأجنبية العلمية وفهمها . وحالنا اليوم تشبه ما كانت عليه حال العرب فى القرنين الثامن والتاسع أو ما كان عليه حال أوروبا فى القرون الوسطى فالعرب تنبهوا إلى ضرورة نقل علوم الإغريق إلى اللغة العربية فقام الخلفاء والأمراء بتشجيع العلماء على الانقطاع الى النقل والتأليف . ولعل القارىء يذكر المكتبة الكبرى فى أيام الخليفة المأمون التى كانت تعرف بخزانة الحكمة وان كثيرا من علماء ذلك العصر كانوا منقطعين اليها يشجعهم على ذلك ماتحلى به المأمون

من الرغبة فى العلم وتقريب أهله وادنائهم وبسط كنفه لهم ومعونته إياهم وقد كان من نتيجة هذا كله أن صارت اللغة العربية لغة العلم والتأليف وبقيت محتفظة بسيادتها العلمية على لغات الأرض جميعا عدة قرون ، ونحن إذا شئنا أن نعيد الى لغتنا مجدها العلمى فعلينا أن نعنى بتشجيع التأليف والتدوين والنقل ، وعلى الدولة ألا تضن بالمال الواجب انفاقه فى هذا السبيل ومن الممكن البدء فى هذا العمل فورا بميزانية سنوية لا تتجاوز بضعة ألوف من الجنيهات وهو لعمرى مبلغ صغير إذا قيس بالنتائج الهامة التى تنجم عن صرفه . والطريقة المثلى لذلك هى أن تعهد الدولة للقادرين من العلماء فى كل فرع من فروع العلم بنقل الكتب العلمية وتأليفها وأن تقوم الدولة بطبع هذه الكتب ونشرها ولا يجوز أن يترك الأمر للجهود الفردى بل لا بد من تضافر العلماء وتعاونهم فى هذا السبيل ، فكل كتاب ينقل أو يؤلف يجب أن تقوم عليه لجنة تجمع خبرة من تخصصوا فى موضوع الكتاب ولا يخفى ما فى هذا العمل من مشقة وما له من ارتباط بتطور اللغة العربية العلمية ومصطلحاتها ، والتأليف العلمى هو الوسيلة الطبيعية لايجاد هذه المصطلحات فى لغتنا فكل لغة حية انما تنمو عن طريق التأليف والكتابة ، واللغة العلمية وليدة التفكير العلمى ، والمصطلحات العلمية فى اللغات الأوروبية انما نشأت بهذه الطريقة ونتجت عن نمو العلم والتأليف . ومن العبث أن يقوم مجمع بفرض المصطلحات على المؤلفين فرضا ، وانما تأتى مهمة المجامع بعد مهمة المؤلفين لا قبلها فالمجمع اللغوى يجمع ماورد فى الكتب العلمية من مصطلحات ويدونها ويفسرها على أنه لما كان الأمر مرتبطاً كما قدمت بتطور لغتنا ونموها

فان من الواجب أن يكون فى كل لجنة من اللجان التى يعهد إليها بالتأليف عضو متضلع فى اللغة العربية وأساليبها حتى تخرج اللغة العربية سليمة وحتى ترتبط لغة التأليف العلمى بلغة الأدب ارتباطا طبيعيا مثمرا ، ولكى يستدل القارىء على مبلغ ما وصلت اليه اللغة العلمية فى العصر العربى من جمال فى الاسلوب وسلاسة فى العبارة أشير عليه بالرجوع الى العبارات التى اقتطفتها فى مقال سابق من مقدمة محمد بن موسى الخوارزمى لكتابه فى الجبر والمقابلة فانه سيجدها قد جمعت بين منطق العلم وروعة الادب .

هذا أرى أن يختار المؤلفون على قدر الامكان ممن يحسنون صناعة اللغة فاذا تعذر ذلك اشترك معهم من يعاونهم فى ذلك .

وموضوع التأليف العلمى وارتباطه بحياتنا الفكرية إنما هو جزء من موضوع أوسع وأعم ألا وهو العلاقة بين حياتنا العلمية الماضية والمستقبلة وهو موضوع الأسس التى يجب أن نبنى عليها صرح مجهودنا العلمى فالحياة العلمية فى كل أمة عنصر هام من عناصر ثقافتها العامة وكما أن الأمة المتحضرة تكون لها ثقافة أدبية ترتبط بتاريخها وتتجسم فى لغتها ويكون عنوانا عليها ذلك التراث الخالد من شعر شعرائها ونثر كتابها وكما أن الأمة المتحضرة أيضاً تكون لها ثقافة فنية تتمثل فيما أبدعته أيدى فنانيها فى مختلف عصور تطورها من تلك الرموز الملموسة على المشاعر الخفية تلك الرسالات الملهمة التى تنبعث عن قلب الفرد فتصل الى قلب الأمة وربما تعدته الى قلب الانسانية ذاتها أقول كما أن الأمة المتحضرة تكون لها هذه الثقافة الأدبية وتلك الثقافة الفنية وغيرها من ثقافة خلقية ودينية وسياسية وما إليها كذلك تكون للأمة

المتحضرة ثقافة علمية ترتبط بتاريخ التفكير العلمى فيها وتحتوى ما احتكرته عقول أبنائها من الآراء والنظريات العلمية وما وصلت اليه من الكشوف فى سائر ميادين البحث العلمى وما نقلته وهذبته واستساغته من آراء غيرها مما دخل فى صلب المعرفة البشرية على مر العصور والأجيال وحياتنا العلمية فى حاجة الى أن تتصل بماضينا فتكسب بذلك قوة وحياة وإلهاما. ونحن فى مصر اليوم ننقل المعرفة عن غيرنا، ثم نتركها عائمة لا تمت بصلة الى ماضينا ولا تتصل بتربيتنا فهى بضاعة أجنبية عليها مسحة الغرابة: غرابة فى اللفظ وغرابة فى المعنى إذا ذكرت النظريات قرنت بأسماء أعجمية لا يكاد المرء منا يتبين معالمها وإذا عبر عن المعانى فبألفاظ مخيفة يفر منها الفكر وترتبك أمامها المتخيلة.

ومن الواجب أن نعمل على تغيير هذا الحال. فأولا يجب أن ننشر الكتب العلمية التى وضعها العرب ونقل عنها الافرنج ككتب الخوارزمى وأبى كامل فى الجبر والحساب وكتب ابن الهيثم فى الطبيعة وكتب البوزجانى والبيرونى والبتانى وغيرهم كثيرون من قادة التفكير العلمى وعظماء الباحثين المدققين. هذه الكتب موجودة الآن ولكن أين؟ إنها محفوظة فى مكتبات ومتاحف فى مشارق الأرض ومغاربها يعرف عنها الافرنج أكثر مما نعرف ويقومون بترجمتها وشرحها والتعليق عليها وينشرون هذا كله بلغات أجنبية فى مجلاتهم العلمية وما أجدرنا بأن نكون نحن القائمين على ذلك. وثانيا يجب علينا أن نعنى بتمجيد السلف من علمائنا وباحثينا فيكون لنا فى ذلك حافز للاقتداء بهم وتتبع خطاهم وقد بذلت بعض الجهود فى هذا السبيل فى السنين

الأخيرة فأقيم حفل لتخليد ذكرى ابن الهيثم ونشر كتاب الخوارزمى فى الجبر والمقابلة وعلينا فى السنين الآتية أن نزيد فى هذا الحركه وأن ننظمها فالتأليف العلمى وإحياء كتب العرب وتمجيد علمائهم أمـــور ثلاثة يجب أن تدرج فى جدول أعمال حياتنا الفكرية فى المستقبل القريب .(١)

بجانب ما تقدم مما ذكره عالمنا الفاضل الأستاذ الدكتور مشرفة بك يجب أن يعنى أيضا بالناحية الخلقية والتربية النفسية بحيث تسـير جنبا إلى جنب مع التقدم العلمى . لأن العلم إذا لم يكن له حارس وقوام من الخلق قد يضر كثيرا بجانب نفعه . والدليـــل قائم من الحروب الحالية والمشاكل الكثيرة المتعددة . ونقصد بتقويم الأخلاق وتهذيبها أن يعلم الدين فى جميع مراحل التعليم ابتدائى وثانوى وعالى ، كما يجب أن يتدارس فى جميع الهيئات والأندية عن طريق المحاضرات ـ والسينما ـ والراديو .

وعندى أن تربية الأفراد وإعدادهم للحياة هى الخطوة الأولى ، بل هى الأساس الذى تبنى عليـــه المدنية الفاضلة التى تنشد فيها الإنسانية الراحة والطمأنينة .

والغرض من التربية والدراسة وطرق التدريس كما يقول هربرت سبنسر الفيلسوف الانجليزى : هـو إعداد الفرد لأن يعيش ويحيا حياة كاملة بحيث يكون قوى الجسم ، كامل الخلق ، مرتب الفكر ، يعرف كيف يتعاون مع غيره ، ويقدر الطبيعة وما فيها من جمال ، وكيف يدير شئونه بنفسه ، وكيف

---

(١) مطالعات علمية : تأليف الأستاذ الدكتور على مصطفى مشرفه بك عميد كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول بمصر الطبعة الأولى سنة ١٩٤٣ .

يقوم بواجبه نحو أمته ووطنه ، وكيف ينتفع بما وهب له من مواهب وكيف يستخدم كل قواه بما ينفع نفسه وغيره . وبعبارة موجزة يعرف كيف يحيا حياة كاملة(١) .

لو دققنا النظر فى المشاكل الحالية الموجودة فى المنازل أو خارجها سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية فكثيرا ما ترجع أسبابها إلى ضعف الخلق وسوء التربية وعدم تجانس الأفكار ولذا وجب على القائمين بالأمر والداعين لخير الانسانية أن يوجهوا عنايتهم إلى الناحية الخلقية والتربية النفسية لأنها أساس كل إصلاح وتقدم ورقى . والدين الاسلامى فيه الكفاية والهداية لسعادة الدنيا والآخرة وقد أجاد القائل « علم ابنك الحكمة تعلمه أدب الدنيا ـ علمه ما هو حسن وحكيم تعلمه أدب الدنيا والدين » .

وقال فنلون « يجب أن تعود نفسك على محاولة الاختلاء بالله قلبا لقلب ربع ساعة كل صباح وكل مساء » وقال بستالوتزى « لقن ابنك العلم تجعل حياته مفيدة ـ علمه الدين تجعل حياته متينة سعيدة » .

(١) روح التربية والتعليم تأليف الأستاذ محمد عطيه الأبراشى ص ٣١

خاتمة

القرآن وقضية العالم أجمع

حل مشكلات الانسانية — دعوة إلى الاخوة العالمية والسلام العام

أمام هذه الحروب العالمية والاضطرابات الداخلية فى كثير من الممالك والأمم ، والقلق النفسى ، وتفكك العائلات ، وانحلال الأخلاق ، وتدهور النشء نتساءل : ألا من نصير ؟ ! ألا من معين ؟ ! ألا من هاد ؟ ! ألا من منقذ ؟ ! فقد عم الهلاك ، وحل الدمار ، وطغى الفساد ، وكادت الإنسانية تصير إلى فنائها وتلقى حتفها وتؤذن بزوالها ! !.

لقد تعلم الانسان وبرع . ولكن افسدته شهواته ! !.

لقد اخترع الانسان وبز من قبله ، ولكن دمرته آلاته ومخترعاته ! !.

لقد طار الانسان فى الهواء وملك ناصيته ولكنه صار إلى الهلاك ! !.

لقد غاص الانسان تحت الماء ، ولكنه أفسد الماء والأرض والهواء ! !.

لقد ازينت الأرض وأخذت زخرفها وظن أهلها أنهم قادرون عليها ،

ولكنهم فسقوا فيها فحق عليهم قول ربهم ﴿ وإذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قريةً أَمَرْنا مُتْرَفيها فَفَسقوا فيها فَحَقَّ عليها القولُ فدمَّرْناها تَدْميرا ﴾ (١) .

أوروبا التى كان مترفوها فى رغد من العيش ، وكان رزقها يأتيها رغدا من كل مكان أصبحت الآن تعانى الفقر والجوع والمرض والخوف . وقد صدق قول الله فيها : ﴿ وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قريةً كانتْ آمنةً مُطْمئنَّةً يأْتيها رِزقُها رَغَداً من كلِّ مَكان . فكفَرتْ بأنْعُمِ اللهِ فأذاقَها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخوفِ بما كانوا يَصْنَعون ﴾ .

وقضية المدنية الغربية قضية العالم أجمع يتساوى فيها المتحاربون وغير المتحاربين ، والمحايدون وغير المحايدين ، فشرها للجميع ، ونتائجها عامة لكل الأمم كبيرها وصغيرها ، قويها وضعيفها .

هذه المدنية الأوروبية التى بهرت الألباب وأخذت بالأبصار وبلغت من العلوم والفنون والمعارف شأوا بعيدا . كان فيها دعامتان هدامتان لكيانها :

١) عامل الاثرة والأنانية .

٢) عامل سيطرة الشهوات على العقول .

هذان العاملان أفسدا فيها نظام المجتمع وسخرا العلم وما والاه فى غير طريقه فضلّ وكانت الكارثة ، وقد كان ذلك متوقعا من زمن .

---

(١) سورة الإسراء .

كتبت في مجلة الشبان المسلمين في عدد يونية سنة ١٩٣٦ المجلد السابع الجزء التاسع مقالا تحت عنوان « الدنيا » جاء فيه ما يأتي :

لقد بلغت المدنية درجة عالية في التمدن وخطت العقول البشرية في ميدان الاختراع الجهنمي شوطا بعيدا حتى أنه أصبح من اليسير تدمير العالم في يوم أو بعض يوم . إلا أن البشرية في القرن العشرين لم تخط غير يسير في الميدان الخلقي الصحيح الذي يرفعها عن مستوى الحيوان ، والقرن العشرون جميع ما فيه من تقدم علمي وصناعي إنما هو مسخر لخدمة الشهوات ، ولذلك يصح أن نسمي هذا القرن قرن الشهوات في أخدع مظاهرها وأحط مستواها ، ولذلك أصبح التبرم والسخط سجية كل النفوس . وان الاحتكاك بينهم لا بد أن يكون سواء أكانوا أمما أم أفراداً . ولذلك سيأتي يوم قريب ينهار فيه صرح هذه المدنية . وهكذا الدنيا مطية ، من ركبها حملته ومن ركبته قتلته .

وكتبت أيضا في مجلة الشبان المسلمين عدد مارس سنة ١٩٣٧ المجلد الثامن في الجزء السادس من مقال تحت عنوان « انتحار المدنية الغربية . . . العوامل المتضافرة للاجهاز على المدنية الغربية » ما يأتي :

أوروبا اليوم على فوهة بركان يغلي باطنه بحمم قد تكون جهنم الصغرى وتتدك بها المدنية الحالية دكا قد يكون فيه فناؤها .

أوروبا اليوم تخوض غمار أزمة عنيفة تتناسب مع مطامعها الأشعبية ، ونهمها البالغ ، وصلفها المتعجرف ، وهي كل يوم تقترف من الآثام ما يزيد في كربتها ويشد وثاقها ، ويدنيها من نهايتها . تدفع لأدوات الحرب الملايين من الجنيهات بينما يوجد من أبنائها الآلاف من العاطلين ، ومئات الآلاف من البائسين والجائعين الخ .

وقد وقع ماتنبأنا به ، وقعت الكارثة ، وأصبحت البشرية تعانى الألم الشديد والأزمات العنيفة ! .

وقعت الحرب التى لا تبقى ولا تذر ، أهلكت الحرث والنسل ، وعم شرها جميع الآفاق ، وضاقت فيها الأرزاق . فهل من بشير أو نذير يهتف للعالم أجمع أن البشرية جمعاء أبوها واحد وأمها واحدة وربها واحد ، يحاسب على الصغيرة والكبيرة ، وان أكرم الناس عنده أبرهم باخوانه وأنفعهم لبنى جنسه ، وعلى زيادة نفعه يكون مقامه ! ! .

هل من داع الى الله رب العالم ، وخالق الأكوان ينادى فى عالمنا الصغير أن الإنسان أخ للانسان على اختلاف لونه ودينه ولغته وبيئته ، وآن أن يعيش معه فى سلام على أن يكون الضعيف فى ذمة القوى والجاهل فى ذمة العالم ، والفقير فى ذمة الغنى سواء أكانوا أفرادا أو شعوبا ! ! .

هل الله جلت قدرته وتعالت عظمته ووسع علمه كل شىء ترك الناس كالسوائم من غير هاد يهديهم إلى الرشاد ، ويسلك بهم طريق السداد ! ! .

إن الله العليم بكل شىء قد أنزل كتابه على رسوله الكريم فقال :

﴿ وما أَنْزَلْنا عليكَ الكتابَ إلّا لتُبَيِّنَ لهمُ الّذى اخْتَلفوا فيه وهُدًى ورَحْمَةً لقَوْمٍ يُؤْمنون ﴾ . سورة النحل .

١) هذا الكتاب الكريم وهو القرآن الحكيم يدعو بالاخوة العالمية وأن الفضل لأكثر الناس طاعة ومحبة ورحمة .

قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الناسُ إنّا خلقْناكم مِنْ ذَكَرٍ وأُنثى وجَعلْناكم شُعوبا وقَبائلَ لتعارَفوا . إنَّ أكْرمكمْ عندَ اللهِ أتْقاكم إنَّ اللهَ عليمٌ خبير ﴾ سورة الحجرات .

ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم « خير الناس أنفعهم للناس » .

٢) هذا الكتاب يأمر بالعدل والإحسان لكافة الناس قال تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يأْمُرُ بالعَدْلِ والاحسانِ وإيتاءِ ذى القُرْبَى ، ويَنْهَى عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكرِ والبغى ﴾ وهذا العدل شامل للجميع لا فرق بين مسلم وغير مسلم وأبيض وأسود وجاهل ومتعلم غنى وفقير بدليل قوله تعالى : ﴿ لا يَجْرِمَنَّكم شَنآنُ قومٍ أنْ لا تعدلوا . اعْدلوا هُوَ أقْربُ للتقوَى ﴾ ومعناه لا يحملنكم بغضكم لقوم على أن لا تعدلوا فيهم .

وقال أيضا : ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا كونوا قَوّامينَ بالقِسْطِ شُهَداءَ للهِ ولو على أنْفُسكم أوِ الْوالدَيْنِ والأقْربين ﴾ وليس بعد هذه الدرجة من العدالة أوج ترجو أن تعرج إليه أمة .

٣) هذا الكتاب "يأمر بالاحسان للجميع غير ناظر إلى الجنسيات أو الألوان أو الأديان ماداموا مسالمين فقال تعالى :

﴿ لا يَنْهاكُمُ اللهُ عنِ الذينَ لمْ يُقاتلوكُمْ فى الدِّينِ ولم يُخْرِجُوكم من دياركُمْ أنْ تَبَرُّوهُمْ وتُقْسطوا إليهم إنَّ اللهَ يحبُّ المُقْسطين ﴾ سورة الأنفال . والبر أقصى درجات الاحسان .

قال الكاتب الانجليزى الدكتور لتنر الاستاذ المشهور فى جامعات انجلترا ما يأتى من مقال كتبه عن الاسلام : « ومن وجهة التهمة المنكرة الملقاة على الاسلام وهى أنه جمد على سننه لا يريد تقدما ولا يماشى الحياة ولا يجارى اجيال الزمن وأحقاب الدهر . فانى أقول ان الحرية التامة فى تأويل القرآن وأحكامه والتبسط فى شرحها واطلاق قيودها تجعل الاسلام صالحا لكل ناس ملائما لكل مملكة متفقا وطباع كل أمة . ونحن نضرب لك مثلا فنقول : ان القانون المقرر للتأويل والتفسير وهو ان كل جملة شرطية لا بد من أن تحكم بشرطها يبعث على اطمئنان الضمير فاذا جاء فى القرآن : (قاتلوا المشركين) فانها جملة مطلقة ولكن إذا قيدت بهذا الشرط وهو (إذا قاتلوكم) كانت أكبر حجة على فساد ذلك الزعم الشنيع وهو أن الاسلام قام بالسيف وأسس على الجهاد والحرب الدينية . بل لا نجد القتال مشروعاً فى الاسلام إلا دفاعاً عن النفس إزاء الذين يقاتلون المسلمين ويطردونهم من أرضهم لانهم يعبدون من لا شريك له . والتسامح الدينى مستمسك به ذائع المنفذ بين المسلمين لأن (الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وإنك لترى فى سورة الحج فى القرآن أن غرض القتال ومقصد الحرب هو لحماية المساجد والمعابد والكنائس لان اسم الله يذكر فى كل منها

على السواء : أفليس هذا أقصى ضروب التسامح والحد الأكبر فى الرقى ؟ ونحن لم نبلغ شيئا منه إلا بعد قرون عديدة وأجيال . وقد عرفت كثيرين من المسلمين يكتتبون ويخرجون عن أموالهم تعضيدا للكنائس . فنبئونى كم من المسيحيين اكتتبوا للمساجد ؟ ومع ذلك لا يزال اسم الله يذكر فى المساجد والكنائس معا .

وإذا ذكرنى المسيحيون باضطهاد المسلمين لجموع منهم فأقول : إن تلك الاضطهادات لا تذكر بجانب المذابح التى قتل فيها المسيحيون الجموع العظيمة من بنى الإسلام . وقد أقسم عمر بن الخطاب يوما إلا أن يثأر لدينه من تلك المذبحة التى أقامها المسيحيون فى بيت المقدس بأن يذبح أهلها والمحاربين للدفاع عنها يوم أراد فتحها . على أنه إذا اقتحم أسوارها ودخلها عزيزا منتصرا أبى إلا أن يحنث بيمينه وقال : لأهون على الحنث بيمينى من أن أقتل مخلوقا واحدا من مخلوقات الله .

ولا اجد ما أختم به بحثى هذا خيرا من هذه الحقيقة التى أصر على قولها وترددها وهو أن الاسلام والمسيحية والموسوية أقارب وإخوان من مصدر واحد وأصل واحد . وأتمنى على الله أن يقبل ذلك اليوم الذى أرى فيه المسيحيين يوقرون ويعظمون المسيح أكثر من توقيرهم إياه وتعظيمهم له وذلك بتوقيرهم محمدا كذلك وتعظيمه لأن هناك وجوه شبه ونواح مشتركة وعواطف متفقة بين الاسلام والنصرانية . والمسيحى المسيحى من دان بتلك الحقائق التى دعا إليها محمد النبى العربى (١) .

٤) هذا الكتاب لا يبيح العقاب إلا على قدر الاعتداء . قال تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا

---

(١) نقلا عن ترجمة مجلة البيان العدد الثانى من السنة السابعة . فبراير ١٩١٩

أَنَّ اللهَ مع المتَّقين ﴾ وقد نوه بفضيلة العفو حيا فى نشر السلام والطمانينة فقال تعـــالى ﴿ وجَزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلُها فمنْ عَفا وأصلح فأَجْرُه على اللهِ إنَّ اللهَ لا يُحبُّ المُعْتدين ﴾ .

٥) هذا الكتاب أمر بالعزة والعدل والاستقامة فقال تعالى ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يُقاتلونكم ولا تَعتَدوا إنَّ الله لا يحبُّ المعْتَدين ﴾ .

ومن الاعتداء قتل الجرحى والمرضى والنساء والأطفال وحرق الزرع وهدم البيوت وغير ذلك .

٦) هذا الكتاب طالب بالاستعداد للمكروه خشية طغيان الباطل على أن يكون الغاية السلام والوئام فقال تعالى ﴿ وأعِدُّوا لهمْ ما اسْتطعْتُم من قوَّةٍ ومن رباط الخَيْل تُرْهبونَ به عدوَّ اللهِ وعدوَّكم وآخَرينَ من دُونهم لا تعلَمونهُم اللهُ يعلَمهم وما تُنْفقوا من شيءٍ فى سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتُم لا تُظْلَمون. وإنْ جَنَحُوا للسِّلْمِ فاجْنحْ لها وتوكَّلْ على الله انَّه هوَ السميعُ العليم ﴾

٧) هذا الكتاب جعل العلم وسيلة الرقى والسير فى الحياة فقال تعالى ﴿ وقل ربِّ زِدْنى علما ﴾ وفضل العلم على غيره من شئون الحياة فقال ﴿ هل يَستوى الذين يَعْلَمون والذين لا يَعْلمون ﴾ وقال أيضا ﴿ يَرْفعُ الذينَ آمَنوا

منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير ﴾ سورة المجادلة .
وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : «من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم » .

قال الفيلسوف الروسى « تولستوى » : من فضائل الدين الاسلامى أنه أوصى خيرا بالمسيحيين واليهود كما أمر بحسن معاملتهم حتى أباح هذا الدين لأتباعه التزوج بالمسيحيات مع الترخيص لهن بالبقاء على دينهن . ولا يخفى على ذوى البصائر ما فى هذا الدين من التسامح ، وحسبه فخرا أنه هدى أمة بأجمعها إلى نور الحق وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام بعد الخصام وسفك الدماء وفتح لهم طريق الرقى والمدنية وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتى قوة فوق قوة البشر .

قال أدموند بورك الانكليزى : القانون المحمدى قانون ضابط للجميع من الملك إلى أقل رعاياه وهو قانون نسج بأحكم نظام قضائى وأعظم قضاء علمى ، وأجل تشريع منير ما وجد مثله فى هذا العالم من قبل ، وان المستقبل للاسلام ، وانه هو الدين الذى جاء لجميع الناس كلهم على مبدأ واحد فقال : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وقال الكاتب الانكليزى الذائع الصيت برنارد شو فى رسالة انكليزية تحت عنوان « نداء العمل » :

« لقد وضعت دائمادين محمد موضـــع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لاطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل جيل من النـاس . . . ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غدا ، ولقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم ، وقد صور اكليروس القرون الوسطى الاسلام بأحلك الألوان إما بسبب الجهل ، أو بسبب التعصب الذميم .

« ولقد كانوا فى الواقع يمرنون على كراهية محمد وكراهية دينه وكانوا يعتبرونه خصما للمسيح . ولقد درسته باعتباره رجلا مدهشا فرأيته بعيدا عن مخاصمة المسيح ، بل يجب أن يدعى منقذ الانسانية . وإنى لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله دكتاتورية العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة وهو فى أشد الحاجة إليهما . . . »

* * *

لاعاصم لنا اليوم مما نحن فيه من المهالك والاضطراب المادى والمعنوى إلا إذا رجعنا إلى كتاب الله (القرآن الكريم) واهتدينا بهديه واتخذنا سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة لنا وللمسلمين كافة وقد كان خلق رسول الله القرآن : ﴿ ومَنْ يَعْتَصِمْ بالله فقد هُدِىَ الى صراطٍ مُسْتقيم ﴾ .

* * *

وإذا أمكننا أن نلخص ما جاء فى هذا الكتاب نقول :

(١) إن القرآن الكريم جعل الدعوة إلى العلم فى المحل الأول وإن العلم الطبيعى (المادة — والطاقة) جزء من دعوته — قرآنى بموضوعه كما قال تعالى ﴿ انَّ فى خَلْقِ السَّمٰواتِ والأَرْضِ واخْتلافِ الليلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولِى الأَلْبابِ ﴾ والألباب هنا معناها أصحاب العقول . وكما جاء فى سورة فاطر قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ من السماءِ ماءً فأَخْرَجْنا به ثمراتٍ مُخْتلفًا أَلوانُها — ومِنَ الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ أَلوانُها وغرابيبُ سُود . ومِنَ الناسِ والدَّوابِّ والأَنْعامِ مختلفٌ أَلوانُه كذٰلك — إنَّما يَخْشى اللهَ من عبادِه العلماءُ . إنَّ اللهَ عزيزٌ غفور ﴾ .

والمراد هنا بالعلماء هم العلماء العارفون بأسرار الطبيعة .

القرآن والعلم أسلوبهما واحد — لا يقولان عن شىء إنه حق إلا إذا قام عليه البرهان اليقين القاطع .

ولذلك وجب على الانسان أن لا يتبع إلا الحق المعلوم يقيناً ﴿ ولا تقفُ ما ليْسَ لكَ به علم ﴾ وإن الوصول إلى هذا الحق هو المشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح . وإن على الانسان أن يستمسك بما يصل إليه

من الحق عن طريق هذه المشاهدة والتفكير الصحيحين[1] هذا فيما خص بالعلوم الطبيعية التى أساسها المشاهدة والتجربة والتفكير الصحيح . واجب المسلم القادر الاهتمام بدراسة العلوم الكونية للاستفادة منها ومن خواصها كالانتفاع مثلا بخواص الكهرباء والبخار والحديد والهواء وأن يجعل كل ذلك فى سبيل الخير العام والمصلحة الانسانية .

(٢) ان عمارة الأرض وخلافتها لا تكون إلا عن طريق العلم فى جميع فروعه وعلى اختلاف درجاته سواء أكان العلم الطبيعى (المادة والطاقة) أو علم الدين وعلم الاقتصاد - أو الاجتماع - أو السياسة - وفى القصص القرآنى الدليل القاطع على ذلك فمن الأنبياء والرسل - الزارع والصانع والتاجر والاقتصادى - وكانوا المثل العليا الصالحة والقدوة التى تنشدها الانسانية .

(٣) لا حياة صالحة للمسلمين والشرقيين وغير الشرقيين من بنى الانسان إلا عن طريق الجماعات والاتحاد بين جميع الطوائف والأمم على اختلاف مللها وأديانها . والعمل لخير الانسانية والصالح العام كما قال تعالى ﴿ انْ أَحْسَنْتُمْ أَحسنتمْ لأَنفُسكم وانْ أَسَأْتُم فَلَهَا ﴾ فيجب أن يتضافر الجميع على نشر العلم

---

(١) كتاب فى سنن الله الكونية للاستاذ محمد أحمد الغمراوى ص ٥ وما بعدها .

والتعليم والعناية بالتربية وتهذيب الأخلاق وهذا مما يدخل فى قول الله تعالى:

﴿ وتعاونوا على البرِّ والتقْـوَى . ولا تعاونوا على الاثمِ والعُدْوان ﴾

سورة المائدة .

(٤) يجب أن يؤخذ بأسباب القوة فى الحياة الدنيا دفعا للشر وحفظا للحق واعتزازا بالكرامة والفضيلة .

(٥) القرآن الكريم هو الكتاب الجامع للسعادتين الدنيا والأخرى ، يجب أن يكون المرجع والأصل لهداية البشر قال تعالى ﴿ انَّ هٰذا القرآنَ يَهْـدى للتى هىَ أقْوَمُ ويُبشِّرُ المؤمنينَ الذينَ يَعْملون الصالحاتِ أنَّ لهمْ أجْراً كبيرا ﴾ سورة الاسراء . صدق الله العظيم .

فهرس

صفحة

٣ كلمة عن الكتاب والمؤلف .
لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد صبرى عابدين .

١٢ القرآن : أثره فى قادة الفكر الغربيين والتطورات العالمية
القرآن عقد اجتماعى (كونتراتو) بين الله والناس - هو النظام العام لهداية البشر - نظام للفرد والجماعة - نظام للروح والجسد - نظام للأرض والسماء - نظام للغيب والشهادة - نظام الماضى والحاضر والمستقبل

٢٧ الاسلام والاصلاح
أسباب ضعف المسلمين - دعوة الاسلام إلى الاصلاح والعمل لخير الجميع - دعوة الاسلام إلى حرية الفكر والعلم - دعوة الاسلام إلى التسامح وارتباط الانسانية بعضها ببعض .

٣٨ آيات العلم لنبى الاسلام محمد عليه الصلاة والسلام .
الآيات التى نزلت على النبى - محمد ﷺ النبى الأمى هو أول من حارب الأمية - فتوحات الاسلام لمغاليق العلوم وأثر ذلك فى تقدم الانسانية .
القراءة والكتابة وأثرهما فى النهضة العلمية .

صفحة

٥٥ مآثر العرب فى العلوم المدنية .

٦٤ دعوة الاسلام لاصلاح المجتمع الانسانى .

٦٤ الأساس الأول : الايمان بالله ـ القائم على العلم ـ أثر ذلك فى المجتمع

٧٥ الأساس الثانى : حرية التفكير والقول فى العمل .

٨٣ آثار هذه التعاليم فى الحضارة والتقدم .

٨٧ المثل العليا للايمان بالله وحرية التفكير والعمل .

٩٦ الأساس الثالث : العمل الصالح وآثار ذلك فى النهضة الغربية .

١٠٦ وجوب التعلم والاستزادة من العلم .

١١٤ ما يجب أن يتحلى به طالب العلم من صفات ـ آثار ذلك .

١٢٤ مايجب على المعلم نحو المتعلم.

١٣٣ أثر دعوة الاسلام للعلم والتعليم فى المسلمين وغير المسلمين .

١٣٨ الحياة المادية والعلوم الاقتصادية .

١٣٨ النبى الاقتصادى ـ دعامة التدبير والاقتصاد ـ الخلق القويم .

١٤٤ المال ـ الجماعات التعاونية ـ دعوة نبى الاسلام إلى التعاون ـ التعاون وما يرجى منه لحل الأزمات الاقتصادية والاجتماعية .

١٦٠ الأسس الأخلاقية التى تقوم عليها الجماعات المالية والتعاونية ـ آثار ذلك فى حالة العمران .

صفحة

١٦٨ العلوم الصناعية .
النبي الصانع - والخليفة العابد المجاهد .
١٧٨ ارتقاء الفنون والصنائع فى إسبانيا تحت حكم المسلمين وأثر ذلك فى أوروبا .
١٨٠ آيات العلم فى ملك سليمان عليه السلام .
الصلاح والتقوى أساس الملك - تسخير الريح - تسخير الجن - علم منطق الحيوان وتسخيره .
١٨٩ كيف اكتشف عرش بلقيس ؟ وكيف أحضر ؟
١٩٨ السحر .
٢١٦ القضاء - آثار ذلك فى تقدم المسلمين - أساطيل المسلمين وفتوحاتها
٢٢٢ آيات العلم لعيسى عليه السلام .
٢٣٠ مكانة العلم فى القرآن .
٢٣٨ أثر الاسلام ودعوته للعلم والعمل والحضارة الحديثة .
٢٤٧ ما يجب عمله نحو العلم والانتفاع به .
٢٥٦ خاتمة : القرآن وقضية العالم أجمع .
حل مشكلات الانسانية — دعوة إلى الاخوة العالمية والسلام العام .

مؤلفات المؤلف

كيف نعلم القرآن لأبناء المسلمين الدرس الأول : العبادات .
« « « « الدرس الثانى : حق الله وحق الآباء والأبناء .
« « « « الثالث : مكانة المرأة فى القرآن .
« « « « حياة نبى الاسلام ورسول السلام حياته ودعوته .

كتاب التعاون

تحت الطبع

الاسلام والمسلمون :
قواعد الاسلام الخمس من ناحيتها الدينية والاجتماعية .
أين المسلمون من الاسلام (جزآن) .
دعوة الاسلام الى أدب النفس وتربيتها .

تطلب هذه الكتب من المؤلف . وعنوانه :
١٢ شارع الملكة نازلى . بالقاهرة

DATE DUE

JAFET LIB.
1 MAY 1978

JAFET LIB.
20 JUN 1991

JAFET LIB.
25 APR 1978

297.15:D21mA:c.1
الدرديرى ،يحيى احمد
مكانة العلم فى القرآن
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01006092

297.15
D21mA